الحضـارة الإسلاميـة

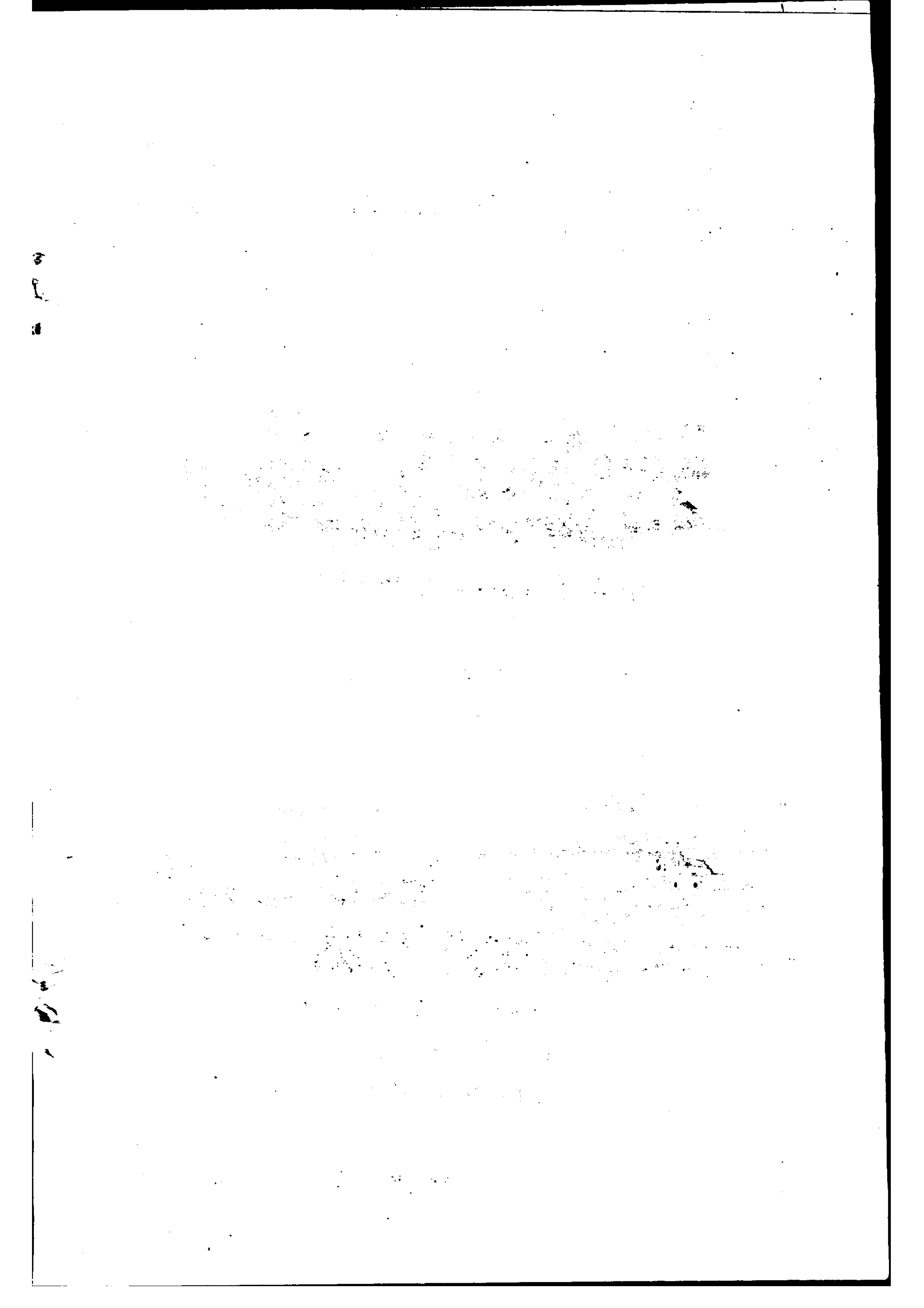
انتشارها وتأثيرها في الحضارة الأوربية

إعداد

دكتور
أ.د/ أحمـد الشامـي
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة

دكتور
د/محمد عبد العظيم أبو النصر
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية الآداب جامعة الزقازيق

(٢٠٠٧/٢٠٠٦)



إهداء

إلي روح العالم الجليل

أ.د/ أحمد الشامي

فهرس الموضوعات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فهذا كتاب فى الحضارة الإسلامية، نشأتها وتطورها وانتشارها وتأثر حضارة الغرب الأوربى بها، أقدمه للباحثين والدارسين من أبنائى وبناتى طلبة الدراسات التاريخية ليكون لهم عوناً فى دراساتهم ومرجعاً فى بحوثهم إلى جانب من سبقنى من الزملاء فى هذا الميدان العلمى، فعسى أن يجدوا فى منهجه العلمى القائم على كتاب الله وسنة رسوله ما يسيرون على هديه.

وقد رأيت أن أقتصر فى التعريف بالحضارة على رأى ابن خلدون الشائع بين المؤرخين وعلماء الاجتماع وغيرهم، وذكرت مقابلاً له تعريفاً آخر لأحد الأوربيين لأبين الفارق بين رأى بعض الغربيين فى مفهوم الحضارة، وبين مفهومها عند علماء المسلمين.

وفى رأيى أن الحضارة هى كل النتائج والخبرات التى توصل أو يتوصل إليها الإنسان من خلال دراساته وتجاربه فى مجالات الحياة كلها، معنوية ومادية، مثل توصل العقل البشرى إلى تفسيرات للقوانين والتشريعات التى تنظم شئون الدولة والمجتمع بشكل يتفق مع العلم والعقل والمنطق، أو التوصل إلى اكتشافات علمية أو عملية تجعل الحياة أيسر وأسهل وتمكن أفراد المجتمع من استخدام هذه الاكتشافات لمصلحة الأمة والدولة معاً فى كل النواحى العلمية (اكتشافات الفضاء ودراسة سطح القمر والوصول إلى أماكن بعض الكواكب الأخرى.. إلخ) والاجتماعية (حريات بأوسع معانيها للإنسان مع الالتزام بالقيم والقوانين الأخلاقية والدينية.. إلخ) والاقتصادية (استنباط أنواع جديدة فى الزراعة، وتطوير فى الصناعة وتيسير فى سبل التجارة.. إلخ) والسياسية (علاقات تقوم على حسن الجوار بين الدول، والتوازن والتكافؤ وعدم التدخل فى شئون الدول الأخرى... إلخ).

ويرى علماء اللغة أن الحضارة معناها الإقامة فى الحضر (المدن) لأن مظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى لا يكون إلا فى الحضر. ويميز البعض منهم بين لفظى

حضارة ومدنية، فيجعل لفظ الحضارة خاصاً بالتكوين الثقافى والمعنوى لمجتمع ما، ولفظ مدنية يعد أكثر اتصالاً بالمظاهر المادية المتصلة بالحياة العملية.

وقد نتج عن هذا التمييز أن تقارب المعنى كثيراً بين لفظى حضارة وثقافة لدرجة أن أصبح من الصعب التمييز بينهما، ولدرجة أن بعض المؤرخين استخدم اللفظين كمترادفين، لأنه يرى أن لكل مجتمع حضارته أو ثقافته Cultur الخاصة به، بينما ليس لكل مجتمع بالضرورة مدنية، لأن المدنية تمثل نمطاً معيناً من التطور.

والحقيقة أن لفظ حضارة حديث الاستخدام نسبياً لأنه لم يكن شائعاً عند العرب واستمر كذلك قروناً عديدة فى أعقاب الفتوحات الإسلامية وربما الاستثناء الوحيد فى هذه الفترة الزمنية الطويلة هو ابن خلدون الذى استعمل تعبير (العمران البشرى) كمرادف لمعنى الحضارة.. وقد بدأت معرفة هذا اللفظ (الحضارة) خلال العلاقات الثقافية والاحتكاكات الاجتماعية بين الشرق والغرب منذ العصور الوسطى.

وترجع أهمية دراسة الحضارة إلى كونها وحدة مجمعة لنتائج الدراسات التاريخية، أى أنها دراسة النتائج الحاصلة من أحداث التاريخ فى الماضى، والتى يمكن للإنسان أن يطبقها فى مجتمعه ليفيد منها فى الحاضر ويقدمها إلى الأجيال القادمة كى يسيروا على نهجها ويقتفوا أثرها فى المستقبل، لأن التجارب التاريخية تلعب دوراً هاماً فى صياغة هذا الحاضر والتطلع إلى المستقبل الذى ينبغى على المجتمع المسلم أن يسير إليه وفق مفاهيم القيم العقيدية والفكرية التى تنبثق عن ذاته الحضارية، لأنه من المستحيل أن يبدأ أى مجتمع انطلاقته الحضارية من فراغ. فلابد له إذن أن يعتمد على تراثه الفكرى وعلى نتائج أحداثه التاريخية فى الماضى ليستمد من هذه الجوانب القيم التى ساهمت وتساهم فى صياغة الجوانب الحضارية فى نسيج هذا المجتمع.

وقد عنيت فى هذا الكتاب بعدة نقاط مهمة، ففى الفصل الأول أبرزت الدراسة صلاحية الإسلام للحياة البشرية جميعها، وأنه أفضل النظم التى تساير الحياة وتتفق فى نسيجها وفى كل خصائصها مع روح الإسلام، مما يجعل هذه النظم الإسلامية طرازاً فريداً أضفى على الدولة الإسلامية خصائص مميزة لا يشاركها فيها دولة من الدول غير الإسلامية، لأن مهمة الحاكم فى الدولة الإسلامية تحرير أفراد الشعب من أنواع العبودية لغير الله عز

وجل، وضرورة الالتزام بمبادئ الإسلام وحماية هذه المبادئ وتطبيقها ونشرها. وقد تخلصت من الانتقادات والاعتراضات التى صاحبت لفظ (خليفة) واستعملت لفظ (رئيس الدولة) لأن كثيراً من المعانى والهالات البراقة والظلال أحاطت بلفظ (خليفة) وكل ذلك دخيل لا علاقة له بمبادئ الإسلام السمحة، وركزت بشدة على أهم ما يجب أن يكون عليه رئيس الدولة من صفات تؤهله إلى تولى مسئولية رئاسة الدولة.

وتناول الفصل الثانى بداية نظام الحكم في الدولة الإسلامية على عهد رسول الله (ﷺ) والهدف من بناء مسجد المدينة ليكون مقراً للحكم، وتناولت الدراسة تطور بناء هذا المسجد وما أضيف إليه من زيادات حتى العصر العثمانى.

أما الفصل الثالث فاحتوى الخلافة فى الدولة الإسلامية، وتطور نظام الحكم منذ عهد الراشدين حتى نهاية الدولة العباسية، ولم تغفل الدراسة نظام الحكم فى دولة الأمويين بالأندلس، وألقت بنظرها على سلطة الخليفة، ورأى الفقهاء والمؤرخين فى الخلافة.

واختص الفصل الرابع بدراسة الوزارة ومعناها فى اللغة وأهميتها، وأشكالها فى العصور الزمنية المتعاقبة، والشروط الواجبة فيمن يتقلدها، وتعرضت إلى الوزارة فى مصر وفى الأندلس، كما تناول هذا الفصل دراسة الإمارة واختصاصات الأمير وظهور منصب أمير الأمراء، والسلطان والملك.

وفى الفصل الخامس ألقيت الضوء على النظام الإدارى بداية من عهد الرسول (ﷺ) وتطور هذا النظام ونشأة الدواوين واختصاص كل ديوان، ولم يغب عن ذهنى التعرض للمآخذ التى قيلت فى أصحاب هذه الدواوين، وختمت هذا الفصل بدراسة البريد.

واقتصر الفصل السادس على دراسة الموارد المالية للدولة (الزكاة الصدقات والفئ والغنيمة والجزية والخراج والعشور..) وعلى نوع العملات التى استعملت، وظهور الصيرفة والصيارفة. وفى القسم الثانى من هذا الفصل ألقيت الضوء على الشرطة وأنواعها، والحسبة والقضاء والشروط اللازمة للقاضى، ومساعدوه، والنظر فى المظالم.

أما الفصل السابع فتناول النظام الحربى، وتكوين الجيش، وأقسامه ومستشفيات الميدان، وكذلك الجيش فى مصر، وتأسيس البحرية الإسلامية (الأسطول) ودور البحرية فى المغرب والأندلس، وبعض أنواع سفن هذا الأسطول، وأسلحة القتال المستعملة آنذاك.

وفى الفصل الثامن عرضت أسس النظام الاجتماعى فى الإسلام، من حيث الزواج، والطلاق، وحقوق المرأة فى الإسلام.

أما الفصل التاسع فقد تناول بشئ من التفصيل دراسة العلوم والآداب، بدءاً من اهتمام علماء المسلمين بترجمة علوم السابقين وأشهر المترجمين فى الدولة الإسلامية، وعلماء الطب المسلمين ومؤلفاتهم، ومن كان موجوداً منهم فى أسبانيا المسلمة. وكذلك علم الكيمياء وأشهر علمائها، وعلماء الرياضيات ومؤلفاتهم، والجديد الذى اكتشفوه أو ابتكروه فى هذه العلوم كلها، وأيضاً علم النبات والحيوان وأشهر العلماء والمؤلفات، وختمت هذا القسم من هذا الفصل لبعض آراء المستشرقين المعتدلين فى علوم وعلماء العرب المسلمين.

وفى القسم الثانى من هذا الفصل تناولت الدراسة علم التاريخ وأشهر علمائه ومؤلفاتهم، وعلم الجغرافيا وأشهر العلماء والمؤلفات فيه، وختمت هذا الفصل بلمحة عن دراسة الخرائط الجغرافية بدقة متناهية.

أما الفصل العاشر والأخير فكان مخصصاً لناحية مهمة فى دراسة الحضارات وهى تأثير الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية وبدأت بالمعابر التى انتقلت من خلالها الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربى، ومدى تأثر الحياة فى أسبانيا بالفتح الإسلامى، فى كل نواحى الحياة، ثم انتقال ما اكتسبته أسبانيا من الحضارة الإسلامية إلى الدول المجاورة ومنها إلى بقية دول أوربا قاطبة، ورأى علماء الغرب الأوربى فى هذه الحضارة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الفصل هو فى حقيقته بحث علمى ساهمت به مع زملائى المشتغلين بعلم التاريخ والحضارة فى الندوة الدولية الأولى لحضارة دول حوض البحر المتوسط المنعقدة فى جامعة الأسكندرية (كلية الآداب) يناير سنة ١٩٩٤ وقد نشر البحث فى كتاب هذه الندوة، وعلى الله قصد السبيل.

المؤلف

أ.د. أحمد الشامى

مدينة المهندسين

١٥ رجب ١٤١٨هـ

٤ نوفمبر ١٩٩٨م

الفصل الأول

مفهوم الحضارة فى الإسلام

معنى كلمة حضارة :

لهذه الكلمة تعاريف متعددة، فابن خلدون[١] مثلاً يرى أنها أحوال زائدة على الضرورى من أحوال العمران.. أو بمعنى آخر أنها رفاهة العيش ومظهرها يكون واضحاً فى المدن والقرى (أى فى الحضر)، ولا تظهر فى البادية (الصحراء)، لأن أهل البادية (البدو) - فى رأى ابن خلدون - هادمون للحضارة، يحطون الحياة، ويجعلونها كالصحارى، وإن كانوا قابلين للتحضر[٢]. وقد أخذ كثير من أهل الشرق وأهل الغرب الأوروبى بهذا الرأى واعتقدوا أن الحضارة هى حياة الرفاه الهادئة.

ولكن المخترعين وأصحاب رءوس الأموال يرون أن الحضارة هى الوصول إلى الغايات والأهداف التى يرنوا إليها فكرهم، وأن الوسيلة إلى ذلك هى السرعة والسرعة فى كل شئ، وعلى الشباب أن يضحى فى سبيل هذه الغاية بالراحة والسلام والعطف على الآخرين وأن ينسى الرحمة والعطف[٣].

ولذلك استعمل العرب لفظ التمدن أو التمدين بدلاً من لفظ الحضارة، وكلمة التمدن تطابق الكلمة اللاتينية Civitas ومعناها فى اللغة الألمانية "Bürgerrecht"، ومنها كلمة civis أى سكان المدينة "Landesleute" ومنها كذلك كلمة Civitatula بمعنى بليدة أو قرية "Städtchen" ثم كلمة Civilis بمعنى عالمى "Weltlich" فمن هذا الأصل اللاتينى اشتقت كلمة حضارة، وكتبت فى اللغات الأوروبية الحديثة بصورة متقاربة، ففى اللغة الإنجليزية تكتب Civilisation وفى الفرنسية Civilization وفى الألمانية Kultur أو Zivilisation ... وهكذا.

وتختلف الحضارات قديمها وحديثها، لأن لكل منها مميزاتها الخاصة، وطابعها الخاص ومظاهرها الدالة عليها ولأنها نتاج لتفاعل الإنسان مع البيئة التى تصلح لهذا التفاعل مع الإنسان، ولما كانت كل بيئة تختلف عن الأخرى، فقد اختلفت مظاهر الحضارات واصطلح الناس على التمييز بينها وتسميتها بمسميات البيئة التى ظهرت فيها وتفاعلت مع سكانها

ونتجت عنها، مثل حضارات مصر القديمة، والحضارة البابلية، والحضارة الفارسية وحضارة اليونان والرومان، ثم الحضارة الإسلامية وهكذا.

The civilisations of ancient Egypt

The civilisations of Persian.... etc.

ومع ذلك يختلف المؤرخون والباحثون على مسميات الحضارة الإسلامية، فالبعض يسميها حضارة عربية لوجود الطابع العربى فيها، ولأن العرب حملوا لواءها وأثروا فيها وفى نشأتها تأثيراً واضحاً وكبيراً، ويعترض البعض على هذه التسمية لوجود علوم وفنون وتقاليد أمم غير عربية من عجم وترك وهنود وغير ذلك، سواء ظهرت هذه التقاليد ومظاهر هذه العلوم ولعبت دورها فى حياة العرب اليومية وفى أعمالهم وتصرفاتهم أو لم تظهر، وتركت أثرها فى هذه الجوانب كلها.

ويسميها البعض الآخر حضارة إسلامية لتغلغل الروح الإسلامية فيها، ولأن الإسلام هو الذى بعثها وقننها ورسم حدودها. ويعترض البعض على ذلك ويقولون كيف نسميها حضارة إسلامية وفيها تأثيرات لحضارات سابقة على الإسلام مثل الحضارة البيزنطية والفارسية والهندية وهذه حضارات مسيحية ومجوسية.. إلخ.

ويرى فريق ثالث أنها حضارة عربية إسلامية لأنها نتاج للعروبة والإسلام مع ما فيها من تأثيرات غير عربية وغريبة عن الإسلام. ولو سلمنا جدلاً بأن هذه التسمية تنطبق على معظم أجزاء الدولة العربية الإسلامية، فإنها لا تنطبق على البلاد البعيدة عن جزيرة العرب والتى دخلها الإسلام، ولم تحكمها العناصر العربية من قريب أو من بعيد، مثل بعض الأماكن فى الهند، وفى الصين، وفى أندونيسيا (جاوه وسومطره) وأماكن أخرى.

ومع وجود هذه الآراء المختلفة فإننا نميل إلى تسميتها بالحضارة الإسلامية، لأن الإسلام نفخ فى هذه الحضارة من روحه، وصهرها فى بوتقته، وقدم للبشرية جميعها أحسن النظم وأرقى السلوك وأعظم القيم التى تصلح وتعلى من شأنها وتسمو بنفوس البشر وترقى بهم إلى مراتب الإنسانية الحقة، لأنه فى رأينا لا ضير مطلقاً على الحضارة الإسلامية أن تتأثر فى بعض جوانبها بحضارات سابقة عليها، أو معاصرة لها طالما هى تطور ما تتأثر به من حضارات لصلحة المجتمع الإنسانى بما يتمشى مع روح التقدم العلمى والازدهار الفكرى، لأن الذين يتعصبون لحضارة ما من الحضارات، وينكرون تأثرها بأى نوع من الحضارات السابقة عليها أو

المعاصرة لها لا يرفعون بتعصبهم هذا من قيمة الحضارة التى يتعصبون لها، بل على العكس من ذلك فهم يجعلونها كما لو كانت نبتاً شيطانياً ليس لها جذور أو أصول تستمد منها الحياة. ومع اعترافنا بما للحضارات الأخرى من تأثير فى الحضارة الإسلامية أو فى (الحضارة العربية) فإننا نقرر مطمئنين أن الحضارة الإسلامية أثرت بدورها فى كثير من جوانب الحضارات التى ظهرت بعدها، وعلى وجه الخصوص حضارة الغرب الأوروبى.

ولعل ما يميز الحضارة الإسلامية وحدتها التى تربط بين جميع عناصرها وفروعها، أى أنها تتشابه فى خصائصها المميزة لها فى كل ميدان من ميادينها.

فإذا نظرنا إلى الفقه أو التشريع أو الفلسفة أو الطب أو الصيدلة.. إلخ فإننا نجد أن بينها جميعاً رابطة أو وحدة أو خيطاً رفيعاً يحس به الإنسان لأول وهلة على الرغم من اختلاف فى طبيعة هذه العناصر الحضارية. هذه الوحدة أو هذا الخيط الرفيع غير المنظور هو الإسلام، لأن الإسلام دين ودولة، عقيدة وشريعة نظام اجتماعى وسلوك أخلاقى، وهذه من أهم العناصر التى تكون الحضارة، ومعنى ذلك أن الحضارة الإسلامية استمدت وجودها من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية الشريفة، وهما مصدر التشريع الإسلامى.

ويطلق البعض على هذا القسم من الحضارة الإسلامية الجانب المعنوى أو حضارة الخلق والإبداع، لأنه يتناول جوانب حضارية لم تكن موجودة أو معروفة قبل الإسلام، وحتى لو كانت معروفة فنجد أن الإسلام أصلها وصقلها وعمق مفاهيمها ووضع لها النظم والتفاصيل.

أما القسم الثانى من الحضارة الإسلامية فهو يتناول الجانب المادى ويطلق عليه بعض الباحثين الحضارة التجريبية، وعناصر هذه الحضارة كانت موجودة قبل ظهور الإسلام مثل فنون العمارة، والطب، والهندسة، والفلك، والموسيقى، ولكنها ذبلت واختفت أو انقرضت وماتت أو مات معظمها قبل ظهور الإسلام لأسباب متعددة. فلما جاء الإسلام وانتشر وحث المسلمين على تلقى العلم بكل فروعه لنفع البشرية، ففى القرآن الكريم قوله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)(٤)، وقوله تعالى : (يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)(٥) وفى الحديث الشريف قوله ﷺ «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» و«خيركم من تعلم العلم وعلمه»(٦)، اتجه المسلمون لإحياء هذه العناصر الحضارية، وطوروها، وأضافوا إليها، وقدموا للعالم كله حضارة

جديدة هي الحضارة الإسلامية.

فإذا تناولنا القسم المعنوى من الحضارة الإسلامية نجد أن من عناصرها «النظام السياسى فى الإسلام» لأن الإسلام عنى بالسياسة عناية كبيرة ووضع لها القوانين وقنن لها الحدود، وقدم للبشرية فى هذا المضمار أكثر النظم استقراراً وثباتاً ورسوخاً وفائدة، وأول ما عنى به أنه ألزم المجتمع الإسلامى قيام حكومة تدير شئونه وتشرف على أموره، وتنظم وتراعي مصالحه. وقد أجمعت مصادر التشريع على ذلك مستندة على ما جاء فى القرآن والسنة. ففى القرآن قوله تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس)(٧)، وقوله تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة)(٨)، وقوله تعالى : (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور)(٩)، وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)(١٠). ومن السنة الشريفة قوله ﷺ «من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية»، و«إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم»(١١).

ومهمة الحكومة فى الدولة الإسلامية تحرير البشر من كل أنواع العبودية لغير الله عز وجل، والإلتزام بمبادئ التشريع الإسلامى وحماية هذا التشريع وتطبيقه (أى العمل به) ونشره والدعوة إليه بالطرق المشروعة، لقول الله تبارك وتعالى : (إن الدين عند الله الإسلام)(١٢)، وقوله (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)(١٣)، وقوله (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)(١٤)، وقوله (يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)(١٥)، وقوله (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)(١٦)، وقوله (وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)(١٧)، وقوله (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)(١٨).

ومن مهمة الحكومة كذلك العمل على تقوية الروابط بين المسلمين جميعاً، أياً كان موقع بلادهم ومكان سكناهم، لأن المسلمين فى التشريع الإسلامى أمة واحدة، ولا ينبغى أن تنقسم الأمة على نفسها إلى شعوب ودول مختلفة المشارب والأمزجة ومتعددة النظم، مختلفة النحل والأهواء، والقرآن الكريم يوضح ذلك فى قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس)(١٩)، وقوله (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)(٢٠)، وقوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم)(٢١).

ومن مهمة الحكومة أيضاً تعليم المسلمين الأحكام الشرعية وما يتعلق بها من أمور الدين والدنيا، وكذلك إنزال العقوبة بمن يخالف هذه الأحكام لقول الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)(٢٢).

ولأن هذه النظم مستمدة من القرآن الكريم، وهو كتاب الله المنزل على رسوله الأمين، ولأن القرآن الكريم هو الدستور الذى ارتضاه الله للبشرية جميعها، ولأن القرآن فيه إجمال وفيه تفصيل كانت مهمة رسول الله محمد ﷺ - باعتباره الإمام والقائد والزعيم - تفسير وتوضيح هذا الدستور وشرح ما فيه من المجمل ليصبح سهلا وميسراً على أفراد الأمة فى فهمه وتطبيقه حتى تعيش المجتمعات المسلمة فى داخل الدولة (أو الأمة الإسلامية) الموحدة فى استقرار وطمأنينة، وفى رغد من نعم الحياة، ويكون سبيلها فى الحياة متفقاً مع الجادة والاستقامة والهدى. ودليلنا قوله تبارك وتعالى : (وأنزلنا عليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)(٢٣)، وقوله : (كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)(٢٤)، وقوله : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)(٢٥) ومن أحاديث الرسول ﷺ قوله : «تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدى أبدا، كتاب الله وسنتى»، وقوله «هذا الكتاب فيه خبر من قبلكم، وحكم ما بينكم، من تمسك به هدى إلى صراط مستقيم، ومن تركه قصمه الله من جبار».

ويكفى للدلالة على شمولية ما جاء فى القرآن الكريم من أحكام، أن سلفنا الصالح الذى فهموا أحكامه وعملوا بها سادوا عالمهم، وفتحوا البلدان والأمصار، ودانت لهم الدول، وخضع لهم الملوك والأباطرة والأكاسرة، وأن بعضاً من علماء الغرب الأوروبى المعتدلين أقروا بكل الصدق والصراحة بعظمة هذا القرآن وبصدق كل ما جاء فيه، واعترفوا بأنه منزل من عند الله فآمنوا به ودخلوا فى دين الإسلام بعد دراسة متأنية وفهم عميق، لأن ما جاء فيه مس شغاف قلوبهم، ونفذ إلى أعماق وجدانهم، وتأكدوا أن ما اشتمل عليه هذا القرآن من نظم سياسية أو اقتصادية أو فى العلاقات بين الشعوب أو بين الدول كفيلة إذا اتبعت وطبقت أن تنقذ عالمنا مما أصابه من انقسام وما حل به من صراع وما دب فى أفراده من انحلال يهدد الإنسانية كلها بالفناء(*). ودليلنا على ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له

معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى)(٢٦).

ومع أن التشريع الإسلامي ألزم الحكومة تعليم المسلمين الأحكام، إلا أنه وضع شروطاً وحدد أموراً لمن يتقدم لحمل مسئولية رئاسة الدولة. وعلى ذلك فليس من المستطاع لمن لا تتوفر فيه هذه الشروط أن يتولى الخلافة أو الإمامة أي رئاسة الدولة، لأن ذلك الأمر ينبغي أن يكون في أهل العقد والحل وليس لغيرهم. ويفضل كثير من فقهاء القانون أن يستبدل تعبير (الخلافة والإمامة) بتعبير رئاسة الدولة نظراً لما أحدثته التسمية الأولى من فتن ودسائس وحروب بين المسلمين.

وما يقرره التشريع الإسلامي في هذا الموضوع هو أن يتولى رئيس الدولة منصبه عن طريق الشورى كما ينص القرآن الكريم في قوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم)(٢٧) وقد فسر بعض الفقهاء أن هذه الشورى تكون في أهل العقد والحل، أي فيمن تتوفر فيهم شروط الخلافة. ويستند هؤلاء الفقهاء إلى أنه عندما ذهبت جماهير المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) إلى علي بن أبي طالب وأعلنت اختيارها له خليفة على المسلمين صاح فيهم وقال : إن هذا الأمر ليس لكم، أين أهل بدر؟، أين طلحة والزبير؟(٢٨). ومع ذلك فإننا لا ننكر دور الجمهور (عامة الشعب) فإن من حقهم أن يرفضوا الشخص الذي اختاره أهل العقد والحل ويعلنوا ذلك صراحة مع ذكر الأسباب التي دعتهم إلى الرفض، بشرط أن يلتزموا الصدق.

والشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى رئاسة الدولة هي :

١ - أن يكون مسلماً راشداً وعلى صفة القاضي في الحزم والعقل.

٢ - أن يكون من أفضل أفراد المجتمع ديناً وعلماً حتى تتوفر فيه العدالة.

٣ - أن يكون سليم الحواس، قويا بأمر الحرب والسياسة وإقامة الحدود، والدفاع عن الأمة، أي ينبغي أن يكون صاحب رأي وتدبير.

٤ - أن يكون من قريش، وقد استبعد الفقهاء هذا النسب فيما بعد نظراً للتطور وتمشياً مع سنة الحياة، واستناداً إلى ما ورد في الحديث الشريف «اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي».

أما الأمور التى يكون رئيس الدولة (الخليفة أو الإمام) مكلفاً بها ومفروضة عليه فهى:

١ - أن يحفظ الدين على الأصول التى أجمع عليها السلف منعاً للخلل والزلل.

٢ - تنفيذ الأحكام بين أفراد المجتمع، حتى يعم العدل، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

٣ - حماية البيضة، والذب عن الحوزة لينصرف الناس إلى معايشهم.

٤ - إقامة الحدود لتصان محارم الله عن الانتهاك، وتحفظ حقوق العباد من الإتلاف.

٥ - تحصين الثغور بالقوة المانعة والقوة الدافعة رداً لأى عدوان مفاجئ من عدو.

٦ - إعلان الجهاد على من حارب الإسلام بعد دعوته ليعود إلى الحق أو يكون من أهل الذمة.

٧ - جباية الفئ طبقاً لما جاء بالتشريع الإسلامى.

٨ - تقدير العطاء (مرتب أو معاش) لمن يستحق من بيت المال بدون إسراف أو تقطير.

٩ - أن يختار معاونيه وعمال الدولة ممن تتوفر فيهم الأمانة عند إسناد أى عمل إليهم، لأنه مسئول عن أعمالهم وعن أى فساد يقومون به، وقد ورد فى الحديث الشريف قول الرسول ﷺ ما معناه «من ولى على المسلمين حاكماً وهو يعلم أن فى القوم من هو أفضل منه فقد خان الله والرسول وأمانة المسلمين، ثم قرأ قول الله تبارك وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون)(٢٩).

١٠- أن يباشر بنفسه سياسة الدولة ويهتم بشئون الأمة، وحراسة شرع الله، ولا يعول على التفويض فى ذلك لإنشغاله بلذة أو عبادة، خشية أن يخون الأمين (الوكيل) ويغش الناصح، وذلك لقول الله تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى)(٣٠) وما ورد فى الحديث الشريف «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته».

وينبغى على المجتمع أن يحدد مدة زمنية محددة ومعلومة لرئاسة الدولة يجرى فى نهايتها إعادة الشورى، وإجراء انتخابات بين المرشحين لهذا المنصب خوفاً من استبداد رئيس الدولة بالمجتمع إذا استمر بصفة دائمة فى الحكم، وقد لجأت كل الدول المتقدمة إلى الأخذ بهذا الوضع، فلا يمكن لرئيس الدولة البقاء فى الحكم بعد مضى المدة الزمنية المحددة فى التشريع

(الدستور)، فإذا توفرت كل الشروط المنوه عنها فى الإمام (رئيس الدولة) وجب على الأمة طاعته لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)(٣١).

رئيس الدولة ومعاونوه لا يعملون بالتجارة :

يقرر علماء الفقه أنه لا ينبغى لرئيس الدولة ولا لمعاونيه من الوزراء والولاة، ولا للقضاة أن يدخلوا فى صفقات عامة بائعين أو مشترين، لأن أى واحد من هؤلاء سوف يسمح له منصبه بأن يستأثر ويصيب أموراً فيها غبن وربما ظلم لغيره من أفراد المجتمع، ومما يؤثر عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أنه صادر مالاً تربحه أحد عماله فى ولايته فقال له : «أما والله ما بعثناكم لتتاجروا ؟»، ويقول عمر بن عبدالعزيز : «تجارة الولاة مفسدة وللرعية مهلكة»، ويقرر ابن خلدون(٣٢) أن تجارة السلطان مضرة بالرعايا. ويرى ابن تيمية(٣٣) أنه كما تحرم التجارة على الحاكم بسبب ولايته أمر المسلمين تحرم عليه كذلك ما يدخل فى معناها مثل المؤاجرة والمزارعة.

الحاكم وأعوانه لا يقبلون الهدايا :

يقرر التشريع الإسلامى أن الهدايا محرمة على الولاة (الحكام) فقد روى عن الرسول ﷺ أنه قال : «هدايا الأمراء غلول» وفى رواية أخرى : «هدايا العمال غلول» لأن تقديم هذه الهدايا لابد وأن يقصد من ورائه شئ. وفى حديث له ﷺ عن رجل من الأزد استعمله على الصدقة، فلما عاد قدم ما جمعه من أموال للرسول، ولكنه احتجز بعضه وقال : «هذا المال أهدى لى» فقال رسول الله ﷺ ما بال الرجل تستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول : «هذا لكم وهذا أهدى لى، فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا»(٣٤).

ويروى عن عمر بن عبدالعزيز (رضى الله عنه) أن رجلاً أتى إليه بتفاحات فلم يقبلها، فقيل له : كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية. فقال عمر : هى لرسول الله ﷺ هدية، وهى لنا رشوة(٣٥).

متى يجوز عزل الحاكم ؟

لا يمكن أن تكون الأخطاء البسيطة سبباً فى أن يفكر أهل العقد والحل فى عزل الإمام (رئيس الدولة) لأن العصمة لله وحده، ومركز الإمام أعز شأناً من أن يهتز من حين لآخر

بسبب هفوات لا تسبب خطراً على كيان الدولة، وينبغى على أهل الرأى أن يحيطوا هذا المنصب بأزيد الاهتمامات، وأن يرتفعوا به عن التحدى، لأنه المنصب الذى تتعلق به حماية الدولة وحقوق الأمة(٣٦). فإجلال هذا المنصب ليس من أجل شاغله، ولكن من أجل التقدير والتوقير اللازم لمنصب إذا عز عز المسلمون، وإذا ذل ذل المسلمون، وكانوا عرضة لهجوم الأعداء وعربدة الضالين. ومع ذلك يجوز عزل الإمام (رئيس الدولة) إذا أبطل قاعدة من القواعد الأساسية التى بنى عليها الدين الإسلامى، فيقرر مثلا : منع إقامة الصلاة، أو يأمر بعدم جباية الزكاة، أو يبيح عدم الصيام فى رمضان.. إلخ لأنه يكون فى هذه الحالة قد خرج على دين الإسلام وأصبح عزله واجباً على الأمة. وكذلك إذا عجزت حكومته عن تنفيذ التشريع الإسلامى، أو عجزت عن تحقيق الأمن والاستقرار فى داخل الدولة، أو عجزت عن تحقيق سلامة الوطن وحراسته من أى اعتداء خارجى لأنها بذلك تصبح حكومة عاجزة، حتى وإن كانت تستطيع فيما بعد، لأنها أهملت فهى حكومة فاسدة يجوز عزلها.

حواشي الفصل الأول

(١) المقدمة، ص٢٩٢-٢٩٤.

(٢) ربما كان رأى ابن خلدون هذا مقبولاً بالنسبة للعصور الوسطى، ومع ذلك فقد أحتاط لرأيه هذا فلم يجعله مطلقاً، ولكنه استدرك وقال إنهم قابلون للتحضر، وقد رأينا التقدم المذهل في كل جوانب الحياة معنوياً ومادياً منذ السبعينيات من هذا القرن، فنتيجة أمكن للإنسان نتيجة للتكنولوجيا والاختراعات العلمية والصناعية والبحوث الاقتصادية والزراعية، أمكن له أن يزرع أجزاء كبيرة جداً من صحراوات الجزيرة العربية ويحولها إلى أرض خضراء وأن يقيم فيها المدن وينشئ المصانع ويوفر كل احتياجات الإنسان للحياة (المؤلف).

(٣) هذا الرأى قاله دزرائيلى الإنجليزى، وقد أثبته Guide فى كتابه To modern wickedness, p. 241، وقد نقله الندوى فى كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص٢٣٥.

(٤) سورة الزمر/ ٢٩. (٥) سورة البقرة/ ١٥١. (٦) راجع البخاري ومسلم

(٧) سورة النساء/ ١٠٥ (٨) سورة النحل/ ٨٩. (٩) سورة إبراهيم/١.

(١٠) سورة النساء/ ٥٩. (١١) راجع كتب الحديث. (١٢) سورة آل عمران/ ١٩.

(١٣) سورة العمران/ ٨٥. (١٤) سورة النحل/ ١٢٥. (١٥) سورة البقرة/ ١٣٢.

(١٦) سورة التوبة/ ٣٣ وسورة الفتح/ ٢٨ وسورة الصف/٩.

(١٧) سورة المائدة/٣. (١٨) سورة البقرة/ ٢٥٦. (١٩) سورة آل عمران/ ١١٠.

(٢٠) سورة الكهف/ ٩١. (٢١) سورة البقرة/ ١٤٣. (٢٢) سورة النساء/ ٦٥.

(٢٣) سورة النحل/ ٤٤. (٢٤) سورة فصلت/ ٤٢.

(٢٥) سورة الزمر/١ وسورة الجاثية/٢ وسورة الأحقاف/٢. (٢٦) سورة طه/١٢٥.

(*) الذين دخلوا فى دين الإسلام من الأوروبيين كثيرون، ولكن كمثال نذكر منهم جارودى المستشرق الفرنسى المعاصر، والسفير الألمانى مراد ويلفريد هوفمان صاحب كتاب (يوميات ألمانى مسلم) وأستاذ الدراسات الشرقية بجامعة بودابست بالمجر (الحاج عبدالكريم جرمانوس).

(٢٧) سورة الشورى/ ٣٨. (٢٨) الطبرى : تاريخ، جـ٣، ص٤٦٢.

(٢٩) سورة الأنفال/ ٢٧. (٣٠) سورة ص/٢٦.

(٣١) سورة النساء/ ٥٩. (٣٢) المقدمة، ص١٩٧ وما بعدها.

(٣٣) السياسة الشرعية، ص٤٧. (٣٤) ابن تيمية : المرجع السابق، ص٤٦.

(٣٥) ابن عبدالحكم : سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص١٦٢.

(٣٦) عباس العقاد : الديموقراطية فى الإسلام، ص١٧.

الفصل الثانى
بداية نظام الحكم فى الدولة الإسلامية

١ - فى عهد الرسول :

يرى بعض الباحثين أن أول تنظيم حكومى فى المجتمع الإسلامى هو ما قام به محمد ﷺ فى بيعة العقبة الثانية، عندما اجتمع مع ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من أهل يثرب (الأوس والخزرج) وتم فى هذا الاجتماع إعطاء البيعة للرسول. ثم انتخب الرسول منهم إثنى عشر نقيباً (تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس) وقال لهم : «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء.. وأنا كفيل على قومى»(١).

وقد ترتب على ذلك أنه عندما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى يثرب، اعتبره أهلها واحداً منهم، واعتبر الرسول نفسه واحداً من الأنصار، أنزله الأنصار منزلة الصدارة، وأحلوه محل الزعامة، وأصبح الرئيس الأعلى للمجتمع الإسلامى فى يثرب التى سماها الرسول (المدينة)(٢).

بناء المسجد :

وكان من الضرورى أن يفكر النبى محمد ﷺ فى مكان عام يصرف منه شئون الدعوة وأمور المسلمين، أو بعبارة أخرى مكان يكون مركزاً للعبادة ومقراً لرئاسة المجتمع الإسلامى الجديد فى المدينة، فهداه تفكيره إلى بناء المسجد، الذى استكمل به هذا المجتمع الناشئ أهم مظهر من مظاهر الدولة (شعب وأرض وحكومة لها مقر ثابت) ثم اتسع قدرها فأصبحت تشمل النظم الاجتماعية.

هذا المسجد الذى أسسه النبى محمد ﷺ أصبح مكان اجتماع المسلمين بالنبى ﷺ يقيمون فيه شعائر الدين الإسلامى، ويتشاورون فى الشئون المهمة التى تخص المسلمين كما أصبح داراً للقضاء يعقد القضاة فيه مجالسهم للنظر فيما يخص المسلمين من أمور فى دنياهم. كما أصبح مركزاً لقيادة الجيوش الإسلامية المجاهدة تعقد فيه الألوية للرؤساء والقواد ويزودون بالنصائح والتعليمات، كما أصبح نزلاً لاستقبال الوفود والمبعوثين القادمين من البلدان المجاورة أو من القبائل لمقابلة الرسول القائد والزعيم والتحدث إليه فى شئون أهليهم

وذويهم، كما أصبح المسجد مكاناً لبيت مال المسلمين.. إلخ. وقد بقيت المساجد تؤدى هذه الأغراض مدة زمنية طويلة ولكنها اقتصرت بعد ذلك على إقامة الصلوات.

ومن المعلوم أن الرسول ﷺ كان يستشير الصحابة رضوان الله عليهم، والأدلة كثيرة نذكر منها استشارته إياهم فى غزوتى بدر وأحد، وفى غزوة الخندق (الأحزاب). وكان الرسول لا يجد حرجاً أن يعمل برأى جندى من جنود المسلمين، أو بمشورة إحدى زوجاته إذا تأكد أن فى هذا الرأى أو هذه المشورة خير للمسلمين ونجاحاً لأمرهم، ومن أمثلة ذلك أنه أخذ برأى الحباب بن المنذر فى موقعة بدر ونقل معسكر المسلمين إلى مكان قريب من الماء[٣]، وأنه أخذ برأى أم المؤمنين أم سلمة فى صلح الحديبية. وقد وضع القرآن الكريم أسس هذه الشورى، وبينها فى كثير من آياته، مثل قوله تعالى (.. فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر)[٤]، وقوله تعالى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم)[٥]. وكان الرسول شديد الحرص على استشارة أهل العقد والحل - كبار رجال الصحابة - فكان لا يبرم أمراً إلا بعد دراسته وتمحيصه وأخذ الرأى فيه.

هذا المسجد الذى عمل النبى ﷺ فى بنائه بيديه مع المهاجرين والأنصار كانت أرضه ملكاً لغلامين يتيمين فى المدينة من أبناء الأنصار[٦]، وكانا فى كنف أسعد بن زرارة رضى الله عنه، وقد جهد أسعد أن يدفع ثمن الأرض من ماله الخاص تكريماً للرسول ﷺ، ويقدر ثمنها بعشرة دنانير، فأبى رسول الله ﷺ ودفعها من مال أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ثم أمر الرسول بتسوية الأرض وردم ما بها من حفر. ويختلف المؤرخون على مساحة المسجد، فمنهم من يذكر أن المسجد كانت مساحته ٣٠٠ ذراع طولاً ومثلها عرضاً[٧] (٢٥٠٠ متراً مربعاً). أى كان مربع الشكل، ومنهم من يذكر أن هذه المساحة ١٠٠ ذراع طولاً × ٧٠ ذراعاً عرضاً (١٧٥٠ متراً مربعاً)، ومنهم من جعلها ٣٥ متراً طولاً × ٣٠ متر عرضاً، وفى رأيى أن أقرب هذه المساحات إلى الحقيقة هى (١٠٠ × ٧٠ ذراع) ثم زاد الرسول ﷺ فى مساحته بعد خيبر - كما سيرد بعد - فصارت ١٠٠ × ١٠٠ ذراعا، لأن معظم المصادر تقدر مساحة المسجد النبوى فى حياة الرسول ﷺ بـ ٢٤٧٥ متراً مربعاً باعتبار أن (الذراع = ٤٥ سم فقط)[٨]. وقد قمت بنفسى خلال زياراتى المتكررة فيما بين سنة ١٩٨٣ إلى سنة ١٩٩٨ لهذا المسجد العظيم بمحاولة تحديد هذه المساحة من واقع المسافات بين أعمدة المسجد مستعيناً بعدد البلاط الرخامى بين كل عمودين فى أرضية المسجد، وبعدد الخطوات التى قطعتها بين

كل عمودين أيضاً لأن شرطة المسجد منعتني من استخدام ألة القياس بالمتر فلجأت إلى هذه الطريقة وساعدني على ذلك أن بعض أعمدة المسجد الشريف مدون فى نهايتها عند التاج تعبير (حد مسجد الرسول) وعلى البعض الآخر (حد زيادة عمر) أو (حد زيادة عثمان) وأحصيت عدد البواكى (جمع باكية) فى كل حالة والمسافة التى بينهما (أى بين كل عمودين) فوصلت إلى أن المسجد النبوى الشريف كانت مساحته فى عصر الرسول ﷺ ١٠٠ متر طولاً × ٧٠ متر عرضاً. (بلغت أعمدة المسجد المحددة لمساحته فى حياة الرسول طولا ١٣ عموداً، المسافة بين كل عمودين ٨ خطوات، سعة الخطوة ١٠٥ سم أى ٨٠,٠٠١٠٠ متر. وعرضاً ١١ عموداً، أي ٦٩,٠٣ متراً).

وقد بنى المسجد بالطوب اللبن، وحفرت أساساته إلى عمق ثلاثة أذرع تقريباً[٩] وبنيت من الحجر، وجعل ارتفاعه حوالى مترين فقط، واستعملت أشجار النخيل أعمدة، كما حددت القبلة (الأولى) بهذه الأشجار، وكان اتجاهها إلى بيت المقدس، وجعل للمسجد ثلاثة أبواب : الباب الذى كان الرسول ﷺ يدخل منه، وباب الرحمة، وباب فى مؤخرة المسجد، وجعلت عضادتي هذه الأبواب من الحجارة. وقد غطى سقفه بالجريد[١٠]، وعندما سئل رسول الله ﷺ ألا تسقفه؟ قال : لا، عريش كعريش موسى[١١]. وفى أثناء البناء كان الرسول يرتجز هذا البيت من الشعر، ولم يتمثل الرسول ﷺ ببيت كامل من الشعر الأهذا[١٢].

هذا الجمال لاحمال خيبر ... هذا أبر ربنا وأطهر

اللهم إن الأجر أجر الآخرة ... فارحم الأنصار والمهاجرة

وعند إتمام البناء جعل رسول الله ﷺ فى المسجد مكاناً مظللا يأوى إليه المساكين، عرف باسم الصفة، ولكن البيهقى يروى فيما يذكره عن عثمان بن اليمامة أنه لما كثر عدد المهاجرين بالمدينة ولم يكن لهم زاد ولا مأوى، أنزلهم رسول الله ﷺ المسجد، وسماهم أصحاب الصفة، وكان يجالسهم ويأنس بهم[١٣]. ومعنى ذلك أن أهل الصفة لم يعرفوا فى المدينة إلا عندما كثر وازداد عدد المهاجرين من أهل مكة، وكان من بينهم عدد غير قليل من الفقراء.

ويرى البعض أن السقيفة التى عملت من جريد النخل كانت فى مكان القبلة فى اتجاه بيت المقدس (شمالاً)، ولما تحولت القبلة إلى الكعبة فى السنة الثانية للهجرة[١٤] (جنوباً) أقيمت سقيفة أخرى مثل السقيفة الأولى، وبذلك أصبح المسجد مكوناً من صحن مكشوف فى

الوسط، ومن ظلتان إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب، ثم دفعت سنة التطور العرب إلى أن يصلوا ما بين هاتين السقيفتين بسقيفتين جانبيتين حتى يتوفر للمصلين مساحة أكبر مظللة.

وقد استغرقت مدة بناء المسجد سبعة أشهر، وهى المدة التى مكثها رسول الله ﷺ عند أبى أيوب الأنصارى (من ربيع إلى شوال) ثم انتقل إلى بيتيه اللذين بناهما بجوار المسجد وخصص أحدهما للسيدة عائشة بنت أبى بكر حيث دخل بها فى هذا البيت، والآخر خصصه لسودة بنت زمعة، وهما مما يلى باب آل عثمان (باب جبريل)(١٥).

ظل المسلمون يصلون على أرض المسجد بدون أن تغطى بأى شئ إلى أن أمطرت السماء بشدة وابتلت أرض المسجد وتعذرت الصلاة عليها، فأخذ كل رجل يملأ رداءه بالحصى ويأتى به ويفرشه فى المسجد ليتمكن من تأدية الصلاة، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أعجب به وأمر أن يفرش صحن المسجد كله بالحصباء. ولم يتم ذلك إلا فى عهد أمير المؤمنين عمر(١٦).

ظل الرسول والمسلمون يصلون إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، كان قلب الرسول ﷺ يهفو للاتجاه نحو الكعبة فى أثنائها حتى نزل جبريل عليه السلام بالأمر الإلهى بتحويل القبلة إلى الكعبة ويحدثنا القرآن عن ذلك فى قوله تعالى : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره)(١٧) وقد ترتب على ذلك أن تحولت الصفة من جنوب المسجد إلى شماله، وأغلق الباب الذى فى مؤخرة المسجد، وزحزح باب الرحمة (باب عاتكة) عن مكانه، وفتح باب جديد فى شمال المسجد بدلا من الذى كان فى جنوبه(١٨).

توسعة المسجد والإضافات التى زيدت فيه :

١- فى عهد الرسول ﷺ :

بقى المسجد على حالته بعد التعديلات التى أدخلت عليه نظراً لتحويل القبلة نحو الكعبة إلى السنة السابعة من الهجرة، وعند عودة الرسول ﷺ من غزوة خيبر كان عدد المسلمين فى المدينة قد كثر وازداد بشكل ملحوظ، وأصبح المسجد لا يسعهم فى الصلاة، فسألوا الرسول أن يوسع المسجد، فأجابهم إلى طلبهم، وكان فى جوار المسجد أرض فضاء لأحد الأنصار(١٩)، فقال الرسول ﷺ «من يشتريها ويوسعها فى المسجد له مثلها فى الجنة»

فاشتراها عثمان بعشرة آلاف درهم، فوسع بها المسجد»[٢٠] كما بنيت بيوت أخرى لأمهات المؤمنين زوجات رسول الله ﷺ وكانت تحيط بالمسجد من ثلاث جهات فى الجنوب وفى الشرق والشام (الشمال) وليس فى غربى المسجد شئ منها[٢١]. هذه الزيادة كانت ٨ أمتار فى الجهة الغربية ١٨ متراً فى الجهة الشمالية.

٢ - المنبر :

كان الرسول ﷺ إذا خطب المسلمين فى المسجد يستند إلى جذع نخلة وضعت خصيصاً لراحته لألم فى رجليه، وقد رآه رجل من أهل الروم كان قد أسلم وحضر إلى المدينة اسمه (ميمون)[٢٢] ويقال إنه من فلسطين واسمه (تميم الدارى). فقال لمن يجاوره من الناس: «لو أعلم أن محمداً يحمدنى فى شئ يرفق به لصنعت له منبراً يقوم عليه، فإن شاء جلس، وإن شاء قام» فلما بلغ ذلك النبى ﷺ، قال : ائتونى به، فلما جاءه ووصف له المنبر وافق الرسول على صنعه[٢٣] وكان ذلك فى أوائل السنة التاسعة للهجرة. وقد صنع هذا المنبر من خشب شجر الأثل الذى ينمو فى المدينة.

وكان للمنبر ثلاث درجات، وبقى على حالته هذه طوال عهد الراشدين إلى أن ولى أمر المدينة مروان بن الحكم من قبل معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى، فأمر بإضافة ست درجات من أسفل فأصبح للمنبر تسع درجات[٢٤]. وكانت حجته فى ذلك أن الناس كثروا فى المسجد.

والراجح أن عثمان بن عفان (رضى الله عنه) هو أول من كسى منبر رسول الله ﷺ بالحرير الأسود، وتابعه الخلفاء بعد ذلك فكانت كسوة المنبر ترسل إلى المدينة فى كل عام حتى كان عهد الخليفة العباسى المستعصم بالله، فأصبحت الكسوة تحمل من مصر إلى الكعبة المشرفة فى كل عام وإلى المنبر النبوى الشريف والحجرة كل ست سنوات مرة.

إضاءة المسجد :

استعمل المسلمون سعف النخيل فى إضاءة المسجد وظل على ذلك تسع سنوات، إلى أن قدم تميم الدارى إلى المدينة المنورة فى سنة تسع، وكان يحمل معه قناديل وزيتاً وحبالاً، فعلق القناديل بأعمدة المسجد، وأضاءها فأنارت المسجد، فقال له رسول الله ﷺ (نورت مسجدنا نور الله عليك)[٢٥].

الروضة الشريفة :

يمكن تحديد مكانها ابتداء من جدار المسجد الذى فيه القبلة التى كان الرسول (ﷺ) يؤم المسلمين فى الصلاة وهو قائم فيها وهى فى جهة الجنوب، ويحدها بيت أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) شرقاً، ومن الغرب يحدها المنبر الشريف، ويبلغ طول الروضة (من القبلة إلى الشمال) حوالى ٢٢ متراً، وعرضها (من بيت السيدة عائشة إلى المنبر) ١٥ متراً [٢٦]. وفى الحديث الشريف : «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة».

وللروضة الشريفة منزلة عظيمة وتقدير كبير عند المسلمين عامة وحكامهم بصفة خاصة فهى موضع عنايتهم على مر العصور التاريخية، ويكفى أن نشير إلى أن السلطان العثمانى سليم الثانى أمر فى سنة ٩٨٠هـ بكسوة أعمدة الروضة الشريفة إلى منتصفها بالرخام الأبيض المطعم بالرخام الأحمر ولا يزال هذا الرخام موجوداً إلى يومنا هذا.

من هذا العرض الموجز نعلم أن المسجد النبوى الشريف عندما بنى فى عهد الرسول محمد ﷺ كان بناؤه بسيطاً تتمثل فيه الفطرة السليمة، ويترجم فى بساطته عن بساطة الإسلام ووسطيته. فأساسه من حجارة الحرة السوداء، وحوائطه من اللبن، والأعمدة من شجر النخيل، والسقف من الجريد وسعف النخيل، والمنبر من خشب المدينة المنورة (الأثل) والإضاءة بزيت الزيتون فى القناديل. ومع ذلك فكان ولايزال يضفى على نفس المسلم الذى يدخل إليه مهابة وخشوعاً وإجلالا، لأن آيات الله عز وجل كانت تتنزل فيه على قلب رسوله الكريم. ومن هذا المسجد البسيط كان ولايزال يشع نور الإيمان ليهدى الضالين إلى طريق الحق وإلى عبادة الواحد الأحد، ومن هذا المسجد البسيط بزغت شمس الحضارة الإسلامية التى نعمت بها الحياة ورفلت فى ظلها الإنسانية سنين وسنين وسنين، ومن هذا المسجد البسيط خرجت جنود الحق تعلى كلمة الدين، وترفع راية اليقين، وتقدم للإنسانية جميعها دستور السماء كتاب الله العزيز الحميد يدعوهم إلى الإسلام والمحبة والعدل والإخاء ويبين لهم أن الناس سواسية، وأنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى وأن الناس لآدم، وآدم من تراب.

من هذا المسجد البسيط نبعت أبنية تلك المساجد العظيمة التى يزدان بها العالم الإسلامى [٢٧]، فقد اقتضت سنة التطور أن يرقى المسجد فى بنائه وفى أثاثه، فبنى من الأحجار وجعلت أعمدته من الرخام، وزخرف المحراب بكتابات وخطوط عربية لبعض آيات

القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف، وصممت المنابر بصورة كبيرة ونقشت جوانبها بزخارف من المعشقات أو بفن من فنون الأرابيسك، ودون على مدخلها من أعلا بعض آيات القرآن الكريم كما علقت فى سقفه الثريات بأنواعها المتعددة نحاسية وبللورية وبأحجامها الضخمة[٢٨]، وأضيفت إلى المسجد أشياء أخرى كثيرة لم تكن على عهد رسول الله ﷺ مثل المقصورة التى تفصل بين المصلين وبين أمير المؤمنين لتوفر له مكاناً أميناً للصلاة، وتكون له حماية من اعتداء من تحدثه نفسه بذلك. وكذلك الكرسى الذى يجلس عليه قارئ السورة يوم الجمعة ليقرأ القرآن ويبلغ صوت الإمام للمصلين، وكذلك الشمعدانات النحاسية التى توضع فيها الشموع الغليظة حول المحراب فى المناسبات الدينية... إلخ.

المسجد النبوى الشريف منذ عهد الراشدين حتى الآن

١ - فى عهد أبى بكر الصديق :

تولى أبو بكر رضى الله عنه رئاسة الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ، فى أوائل السنة الحادية عشر للهجرة، وتكاثرت عليه أحداث الردة فى مدن الجزيرة العربية باستثناء المدينة ومكة والطائف، واضطر إلى مواجهة المرتدين والمتنبئين فأرسل أحد عشر لواء من المجاهدين للقضاء على هذه الفتنة، وإخضاع الخارجين عن الإسلام لسلطة الدولة، ولذلك لم تسمح له الظروف بعمل أى توسعة فى المسجد أو إضافة أى جديد إليه، لأنه توفى بعد نجاحه فى القضاء على المرتدين بوقت قصير (توفى يوم الإثنين ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ من الهجرة/ ٢٣ أغسطس ٦٣٤م)[٢٩].

٢ - فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

تولى أمير المؤمنين عمر (رضى الله عنه) رئاسة الدولة الإسلامية بعد وفاة أبى بكر الصديق (سنة ١٣ للهجرة) وازداد عدد المسلمين فى عهده، حتى كانت السنة السابعة عشر من الهجرة، فقيل له : يا أمير المؤمنين، لو وسعت فى المسجد!! فقال : لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنى أريد أن أزيد فى قبلة مسجدنا ما زدت فيه». وقد دفعه إلى ذلك أيضاً

أن أعمدة المسجد المقامة من أشجار النخيل والتى كانت ترفع السقف قد تآكلت ونخرت. فأخذ رضى الله عنه فى إعادة بناء المسجد وجعله على ما كان عليه فى عهد الرسول محمد (ﷺ) وصاحبه أبى بكر، ولم يغير فيه شيئاً، فبنى المسجد بالطوب النئ (اللبن) وجعلت أساساته من الحجر وزاد فى عمقها وأعمدته من أشجار النخيل، وسقفه من الجريد، وزاد فى ارتفاعه وجعله أحد عشر ذراعاً كما فرشه بالحصير.

يكاد المؤرخون يجمعون على أن الزيادة فى مساحة المسجد التى أحدثها أمير المؤمنين عمر (رضى الله عنه) من جهات ثلاث هى جهة الجنوب (القبلة) والشمال وجهة الغرب، وأن عمر لم يدخل من بيوت أمهات المؤمنين فى المسجد شيئاً عند هذه التوسعة، وتقدر هذه الزيادة بـ ٣ أمتار فى الجنوب ومن الشمال ٨ أمتار، ومن الغرب ستة أمتار[٣٠] فأصبح طول المسجد حوالى ١١١ متراً وعرضه ٧٦ متراً وهذا يرجع ما توصلنا إليه من مقاسات.

ومن المعروف أن عمر (رضى الله عنه) اشترى بعض البيوت الملاصقة أو القريبة جداً من المسجد، كما تبرّع بعض المسلمين ببيوتهم لتدخل فى توسعة المسجد، ومن البيوت التى أدخلت فى توسعة المسجد بيت العباس بن عبدالمطلب، وبيت أبى بكر، وبيت جعفر بن أبى طالب وبيوت أخرى.

٣ - فى عهد عثمان بن عفان :

تولى عثمان (رضى الله عنه) رئاسة الدولة الإسلامية بعد أن استشهد أمير المؤمنين عمر، (أول المحرم سنة ٢٤هـ) وفى ربيع الأول سنة تسع وعشرين للهجرة بدأ بهدم مسجد الرسول ﷺ ليعيد بناءه بعد أن كلمه المسلمون وطلبوا هذه التوسعة لضيق المسجد عليهم خاصة فى أيام الجمع، وقد استشار عثمان صحابة رسول الله ﷺ فى هذا الأمر فوافقوا[٣١] خاصة وأن أمير المؤمنين عمر سبق له أن زاد فى مساحة المسجد.

بنى عثمان المسجد بالحجارة المنقوشة والقصة (= الجص) وجريد النخيل، وبيضه بالقصة وجعل أعمدته من الحجارة وجعل بداخلها أسياخ من الحديد لتقويتها، وغطى سقفه بخشب الساج (التك)، وقد لازم عثمان رضى الله عنه البنائين أثناء عملهم فى المسجد[٣٢]، فكان لا يخرج منه إلا للضرورة. وقد انتهى من إعادة بناء المسجد النبوى الشريف سنة ثلاثين للهجرة، وبذلك يكون عثمان بن عفان أول من أحدث فى المسجد تغييرات كثيرة، واستبدل

جريد النخل بخشب الساج (التك)، وكان دافعه فى ذلك حديث رسول الله ﷺ : «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة».

وتقدر الزيادة التى أضافها عثمان إلى المسجد من جهة القبلة (الجنوب) قدر إسطوانة (أى عامود) ومن الغرب مثلها وزاد من جهة الشمال ٥٠ ذراعاً (حوالى ٢٤ متراً) ولم يزد من جهة الشرق شيئاً، وبذلك تكون المساحة التى زادها عثمان (رضى الله عنه) فى المسجد ٤٩٦ متراً مربعاً[٣٣].

وقد اقتضت عملية التوسعة أن يشترى عثمان أجزاء من البيوت التى كانت تحيط بالمسجد ليوسعه بها، ومن هذه البيوت : بيت حفصة بنت عمر بن الخطاب، وجزء من بيت مروان بن الحكم وهو جزء من بيت العباس بن عبدالمطلب، وجزء من بيت جعفر بن أبى طالب وغيرهم.

وفي زيارة أ.د/ أحمد الشامي في بداية الثمانينيات للمسجد النبوي الشريف دله أحد الطلبة السعوديين علي الأعمدة التي تشير إلي هذه الزيارات وإلي حد المسجد ، والتي توجد علي تيجانها عبارة (حد المسجد في عهد عمر) وكذلك (حد المسجد في عهد عثمان) وقد راجعتها في عدة زيارات في السنوات اللاحقة. ولكن في زيارته الأخيرة (في رمضان ١٤١٨هـ يناير ١٩٩٨م) اختفت هذه العبارات التي كانت مكتوبة بماء الذهب ، وبقيت عبارة (حد مسجد الرسول) علي تاج العمود الحادي عشر بداية من الحائط الغربي لحجرة أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)حيث القبر النبوي الشريف .

ومن الأشياء التى استحدثها عثمان بن عفان رضى الله عنه فى المسجد «المقصورة» وكانت على شكل غرفة صغيرة فى مكان المحراب، وقد بنيت من الطوب النئ (اللبن) وقيل كان هذا الطين محروقاً[٣٤] وكان الدافع إلى بناء المقصورة تفادياً لما حدث لأمير المؤمنين عمر حيث قتل وهو قائم يصلى فى المحراب، وقد جعل عثمان لهذه المقصورة (كوى) أى نوافذ صغيرة ينظر الناس منها إلى الإمام وهو يصلى[٣٥] وبعض المؤرخين يقول إن أول من اتخذ المقصورة هو معاوية بن أبى سفيان حين ضربه الخارجى، ثم اتخذها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وبناها من خشب الساج، ومروان بن الحكم وهو أول من بنى المقصورة بالحجارة المنقوشة.

٤ - فى عهد على بن أبى طالب :

لم يحدث أى تغيير أو إضافات فى هذه الفترة التى تولى فيها على رضى الله عنه ومدتها أربع سنوات والتى انتهت باستشهاده بنة ٤٠هـ، لأن الفتن كانت قد أطلت برأسها بسبب مقتل عثمان بن عفان وموقف معاوية بن أبى سفيان من مبايعة على بالخلافة والصراع الذى دار بين الفريقين على رئاسة الدولة، حيث انتزع معاوية رئاسة الدولة له وجعل مقرها دمشق، وقد أدى هذا إلى إنسياح الصحابة فى المدن والأمصار وقل عددهم فى المدينة المنورة مما جعل الأمويين مشغولين بأمور دولتهم حتى تولى الوليد بن عبدالملك الخلافة وأعطى تعليماته لأمير المدينة المنورة عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه بعمل توسعة وتجديد لعمارة المسجد النبوى الشريف.

ثانياً : فى عهد الوليد بن عبدالملك (الدولة الأموية) :

ظل المسجد الشريف على حالته منذ توسعة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) له سنة ٣٠هـ، وفى هذه السنوات الكثيرة زاد عدد المسلمين وضاق المسجد النبوى بهم فأذن عبدالملك ابن مروان للمسلمين بأن يصلوا يوم الجمعة فى حجرات زوجات الرسول ﷺ وكانت أبواب هذه الحجرات مفتوحة على المسجد (أى تطل عليه) لأنها كانت خارجة عنه. فلما تولى الوليد الخلافة شرع فى توسعة المسجد وإعادة بنائه من جديد، وكان المسجد قد مضى عليه ستون سنة تقريباً منذ توسعة عثمان (رضى الله عنه).

بعض المؤرخين[٣٦] يذكرون أن السبب فى هذه التوسعة يرجع إلى أمور سياسية، فقد بلغت الوليد أخباراً بأن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب كان يصلى وجموع معه بصلاة الإمام فى بيت جدته فاطمة الزهراء، بعد أن يرفع ستاراً مضروباً على الباب الذى يطل على المسجد، فإذا ما انتهت الصلاة أرخى الستائر وجلس مع قومه يأكلون ويشربون فخاف الوليد على سلطانه من هذه الجموع التى تلوذ بهذه الحجرات، وتتخذ منها مجالاً للانتقاص من هيبته. وفكر فى إزالة بيوت زوجات النبى ﷺ وغيرها مما تحيط بالمسجد وإدخالها فى توسعة المسجد، وكتب إلى والى المدينة عمر بن عبدالعزيز بذلك وأن يشترى هذه البيوت «ومن أبى منهم فمر أهل المصر فليقدموا له قيمة عدل ثم اهدم عليهم، وادفع إليهم الأثمان»[٣٧].

بدأ عمر بن عبدالعزيز فى هدم هذه الحجرات بعد أن دفع أثمانها وكذلك هدم حوائط

المسجد النبوى الشريف سنة ثمان وثمانين للهجرة - فى شهر صفر - وانتهى منه سنة إحدى وتسعين، أى أن هذه التوسعة استغرقت ثلاث سنوات.

أراد الوليد بن عبدالملك أن يكون البناء الجديد للمسجد على جانب من الفخامة والروعة فكتب إلي قيصر الروم يطلب منه أن يعينه على هذا العمل بما يلزم البناء والعمال. وسارع القيصر بتلبية طلب الوليد، فأرسل إليه مائة ألف مثقال من الذهب، ومائة عامل من المهرة، وأربعين حملاً من الفسيفساء. فلما وصلت هذه الأشياء إلى دمشق أرسلها الوليد بدورة إلى المدينة(٣٨).

وصلت هذه المواد وكان عمر بن عبدالعزيز قد فرغ من هدم الحجرات والمسجد فاستعملها فى البناء. فأعاد وضع الأساس من الحجارة، وجعل الجدران كذلك بالحجارة المنقوشة وبالجص، وجعل الأعمدة من الحجارة وحشاها بالحديد والرصاص وجعل سمكها من أسفل بمقدار ما يستر رجلين يصليان، وغطى سقفه بخشب الساج، وطلاه بماء الذهب، وزين حائط القبلة بالمرمر والفسيفساء(٣٩). واختص عمر بن عبدالعزيز العمال الذين أرسلوا من مصر - وهم الأقباط - بالبناء فى مقدمة المسجد (مكان القبلة)، وأما العمال البيزنطيون من أهل الشام فكانوا يعملون فى بناء المؤخرة والجانبين. وكان عمر بن عبدالعزيز حريصاً على مراقبة العمال ومكافأة المجيد منهم خاصة عمال الفسيفساء. كما كان حريصاً على تحديد قبلة المسجد، ولذلك دعا شيوخ المدينة وقال لهم: «تعالوا احضروا بنيان قبلتكم، ولا تقولوا غير عمر قبلتنا». فجعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً.

والحقيقة أن عمال البناء أخلصوا فى عملهم، وأبدعوا فى صناعة الفسيفساء حتى خرج المسجد فى أبهى صورة وأجمل شكل.

ولقد أبدع عمر بن عبدالعزيز فى بناء المقصورة التى يصلى فيها الإمام، وجعلها كلها من خشب الساج، وزخرف سقفها بطريقة مبدعة، لدرجة أن الوليد بن عبدالملك قال له وهو يتفقد المسجد بعد بنائه: ألا عملت السقف كله مثل هذا؟ فأجاب عمر: ياأمير المؤمنين إذا تعظم النفقة جداً. فقال الوليد: وإن. فقال عمر: لقد أنفقت على جدار القبلة وما بين السقفين خمسة وأربعين ألف دينار. فقال الوليد: والله لكأنك أنفقتها من مالك!.

من هذا الحوار بين الرجلين نستطيع القول إن الوليد فتح خزائن الدولة لعمارة مسجد

النبى ﷺ حتى يبدو المسجد فى صورة تليق بقدرة وعظمة الدولة الأموية، وبجلال الإسلام وعظمة رسوله.

أما موقف الوالى عمر بن عبدالعزيز فيمثل حرص الحاكم المسلم على أموال الدولة لينتفع بها المسلمون، ولأن الإسلام دين البساطة والوسطية فقد رأى أن ما قام به من بناء وزخرفة يكفى لجعل المسجد فى مكانة عظيمة تليق وتتفق مع هذه البساطة وهذه الوسطية.

وتقدر توسعة المسجد فى عهد الوليد بن عبدالملك بحوالى ٩ أمتار من الجهة الغربية، ١٠ أمتار من الجهة الشرقية، ٢/١ ١٥ متراً فى طول المسجد، أى أن المساحة التى زيدت فى المسجد تقدر بـ ٢٣٦٨ متراً مربعاً، وبذلك أصبحت المساحة الكلية للمسجد بعد هذه التوسعة حوالى ١١,٨٩٥ متراً مربعاً(٤٠).

وتتمثل الإضافات التى أدخلها عمر بن عبدالعزيز فى المسجد النبوى الشريف فى عهد الوليد فى المآذن والمحراب.

فقد أقيم فى كل ركن من أركان المسجد مئذنة (منارة) يبلغ ارتفاعها حوالى ٥٥ ذراعاً (٢/١ ٢٧ متراً) وسمك قاعدتها ٤ × ٤ متراً، وقد هدم سليمان بن عبدالملك فى خلافته إحدى هذه المآذن لأنها كانت تطل على بيت مروان بن الحكم الذى ينزل فيه خلفاء بنى أمية عند مجيئهم إلى المدينة(٤١)، وكان المؤذن يكشف من فى هذه الدار ويرى ما فيها. ولم تكن المآذن معروفة فى بناء المساجد على عهد رسول الله ولا عهد الراشدين حتى أحدثها عمر بن عبدالعزيز فى مسجد الرسول بالمدينة المنورة، والحقيقة أن مثل هذه المنارات عرفت فى عصور سابقة، وقد استعملت فى بعض المساجد بالمدن التى فتحها المسلمون، فقد بنيت منارة لجامع البصرة الذى بنى سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م وقد بناها زياد بن أبيه (أخو معاوية من أبيه) فى خلافة معاوية. كما وجدت مثل هذه المنارات التى تسمى صوامع فى جامع عمرو بن العاص بمصر، عندما وسعه مسلمة بن مخلد والى مصر فى عهد معاوية سنة ٥٣هـ/ ٦٧٢م(٤٢).

كذلك أدخل عمر بن عبدالعزيز المحراب فى المسجد النبوى فى هذه التوسعة ولم يكن له مثل هذا المحراب فى الأزمان السابقة، ويرى بعض المستشرقين وبعض فقهاء اللغات الشرقية أن كلمة محراب ترجع أصولها إلى اللغة الحميرية (لغة عرب اليمن الجنوبية) وأنها دخلت اليمن عن طريق الحبشة، حيث أطلقت الكلمة (مكراب) على الكنيسة أو التجويف الذى

يوضع به تمثال العذراء والمسيح[٤٣]. ويحاول البعض إثبات نسبة الكلمة إلى اللغة العربية باعتبار أن كلمة المحراب معناها صدر المجلس أو صدر المكان والمحراب فى صدر المسجد وهو موقف الإمام يكون أكرم مكان فى المسجد.

ونحن لا ننكر أن مثل هذه الحنية (التجويف) كان موجوداً فى العمارة الرومانية قبل عصر المسيح عليه السلام، وقد نقلها المسيحيون عن الرومان وبنوها فى كنائسهم ثم إنتقلت إلى العمارة الإسلامية، فما هو المانع فى ذلك؟ فليست الحضارة حكراً على أمة من الأمم أو على شعب من الشعوب، ولكنها تراث الإنسانية يفيد منها من هو قادر على تطويرها ونشرها لمنفعة البشر جميعاً، وقد أفاد الغرب المسيحى كثيراً من الحضارة الإسلامية بعد ذلك.

ويبدو أن الوليد بن عبدالملك نقل فكرة المحراب من بلاد الشام التى كانت تزخر بكثير من الآثار الرومانية، ويرجع ذلك لولعه بالعمائر الفاخرة الفخمة، فهو الذى بنى المسجد الأموى بدمشق وأنفق عليه ملايين الدنانير[٤٤] وكذلك قبة الصخرة ومسجدها[٤٥]. وأدخل المحراب فى مسجد عمرو بن العاص لأول مرة فى العمارة التى قام بها قرة بن شريك (٩٢-٩٤هـ/ ٧١٠-٧١٢م) والى مصر فى عهد الوليد كذلك[٤٦].

ثالثاً : فى عهد الخليفة المهدى (الدولة العباسية) :

بعدما تولى المهدى بن أبى جعفر المنصور أمر الخلافة سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٧م حج بالناس بعد سنتين، وزار المدينة المنورة وأمر بتوسعة المسجد النبوى الشريف[٤٧] وجعل أمر البناء تحت إشراف عبيدالله بن عاصم بن عمر بن عبدالعزيز، وعبدالملك بن شبيب الغسانى، وتوفى عبدالله بن عاصم فولى مكانه عبدالله بن موسى الحمصى.

وقام المشرفون على البناء بشراء بعض الدور مثل دار مليكة بنت خارجة بن سنان، ودار شرحبيل بن حسنة، ودار عبدالله بن مسعود، وكانت تقع كلها فى الجهة الشمالية أى فى مؤخرة المسجد، لأن الثابت أن الزيادة (التوسعة) تمت فى هذه الجهة دون سواها، وتقدر هذه الزيادة بـ ٥٥ ذراعاً على أرجح الآراء وبذلك أصبح طول المسجد حوالى ١٥٥ متراً[٤٨]، وتقدر المساحة التى زادها المهدى بـ (١٨٠٩) متراً مربعاً، أما مساحة المسجد كله فأصبحت حوالى ١٤١٨٢ متراً مربعاً، ومن الثابت أيضاً أن منارات المسجد الثلاثة بقيت كما هى دون أى تغيير[٤٩]. وتعتبر التوسعة التى تمت فى عهد الخليفة المهدى هى التوسعة الأساسية التى

تمت فى عصر الدولة العباسية لأن ما تم فى أيام خلفاء الدولة العباسية ممن جاءوا بعد المهدى كانت ترميمات فقط(٥٠).

رابعاً : المسجد النبوى فى عصر المماليك :

ظل المسجد النبوى على حالته الفخمة بعد توسعة المهدى، إلى ليلة الجمعة غرة شهر رمضان المعظم سنة ٦٥٤هـ/ ٢٢ سبتمبر ١٢٥٦م حيث اشتعلت النيران بالمسجد بسبب إهمال أبى بكر بن أوحد الفراش الموكل إليه تجهيز قناديل الإضاءة فقد ترك الشعلة التى كانت معه فوق قفص من الخشب بداخل المخزن، فاشتعلت النيران وسرت بسرعة رهيبة إلى سقف المسجد، وأتت على كل شئ ولم تفلح أى جهود لإخمادها.

أعطى الخليفة المستعصم بالله آخر خلفاء الدولة العباسية تعليماته بعمارة المسجد النبوى الشريف فى سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م وبدئ فعلا فى عمارة المسجد، ولكن المغول هاجموا بغداد وأسقطوا الخلافة وقتلوا الخليفة فى العام التالى ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م فانتقلت مسئولية إعمار المسجد وإصلاحه إلى سلاطين المماليك فى مصر(٥١). فالسلطان الظاهر بيبرس شيد مقصورة من الخشب بارتفاع ثلاثة أمتار ونصف ولها ثلاثة أبواب حول الحجرة النبوية الشريفة وبيت السيدة فاطمة فى سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م(٥٢).

وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أقيمت القبة لأول مرة على القبر النبوى الشريف سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م. كما بنيت ميضأة خارج المسجد عند باب السلام سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م. كما أعاد بناء المئذنة الرابعة التى أمر بهدمها سليمان بن عبدالملك من قبل(٥٣)، وقد زاد قلاوون فى ارتفاع هذه المآذن.

واستمر سلاطين المماليك فى عنايتهم بتجديد المسجد النبوى الشريف وصيانته فجددوا القبة الشريفة مرتين، مرة فى عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م - ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م) والأخرى فى عهد السلطان شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م.

لم يسلم المسجد النبوى الشريف من الحريق للمرة الثانية، ففى رمضان سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م ضربت صاعقة المئذنة الجنوبية الشرقية، فتهدمت وسقطت على سقف المسجد وأحدثت

حريقاً كبيراً أتى على سقف المسجد وحواصله وأبوابه وما فيه من خزائن الكتب والمصاحف وعلى القبة الكبيرة التى بصحن المسجد.

كتب أهل المدينة المنورة إلى السلطان قايتباى بعد الحريق بثلاثة أيام فعظم عليه ذلك، وأمر على الفور بإعادة تعمير المسجد النبوى الشريف، وأرسل الأمير سنقر الجمالى ومعه من الأموال عشرون ألف دينار، ومعه مائة صانع من البنائين والنجارين والحجارين والحدادين وغيرهم، وأرسل معهم الكثير من الجمال والحمير ليستعينوا بها فى نقل مواد البناء، ثم أرسل مجموعات أخرى من الصناع والعمال وصرف لهم أجورهم قبل سفرهم ليساعدوا ذويهم فى مصر بها قبل سفرهم.

أتم المصريون عمارة المسجد الشريف وزادوا فى بعض أجزائه، وبنوا قبة فوق المحراب كما بنوا فوق الحجرة النبوية قبة أخرى مقامة على أعمدة من الحجارة بدلاً من القبة الزرقاء، وزادوا فى عدد القباب، وبنوا باب السلام بالرخام الأبيض والأسود، وزخرفوه، ولازالت الأبواب الخشبية بالمسجد الشريف تحمل اسم السلطان قايتباى(٥٤).

كما يوجد خلف محراب الروضة الشريفة لوحة تذكارية من الرخام الأبيض مقاسها حوالى ٩٥ × ٧٥ سم مدون عليها النص الذى نقلناه وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد
أمر بعمارة هذا المحراب النبوى الشريف العبد الفقير المعترف
بالتقصير مولانا السلطان الملك الأشرف
أبو النصر قايتباى خلد الله ملكه بتاريخ
شهر الحجة الحرام سنة ثمان وثمانين وثمانماين من الهجرة النبوية

ومن الإضافات كذلك المنبر الرخامى الكبير الفخم، ودكة المؤذنين وهى من الرخام، كما أرسل السلطان قايتباى من مصر مصاحف بدلاً من التى احترقت، وقد تمت عمارة المسجد الشريف سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م، بعد أن زيدت مساحته ١٢٠ متراً مربعاً(٥٥).

التوسعة والإضافات فى عصر الدولة العثمانية :

انتهى عصر المماليك بدخول الأتراك العثمانيين مصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ودخلت بلاد الحجاز فى سيطرتهم، بما فيها من أماكن دينية مقدسة، فاهتموا بها اهتماماً كبيراً.

ففى عهد السلطان سليمان القانونى (٩٢٦-٩٧٤هـ/ ١٥٢٠-١٥٦٦م) تمت بعض الترميمات فى المسجد الشريف، وفى باب السلام، وكان ذلك سنة ٩٤٠-٩٤١هـ/ ١٥٣٤م، ولكن فى سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م أدخل على المسجد بعض الإصلاحات والتجديدات التى شملت باب الرحمة، وباب النساء، حيث أقيم على جانبى هذا الباب برجان من خارج المسجد لتقويته وتدعيمه، كما تم هدم الحائط الغربى وأعيد بناؤه مع باب الرحمة، وهدمت المنارة الشمالية الشرقية المنسوبة إلى الأمير سنجر وأقيمت بدلاً منها مئذنة جديدة نسبت إلى سليمان القانونى (السليمانية) ودهنت حوائط المسجد من الداخل وجدد رخام ودهان الأعمدة، وكتب اسم السلطان سليمان على السقف المجاور للحائط الغربى[٥٦]. وقد أشرف على هذه الترميمات مهندسان مصريان.

وفى السنة التالية ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م بنى محراب الأحناف وجعل موازياً لمحراب الشافعية وهو محراب رسول الله ﷺ المقام فى الروضة الشريفة[٥٧].

وخلف بنيان هذا المحراب توجد لوحة من الرخام الأبيض مثبتة على ارتفاع يزيد قليلاً عن مترين محفور عليها النص الذى نقلناه (فى رمضان سنة ١٤١٨هـ) وهو :

أنشأ هذا المحراب المبارك الملك المظفر
السلطان سليمن شاه بن السلطان سليم
خان بن السلطان بايزيد خان أعز الله
أنصار محمد وآله وسلم تاريخ شهر جماده
الأول ثمان وتسعماية من الهجرة النبوية.

ومن الواضح أن الذى حفر كتابة هذا النص أخطأ فى كتابة التاريخ الهجرى لأن صحته (ثمان وأربعين وتسعماية) وليس كما هو مدون.

وفى عهد السلطان عبدالحميد الأول (١١٨٧-١٢٠٣هـ/ ١٧٧٣-١٧٨٩م) :

أجريت بعض الترميمات البسيطة، ولكن أضيف إلى المسجد الشريف المنبر الرخامى البديع الصنع وعملت أرضية المسجد الشريف من الرخام (من باب السلام إلى الجزء الواقع أمام القبر الشريف) كما كسيت حوائط القبلة بهذا الرخام، وكذلك أعمدة الصف الأول من المسجد كما هدمت القبة التى عملت فى عهد السلطان قايتباى لتشققها وبنيت قبة جديدة كسيت

بألواح الرصاص ودهنت باللون الأخضر، وقد تم ذلك فى عهد السلطان محمود الثانى سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م.

فى عهد السلطان عبدالمجيد الأول (١٢٥٥-١٢٧٧هـ/ ١٨٣٩-١٨٦١م) :

تعتبر عمارة السلطان عبدالمجيد الأول أكبر عمارة للمسجد الشريف فى عصر الدولة العثمانية، فقد شملت المسجد كله ما عدا الحجرة النبوية الشريفة، والمحاريب الثلاثة، والمئذنة الرئيسية. وقد استغرقت فترة البناء هذه اثنتى عشرة سنة (١٢٦٥-١٢٧٧هـ/ ١٨٤٨-١٨٦١م). وقد أعيد بناء المسجد على ما كان عليه من وضع الأعمدة حتى لا تتغير معالمه التى كان عليها فى عهد الرسول ﷺ ومن جاءوا بعده، وكل ما زيد فيه حوالى ٣,٢٥ متر تقريباً من الجهة الشرقية. كما عمل درابزين من النحاس الأصفر له أبواب (صغيرة) يدخل منها المصلون إلى الروضة الشريفة، ويخرجون منها إلى بقية جهات المسجد، وهذا الدرابزين هو الحد الجنوبى للمسجد فى عهد الرسول ﷺ(٥٨).

وكان المسجد يفرش بالحصير الذى يجلب من مصر فى فصل الصيف، وكانت مصر ترسل فى كل عام أربعمائة حصيرة، وما زاد عن فرش المسجد الشريف كان يفرش فى المساجد والزوايا الأخرى فى المدينة. أما فى الشتاء فكان يفرش بنوع من السجاد القطيفة غالى الثمن(٥٩). ومهما يقال عن التوسعات التى تمت فى العصور المختلفة السابقة والزيادات والإضافات فإنها تتضاءل بشكل كبير أمام التوسعتين اللتين قامت بهما المملكة السعودية حيث تمت الأولى فى عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز يرحمه الله حيث امتدت التوسعة من الجنوب إلى الشمال حتى شارع الساحة، ومن جدار الحرم الغربى إلى المناخة، وهذه التوسعة تقدر بحوالى (٩٤,٠٠٠) أربعة وتسعين ألف متر مربع، ولكن ليست كلها داخلة فى مشروع بناء المسجد من جديد. ومع ذلك كله فقد ضاق المسجد الشريف لكثرة الزوار وكثرة تعداد المصلين وخاصة فى مواسم الحج والعمرة. ولذلك أمر الملك فهد بن عبدالعزيز بعمل توسعة جديدة فاقت كل توسعة سابقة، فقد بلغت مساحة هذه التوسعة فى بناء الحرم النبوى الشريف من جهتيه الشرقية والغربية حوالى ٧٩,٥٦٥ تسعة وسبعون ألف وخمسمائة خمسة وستون متراً مربعاً، وكانت زياراتى قد تكررت للمسجد الشريف - كما سبق أن ذكرت - خلال (٨٣-١٩٩٨م) (بالإضافة إلى زيارتى الأولى ١٩٧٣م) وشاهدت هذه التوسعات وصيانة

المسجد وزخرفة جدرانه وأعمدته الرخامية والتى كسيت إلى منتصفها بالرخام أو بصفائح من النحاس الأصفر اللامع والثريات البللورية ومكبرات الصوت، والفرش كلها من السجاجيد جيدة الصنع والتى تصنع خصيصاً للمسجد. ووضعت لوحة تذكارية بذلك نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم وتأسياً برسول الله
سيدنا محمد ﷺ قام خادم الحرمين الشريفين
الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود بوضع آخر لبنة يوم
الجمعة ١٤١٤/١١/٤هـ الموافق ١٩٩٤/٤/١٥م فى توسعة
مسجد رسول الله ﷺ خدمة للإسلام والمسلمين والحمد لله رب العالمين[٦٠].

حواشي الفصل الثاني

(١) ابن هشام : السيرة، ج٢، ص٦١، أحمد الشامي : تاريخ العرب والإسلام، ص١٩٥.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص٢٠٠ .
(٣) المقريزي : إمتاع الأسماع، ج١، ص٨١. أحمد الشامي: تاريخ العرب والإسلام، ص ٠٠٠ .
(٤) سورة آل عمران/ ١٥٩. (٥) سورة الشورى/ ٣٨.
(٦) هما سهل وسهيل : الوكيل: المسجد النبوي، ص٣٧.
(٧) عبدالقدوس الأنصاري: آثار المدينة المنورة، ص١١٠، دار العلم، بيروت، ط. ثالثة.
(٨) راجع ما ورد في كتاب : خلاصة وفاء الوفا، للسمهودي، وكتاب معالم دار الهجرة للشيخ يوسف عبدالرازق، وكتاب : المدينة المنورة، لعبدالقدوس الأنصاري، وكتاب : توسعة الحرم النبوي الشريف، لهاشم دفتر دار، جعفر فقيه، بخصوص هذا الاختلاف.
(٩) عبدالملك بن حسين العصامي: سمط النجوم العوالي، ج١، ص٣١٢.
(١٠) برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٧٩.
(١١) محمد بن عبدالوهاب: مختصر سيرة الرسول، ص٧٧.
(١٢) ابن شهاب القسطلاني: المواهب اللدنية، ج١، ص٧٠.
(١٣) برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٨٦.
(١٤) يحدثنا القرآن الكريم عن تحويل القبلة في قوله تعالى : (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) سورة البقرة/ ١٤٤.
(١٥) العصامي: سمط النجوم، ج١، ص٣١٣.
(١٦) برهان الدين الحلبي : السيرة الحلبية، ج٢، ص٨٠.
(١٧) راجع صحيح البخاري، ج١، ص١٠٤، صحيح مسلم، ج١، ص٧٦ وما ذكره البراء بن عازب (رضي الله عنه) عن تحويل القبلة.
(١٨) برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢، ص٨٠، العصامي: سمط النجوم، ج١، ص٣١٥.
(١٩) لم يرد اسم هذا الأنصاري في المصادر. (٢٠) السمهودي: وفاء الوفا، ج١ ص٣٣٩.
(٢١) السمهودي: المصدر السابق، ج٢، ص٤٥٩.
(٢٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج٢، ص٣٩٧ وما بعدها.
(٢٣) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٣٨٩.
(٢٤) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢ ص٣٩٦.
(٢٥) برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية، ج٢ ص٨٧.
(٢٦) الأنصاري : آثار المدينة المنورة، ص٩٤.
(٢٧) يوجد قليل جداً من المساجد في بعض المدن الأوروبية والأمريكية وكلها مبنية على الطراز الإسلامي ولكن في صورة حديثة مثل المسجد الموجود في مانهايم بألمانيا ومسجد فينا.

(٢٨) بعض هذه الثريات يزن سبعة أطنان (٧٠٠٠ كيلو جرام) مثل التى فى مسجد أبى العباس المرسى بالأسكندرية.

(٢٩) أحمد الشامى: الخلفاء الراشدون، ص١٣٠.

(٣٠) يوجد اختلاف عند المؤرخين فى المساحة التى زيدت، راجع هاشم دفتر دار: توسعة الحرم النبوى ص٢٧، وهذا يتعارض مع ما ذكرناه سلفاً من أن طول المسجد كان ١٠٠ متر وعرضه ٧٠ متراً.

(٣١) النجار: أخبار مدينة الرسول، ص٩٧، ٩٨.

(٣٢) السمهودى: وفاء الوفا، ج٢، ص٥٠٢-٥٠٤.

(٣٣) الأنصارى: آثار المدينة المنورة، ص١١٠، وهاشم دفتردار: توسعة الحرم النبوى، ص٢٨.

(٣٤) السمهودى: مرجع سابق، ص٥٠٦.

(٣٥) السمهودى: وفاء الوفا، ج٢ ص٥١٠-٥١١.

(٣٦) الطبرى: تاريخ، ج٦ ص٤٦٥.

(٣٧) الطبرى: المرجع السابق نفسه ص٤٣٥ وما بعدها حيث أسماء أصحاب هذه البيوت وأماكنها لأن بيوت زوجات النبى زيدت فى المسجد لموتهن ولعموم انتفاع المسلمين بها، وهناك من يذكر أن معاوية بن أبى سفيان كان قد اشترى حجرات زوجات النبى (ﷺ) فى حياتهن، راجع السمهودى: مرجع سابق، ج٢ ص٤٦٤.

(٣٨) الطبرى: نفسه، ج٦ ص٤٣٦.

(٣٩) السمهودى: مرجع سابق، ج٢ ص٥١٩، راجع الوصف تفصيلاً فى ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٣ ص٣٦٥ وما بعدها، وكذلك ابن جبير: الرحلة، ص١٧٢.

(٤٠) الوكيل: المسجد النبوى، ص١٢٣.

(٤١) السمهودى: مرجع سابق، ج٢ ص٥٢٦. والاختلاف واضح بين المؤرخين فى تقدير المساحة حتى الآن.

(٤٢) صالح لمعى مصطفى: المدينة المنورة تطورها العمرانى، ص٧٢.

(٤٣) حسين مؤنس: المساجد، ص٧٦ وما بعدها.

(٤٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٩ ص١٤٤ حيث قدرها بأحد عشر مليوناً ومائتى ألف دينار.

(٤٥) ابن كثير: المرجع نفسه، ص١٦٥.

(٤٦) الأنصارى: المدينة المنورة، ص٧٥.

(٤٧) السيوطى: الخلفاء، ص٢٥٤، أحمد الشامى: الدولة الإسلامية فى العصر العباسى، ص٩٥.

(٤٨) صالح لمعى مصطفى: المدينة المنورة، ص٧٦. مع اختلاف فى التقدير.

(٤٩) ابن جبير: الرحلة، ص١٠٤، وابن النجار: الدرة الثمينة، ص٣٧٧.

(٥٠) راجع هذه الترميمات وتواريخها فى الأنصارى: المسجد النبوى، ص١٢٨ وما بعدها.

(٥١) صالح لمعى مصطفى : مرجع سابق، ص٧٩.

(٥٢) السمهودى : مرجع سابق، ج٢، ص٦١١.

(٥٣) السمهودى : مرجع سابق، ج٢، ص٥٢٨.

(٥٤) صالح لمعى مصطفى : مرجع سابق، ص٨٥.

(٥٥) النجار : آثار المدينة المنورة، ص١١١.

(٥٦) الرومى : التحفة اللطيفة، ص٩١ وما بعدها.

(٥٧) الرومى: المرجع السابق، ص٩٠ وما بعدها.

(٥٨) صالح لمعى مصطفى : المدينة المنورة، ص٩٦. قمنا بتحقيق هذا الوصف فى أكثر من زيارة لنا للروضة الشريفة.

(٥٩) إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين، ج١ ص٥١.

(٦٠) هذا النص محفور على اللوحة التذكارية من الرخام الأبيض للتوسعة الكبيرة للحرم النبوى الشريف، وقد نقلناه فى زيارتنا فى رمضان سنة ١٤١٨هـ الموافق يناير ١٩٩٨م.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]

الفصل الثالث
الخلافة فى الدولة الإسلامية

كان من الضرورى أن يتخذ الرسول ﷺ عدداً من الكتاب، يدونون ما يتنزل به الوحى الأمين، لأن محمدا (ﷺ) كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولكى يساعدوه فى مهام الدولة الإسلامية الناشئة، فكان له أربعة من الكتاب لكتابة ما يتنزل به جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل، وإثنان يكتبان ما يخص شئون الأمة الإسلامية من مهاجرين وأنصار، وقد اختص زيد بن ثابت، وهو من كتبة الوحى - بالكتابة إلى الملوك كذلك، كما خصص الرسول ﷺ نائباً لكل كاتب من هؤلاء ينوب عنه إذا غاب. وممن كتبوا لرسول الله ﷺ تذكر عثمان بن عفان رضى الله عنه، وعلى بن أبى طالب (كرم الله وجهه)، وخالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمى، ومعاوية بن أبى سفيان، وحنظلة الأسيِّدى.

ويقال إن أول من كتب للنبى (ﷺ) هو أبى بن كعب، فإذا تغيب كتب له زيد بن ثابت. كما كتب له عبدالله بن سعد بن أبى سرح أخو عثمان من الرضاع ثم ارتد عن الإسلام، ثم عاد ودخل فى الإسلام يوم فتح مكة(١).

وكان على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) يكتب له العهود، فمما يرويه محمد بن اسحق(٢) أن الرسول (ﷺ) دعا علياً بن أبى طالب وأمره أن يكتب ما يملى عليه، فكتب له شروط صلح الحديبية.

وكان الزبير بن العوام، وجهيم بن الصلت يكتبان لرسول الله (ﷺ) أموال الصدقات، وكان حذيفة بن اليمان يكتب له المداينات والمعاملات(٣)، ومعنى ذلك أن بداية الدواوين كانت فى عهد رسول الله (ﷺ). فإذا علم لنا أنه كان لرسول الله (ﷺ) سبعة وثلاثون كاتباً أورد أسماءهم القلقشندى(٤) أصبح من المرجح فعلا أن بداية الدواوين كانت منذ عهد الرسول.

وكان فى مقدمة من كتبوا للنبى محمد (ﷺ) أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وأخوه أبان بن سعيد، ووالدهما سعيد بن العاص، وعبدالله بن الأرقم الزهرى، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وشرحبيل بن حسنة، ومعاوية بن أبى سفيان، والمغيرة بن شعبة، والزبير بن العوام وجهيم بن

الصلت، وخالد بن الوليد، والعلاء بن الحضرمى، وعمرو بن العاص، وعبدالله ابن زواحة، وأبو أيوب الأنصارى، وأبو سفيان بن حرب وغيرهم.

مجلس الشورى :

كان الرسول (ﷺ) شديد الحرص على مشورة كبار الصحابة للاستنارة برأيهم، لقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم)(٥)، (وشاورهم فى الأمر)(٦) وكان غرضه من ذلك تعليم أصحابه أصول الحكم وتبيان أسسه، لأنه كان من الممكن له أن يعتمد على حدة ذكائه، وعلى رأيه الملهم، وبعد نظره الثاقب وينفرد بالأمر، ولكنه كان القدوة والمثل الأعلى فى كل ما يخص أمة المسلمين. وقد انحصر أمر الشورى فى أحد عشر صحابياً هم : أبو بكر الصديق، وعمر ابن الخطاب، وعمه حمزة، وجعفر بن أبى طالب، وعلى بن أبى طالب، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وأبو ذر الغفارى، والمقداد بن الأسود، وبلال بن رباح، وكان أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب بمثابة وزيرين له، وقد توفى بعض هؤلاء فى حياة الرسول ﷺ.

بهذه النظم البسيطة فى مظهرها، العظيمة فى مبناها، أرسى النبى (ﷺ) قاعدة الدولة الإسلامية الأولى فى المدينة المنورة، تلك الدولة سيكون لها شأن عظيم فى عهد خلفائه.

نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين

انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى يوم الإثنين لإثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول(٧) (سنة ١١هـ/ سنة ٦٣٢م) بعد أن بلغ الرسالة على أكمل وجه، وأدى الأمانة بحق وصدق، وترك أمة المسلمين على المحجة البيضاء، وأودعهم كتاب الله العظيم الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)(٨) وسنة رسوله الأمين.

هذان المرجعان (القرآن والسنة) هما دعامة الحكم فى الإسلام، لأن القرآن كتاب الله الذى تعهده عز وجل بالحفظ وعدم التغيير والتبديل حتى يرث الله الأرض ومن عليها (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(٩) ثم إنه كتاب شامل لكل شئ (ما فرطنا فى الكتاب من شئ)(١٠) والرسول ﷺ يقول : «تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى».

والسنة الشريفة بكل ما تحتويه من أحاديث وأعمال وتوجيهات فى نواحى متعددة من حياة الرسول ﷺ فهى بمثابة التفسير لما جاء مجملاً فى القرآن الكريم، وهو الدستور والقانون السماوى الذى ارتضاه خالق السموات والأرض لمن خلق من البشر. (من عمل به هدى إلى صراط مستقيم، ومن تركه قصمه الله من جبار). وأصح ما ورد عن النبى (ﷺ) فى السنة هو ما ورد فى كتب الحديث الستة المعروفة بكتب الصحاح وهى : صحيح البخارى، ومسلم، والترمذى، وابن ماجه، والنسائى، وأحمد بن حنبل.

فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم فلا نجد فيه نصاً صريحاً يدل على شكل الحكم، ولكنه ينص على أن يكون الأمر شورى بين المسلمين ليحكموا عقولهم، ويختاروا من تتوفر فيه الشروط التى سبق أن ذكرناها.

ومع ذلك فقد حاول بعض الفقهاء أن يلتمسوا لنظام الخلافة سنداً من آيات القرآن الكريم، فذكروا عدداً من الآيات التى وردت فيها كلمة (خلافة) مثل قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم)(١١)، وقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم)(١٢)، وقوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)(١٣).

ولكن بعض المفسرين رأوا أن المعنى فى هذه الآيات معنى عاماً، ولا ينسحب على نظم الحكم، ولا يدل على سلطة شخص محدد ولا رئاسة معينة. والآيات التى نزلت فيها كلمة خليفة بالنص تنسحب على شخصية معينة من الأنبياء، مثل قوله تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)(١٤)، وقوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)(١٥).

تذكر بعض كتب التفسير أن آدم وداود (عليهما السلام) سميا باسم خليفة لأن كلا منهما كان على الأرض لينوب عن الله عز وجل فى هداية الناس وإبلاغهم بأوامره، ويوضح ذلك أن المعنى هنا بعيد كذلك عن معنى الحكم والنظم والنفوذ السياسى.

وفي كتب الحديث الشريف نجد بعض الأحاديث التى ورد بها ذكر الخلافة أو الإمامة مثل: «الخلافة فى قريش، والحكم فى الأنصار، والدعوة فى الحبشة»، وكذلك: «الخلافة بعدى أربعون سنة ثم تصير ملكاً عضوداً» وأيضاً: «الأئمة من قريش». إلا أن جمهرة من المؤرخين وكثير من علماء الحديث يشكون فى صحة هذه الأحاديث، لأن المسلمين الأول لم يسمعوا بها، ولم تكن معروفة وإلا لما حدث اختلاف بين الأنصار والمهاجرين فى سقيفة بنى ساعدة(١٦) بشأن من يخلف النبى ﷺ فى تولى أمور المسلمين.

ونحن نميل إلى القول بأن كثيراً من الأحاديث ذات الصبغة السياسية أو المذهبية منحوسة وموضوعة من قبل بعض الجماعات والفرق الدينية ذات الاتجاهات السياسية لتأييد وتأكيد وجهة نظرهم فيما يتعلق بأمور الحكم.

ويعرف ابن خلدون(١٧) الخلافة بقوله: «هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به».

وأول من لقب خليفة فى الدولة الإسلامية هو أبو بكر الصديق «خليفة رسول الله». ولما تولى عمر بن الخطاب لقب بأمير المؤمنين، وأصبح هذا اللقب سائراً فى الخلفاء بعد ذلك. إلا أن على بن أبى طالب استحسن لقب (الإمام) وكان أول من لقب به، ثم تلقب به العباسيون والفاطميون إلى جانب لقب خليفة. وقد استحدث خلفاء بنى العباس أسماء تميزهم عن بعض مثل لقب المنصور، والمهدى، والهادى، والرشيد... إلخ وقد اتخذت كل دولة من دول هؤلاء الخلفاء شعاراً (راية) لها، فالأمويون شعارهم البياض، والعباسيون شعارهم السواد، والفاطميون شعارهم اللون الأخضر أما الخلافة العثمانية فقد اتخذت راية حمراء.

وقد عبر أحد المستشرقين عن منصب الخليفة بقوله: «الخليفة موظف سياسى قبل أن يكون موظفاً دينياً، وأن الواجبات الدينية الملقاة على عاتقه لا تعطيه حقوقاً دينية أو روحية تجعله يمتاز عن غيره من المسلمين»(١٨).

رأى الفرق الإسلامية فيمن يتولى الخلافة:

نتيجة للمناقشات الحادة فى سقيفة بنى ساعدة بين المهاجرين والأنصار، ومحاولة كل

فريق من الجانبين أن يجعل الخلافة فيه ليكون الخليفة من بني جلدته اتضحت الرؤية وكانت محصلتها كالتالي :

١ - رأي المهاجرين : وقد عبر عنه أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) أثناء هذه المناقشات وأيده في ذلك عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وينضم إليهما أبو عبيدة بن الجراح، حيث أوضح أبو بكر الصديق في حديثه ما خص الله به المهاجرين الأولين من أمة محمد (ﷺ) بتصديقه والإيمان بما جاء به من عند الله، والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم، وتكذيبهم إياهم، وكل الناس مخالف لهم، زار عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وبغض الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أول من عبد الله في الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم[١٩].

ومع ذلك لم ينكر أبو بكر الصديق فضل الأنصار فقال لهم : «رضيكم الله أنصاراً لدينه ولرسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة، ولاتقضى دونكم الأمور[٢٠]. ويعقب عمر بن الخطاب على رأى الحباب بن المنذر[٢١] فيقول : «والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم، وولى أمرهم منهم، ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة والسلطان المبين. من ذا الذى ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم ومتورط فى هلكه[٢٢]. وقد استند المهاجرون فى ذلك على ما يذكره البعض من أن النبى ﷺ قال : «الأئمة من قريش» الحديث، وأنه أوصانا أن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم».

٢ - رأى الأنصار : استند الأنصار فى أحقيتهم بالخلافة إلى موقف الرسول (ﷺ) منهم، واعتمدوا على بعض الأحاديث التى قالها والتى يفهم منها أن النبى (ﷺ) اعتبر نفسه مواطناً يثربياً مثل قوله : «الدم الدم والهدم الهدم»[٢٣] أى أنا منكم وأنتم منى معشر الأنصار. ثم إن النبى (ﷺ) كان يستشيرهم فى الجليل من الأمور، مثل استشارتهم قبيل غزوة بدر، ورضائه عنهم، وحبه الكبير لهم، وتصريحه الخطير يوم حنين حينما

أقسم لهم أنه لولا الهجرة لكان امرؤ من الأنصار، ولو سلك الناس طريقاً وسلكت الأنصار طريقاً آخر لسلك طريق الأنصار. كل هذه الأمور جعلت الأنصار يعتقدون فى أحقيتهم فى الخلافة.

٣ - رأى الشيعة : كانوا لا يحبذون فكرة الانتخاب فى اختيار الخليفة، ويرون أن تكون الخلافة فى بيت الرسول (ﷺ) وفى أقرب الناس إليه، وهم يقصدون على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فهو ابن عم الرسول، وأول الشباب دخولاً فى الإسلام وزوج ابنته فاطمة الزهراء، وصاحب الجهاد الكبير، والعلم الغزير الواسع، ويحاول الشيعة تأييد رأيهم هذا بأدلة أخرى يزعمون فيها أن النبى (ﷺ) أوصى لعلى تصريحاً وتعريضاً، ونحن ننكر هذا الزعم الذى رفضه كثير من العلماء والمؤرخين.

٤ - رأى الخوارج : خالفوا رأى أهل السنة، ورأى أهل الشيعة، وقالوا ليس من الضرورى أن يكون الخليفة من قريش، واستندوا فى ذلك إلى حديث الرسول (ﷺ) : «واسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشى» وقد وصفهم بعض المؤرخين[٢٤] بأنهم أصحاب المبدأ الجمهورى الديموقراطى. وهم يعتقدون أن الخلافة حق لكل عربى حر تتوفر فيه شروط الخلافة.

٥ - رأى المرجئة : وهؤلاء وقفوا على الحياد، ونظروا إلى الفرق الأخرى وآرائهم نظرة سلبية، لأنهم لا يستطيعون تحديد من هو المصيب ومن هو المخطئ وهم ينظرون إلى الجميع باعتبارهم مسلمون، فأرجأوا أمرهم إلى الله يتصرف معهم بما يشاء، وقد ضعف هذا الفريق وتلاشى بزوال دولة بنى أمية.

٦ - رأى المعتزلة : وهؤلاء جعلوا اختيار الخليفة من حق الشعب كله، وليس لأهل العقد والحل فقط، لأن ذلك يتفق وحرية الإرادة للإنسان. وهؤلاء كانوا يعتقدون فى القضاء والقدر فى جل الأمور، ولذلك سموا القدرية[٢٥].

وعلى الرغم من هذه الآراء الكثيرة واستناد أصحابها على بعض الأحاديث التى قالوا إن النبى (ﷺ) قد قالها، فإننا لا نجد فى القرآن الكريم آية واحدة تشير إلى شكل الحكم وجعله محصوراً فى قبيلة واحدة محددة أو أسرة معينة، لأن القرآن يقرر أن أفضل الناس وأكرمهم عند الله هم أتقى الناس لله وأكثرهم طاعة له، وأشدهم إخلاصاً لدينه، نجد ذلك فى قوله تعالى :(إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[٢٦].

تطور نظام الخلافة

أولاً : كيف تم انتخاب الخلفاء الراشدين

١ - عندما تم اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة لاختيار زعيم الخزرج سعد بن عبادة للخلافة، ومواجهة المهاجرين الثلاثة أبى بكر وعمر وأبى عبيدة لهم، وما حدث بين الجانبين من مناقشات حادة، انتهى الاجتماع بإعطاء البيعة لأبى بكر الصديق لعدة اعتبارات منها : أن الرسول ﷺ قدمه فى أثناء مرضه الأخير ليصلى بالناس وهذه إشارة إلى أن أبا بكر يقوم بإمامة المسلمين فى غيبة النبى (ﷺ)، ولأن أبا بكر صاحب رسول الله فى الغار، وقد نزل فيه قرآنا يتلى فى قوله تعالى (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى إثنين إذ هما فى الغار....)[٢٧]. ولأن أبا بكر لازم رسول الله (ﷺ) فى كل مراحل الدعوة إلى الإسلام، وكان يصدق على كل ما يقوله الرسول (ﷺ) ويتقبله بإيمان عميق، ولأن أبا بكر له مواقف عظيمة فى نشر الدعوة الإسلامية، مما جعل رسول الله (ﷺ) يقدمه ليكون إماماً للمسلمين فى صلاتهم ويكفى قوله (ﷺ) فى أبى بكر : «لو وزن إيمان أبى بكر الصديق بإيمان أمتى لرجح إيمان أبى بكر». وقد عرفت هذه البيعة بالبيعة الخاصة. ثم اجتمع المسلمون فى اليوم التالى وأعطوا بيعتهم لأبى بكر الصديق فى المسجد النبوى الشريف، وعرفت هذه البيعة بالبيعة العامة. وبذلك أصبح أبو بكر خليفة - أى حاكماً - على الدولة الإسلامية باختيار أفراد الأمة له.

والبيعة معناها عهد بطاعة الخليفة والتسليم له بالنظر فى أمور المسلمين، ويصف ابن خلدون[٢٨] إعطاء البيعة بقوله : «وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم فى يده تأكيداً للعهد... ثم صارت البيعة مصافحة بالأيدى» وقد تطورت طريقة إعطاء البيعة فى عصور لاحقة فأصبحت على شكل تحية القياصرة والأكاسرة من حيث تقبيل الأرض بين يدى الأمير، أو تقبيل يده أو رجله أو طرف الثوب الذى يرتديه. وقد غلبت هذه الطريقة وأصبحت عرفاً سائداً فى المجتمعات الإسلامية.

٢ - عمر بن الخطاب :

عندما مرض الخليفة أبو بكر الصديق وأحس بقرب أجله خشى على المسلمين أن

ينقسموا على أنفسهم بسبب تنافسهم على تولى الخلافة خاصة وأن الدولة الإسلامية التى أسسها الرسول الكريم (ﷺ) كانت لاتزال فى دور التكوين وفى المرحلة الأولى من حياتها، ولا تتحمل مثل هذه الإنقسامات لاسيما وأن أحداث السقيفة لايزال ماثلاً فى ذهنه. لذلك رأى أبو بكر بثاقب فكره وبعد نظره أن يجنب المسلمين ودولتهم الناشئة مثل هذا الصراع، فاستدعى إليه مجموعة من أهل العقد والحل من أمثال عبدالرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وأسيد بن حضير، وسعيد بن زيد وغيرهم من الأنصار والمهاجرين وسألهم رأيهم فى عمر بن الخطاب، فأثنوا عليه بما هو أهل له، وكانت مناقشته لكل منهم على إنفراد، ودون أن يعرف أى منهم ما دار بين أبى بكر والآخرين حتى يكون لكل واحد منهم الحرية المطلقة فى إبداء رأيه.

عندئذ اطمأن أبو بكر الصديق لسلامة موقفه، وصدق إحساسه فدعا عثمان بن عفان وأملى عليه عهده بالخلافة إلى عمر بن الخطاب(٢٩) : (هذا ما عهد أبو بكر بن قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب، إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، فإن عدل فذلك ظنى به، وعلمى فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)(٣٠). ثم أمر بالكتاب فختم، وخرج عثمان به مختوماً، وأعلم المسلمين بما فيه، فرضوا وبايعوا عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء جمادى الآخرة سنة ١٣هـ/ أغسطس ٦٣٤م.

فإذا تمعنا فى هذا العهد الذى أملاه أبو بكر (رضى الله عنه) نجد أنه بدأ بذكر الحالة التى هو فيها وعبر عن شعوره وإحساسه من حيث مفارقته للحياة الدنيا وبداية انتقاله إلى الحياة الآخرة حيث الحساب والثواب أو العقاب، ثم يقرر أن فى هذه اللحظات العصيبة التى يعلن الكافر فيها إيمانه بالله الواحد ويتأكد الفاجر أن لا نجاة ولا منجى من الحساب والجزاء... إلخ أنى قد استخرت الله تعالى واستشرت أصحاب العقد والحل واستخلفت عليكم ابن الخطاب... وإنى لأظنه أنه سيقيم العدل.. ثم يحتاط الخليفة أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) لما هو فى علم الغيب ومقدر، ولا يعلم عنه شيئاً فيقول : إن بدل عمر بن الخطاب ما كان عليه وما نعلمه فيه من عدل وصدق و... و.... إلخ فحسابه على الله... ومع ذلك يحذر عمر بن الخطاب ويذكره بعاقبة الظلم ونهاية الظالمين مستشهداً بالقرآن الكريم:

٣ - عثمان بن عفان :

عندما امتدت يد الغدر والنذالة وطعنت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو قائم يصلى الفجر فى مسجد رسول الله (ﷺ)، وتأكد من دنو أجله، بعدما قال الطبيب له «يا أمير المؤمنين أعهد!!» دعا إليه عبدالرحمن بن عوف وأراد أن يعهد إليه بأمر المسلمين، ولكن عبدالرحمن كان شديد التقوى لله وكان يخاف، تحمل مسئولية المسلمين فعزف عن الحكم ولذلك قال لعمر (رضى الله عنه) «والله لا أدخل فيها أبدا»[٣١] أى أننى لن أقبل الإمارة ولن أدخل فيها. ويطلب بعض أهل العقد والحل وهم كبار رجال الصحابة من عمر بن الخطاب أن يستخلف وكان الدافع إلى طلبهم هذا خوفهم على وحدة الدولة وتماسك الأمة، وتبعث إليه أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق هى الأخرى وتطلب منه أن يستخلف، حتى لا يدع أمة محمد (ﷺ) بلا راع ولا يدعهم هملا، لأنها تخشى الفتنة عليهم[٣٢]. وينظر عمر (رضى الله عنه) فيمن حوله من الصحابة، فلا يجد إلا النفر الستة الذين توفى رسول الله (ﷺ) وهو عنهم راض وهم : على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله الذى كان غائباً عن المدينة[٣٣].

دعا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) هؤلاء النفر باستثناء طلحة لغيابه وطلب منهم أن يتشاوروا فيما بينهم ثلاثة أيام حتى يحضر إليهم طلحة، ويختاروا من بينهم من يتولى شئون المسلمين، ثم ضم إليهم ولده عبدالله بن عمر (رضى الله عنه) ليشاركهم المشورة، ولكن ليس له من أمر الخلافة شئ.

وتستمر المشاورات، وتطفو بعض الأحداث فى مكان الاجتماع، ولكن ينتهى الأمر باختيار عثمان بن عفان (رضى الله عنه) للخلافة، وتتم البيعة له فى مسجد المدينة[٣٤]، ويبدأ عهد جديد فى تاريخ الدولة الإسلامية الأولى.

٤ - على بن أبى طالب :

بعدما قتل عثمان بن عفان (رضى الله عنه) رأت جموع الثائرين أن يتولى على ابن أبى طالب الخلافة وكلموه فى ذلك، فأبى[٣٥]، وقال إن هذا الأمر لأهل العقد والحل أهل الشورى وأهل بدر[٣٦]. وظلت الخلافة الإسلامية خمسة أيام بعد مقتل عثمان (رضى الله

عنه) شاغرة لا تجد من يتولاها، وحاول الغافقى بن حرب أمير المدينة أن يجد من يقوم بأمر الخلافة فلم يجده[٣٧]. ذلك لأن المصريين وعلى رأسهم عبدالله بن سبأ كانوا يميلون إلى تولية على بن أبى طالب، وكانت ميول أهل الكوفة الموجودين فى المدينة مع الزبير بن العوام، وميول أهل البصرة مع طلحة بن عبيد الله، واحتار القوم ولم يجدوا من يولونه عليهم، فلجأوا إلى سعد بن أبى وقاص، ولكنه رفض مقابلتهم وبعث إليهم يخبرهم بأنه وعبدالله بن عمر قد خرجا من هذا الأمر، ولا حاجة لهما فيه[٣٨].

خافت هذه الجموع أن يسمع ولاة الأمصار بمقتل عثمان (رضى الله عنه) وأن الدولة الإسلامية بدون خليفة فيشور كل منهم فى مصره، وربما استقل به فيهم الفساد وتنفصم وحدة المسلمين، وتتجزأ دولتهم، ورأوا ضرورة عودتهم إلى على بن أبى طالب (رضى الله عنه) وإقناعه بقبول البيعة منهم ليطمئن الناس فى المدينة، ويهدأ من فى الأمصار. وأخذ الأشتر النخعى يعرض عليه الأمر، ويخوفه من فتنة المسلمين، وأن الخلافة ليست لأحد سواه، فوافق على بن أبى طالب واشترط أن تكون البيعة علانية فى المسجد، وعن رضا من المسلمين[٣٩].

دخل على بن أبى طالب المسجد وبايعه المهاجرون والأنصار ممن كانوا فى المدينة ولكن هذه البيعة لم تكن بالإجماع، بل كانت بالأغلبية المطلقة، لأن بعض الصحابة تردد فى إعطاء البيعة وآثر الانتظار والتريث، ومن هؤلاء سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر، وحسان بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدرى ومحمد بن سلمة الأنصارى وغيرهم ممن كانوا يميلون إلى عثمان بن عفان (رضى الله عنه) كما خرج بعض الصحابة إلى مكة والبعض الآخر خرج إلى الشام أو إلى اليمن وبعث على بن أبى طالب فى طلب طلحة والزبير، فلما حضرا تكاثر الناس عليهما، واتهموهما بقتل عثمان، فأخذا يبرئان نفسيهما[٤٠]، فدعاهما على بن أبى طالب (رضى الله عنه) إلى البيعة، فبايعه الزبير بن العوام وتلكأ طلحة، فهدده الأشتر النخعى بضرب عنقه، فأذعن طلحة وأعطى البيعة لعلى[٤١].

بهذه الصورة أعطت جموع المسلمين فى المدينة البيعة لعلى يوم الخميس لثلاث ليال بعد دفن عثمان (رضى الله عنه) (٢٤ ذى الحجة سنة ٣٥هـ/ ٦٥٦م) وتمت يوم الجمعة حيث بايع من لم يكن قد بايع بالأمس، ومع ذلك فلم تكن بيعة بالإجماع ولكن بالأغلبية المطلقة، وقد

أدى ذلك إلى أن الطامعين فى منصب الخليفة من بنى أمية لم يرضوا أن تكون الخلافة فى بنى هاشم بعد أن كانت فيهم (أى فى عثمان) ولذلك شهدت الدولة الإسلامية زمن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) صراعاً على السلطة (الخلافة) بينه وبين معاوية بن أبى سفيان أدى إلى الاقتتال بين الفريقين وانتهى بقتل على بن أبى طالب وجموع كثيرة من شيعته.

ثانياً : الخلافة زمن الأمويين :

تمكن معاوية بن أبى سفيان عن طريق الدهاء السياسى وبمساعدة عمرو بن العاص من الاستيلاء على الخلافة ترغيباً وترهيباً ثم جعلها ملكاً وراثياً فى ذريته لاعتقاده بأن المنافسة على الحكم هى التى أدت إلى انقسام المسلمين، ولذلك أصبحت رئاسة الدولة تعتمد بالدرجة الأولى على الفكر السياسى أولاً، ثم يأتى الجانب الدينى ليساند هذا الفكر بواسطة الخليفة (أى الحاكم). وقد ترتب على ذلك أن أدخل الحاكم كل مظاهر الأبهة والرفاهية إلى قصور بنى أمية الذين تشبهوا بالملوك والقياصرة فى حياتهم وطريقة حكمهم.

ومن مظاهر أبهة الحكم التى اتخذها معاوية ومن جاءوا بعده فى حكم الدولة الأموية أنه اتخذ سريراً للملك (كرسى فخم يجلس الملك عليه يسمى كرسى العرش)، وخصص حرساً خاصاً له لحمايته وحراسته، ولم يكن ذلك موجوداً فى عهد الراشدين، واتخذ المقصورة فى المسجد خوفاً مما حدث لعلى بن أبى طالب، وأصبح يصلى فيها منفرداً عن الناس، وكان الحراس يقفون على رأسه وهو يصلى حماية له. وكان قياصرة الروم يتخذون مثل هذه النظم فى حياتهم. ولكن عندما ضعف أواخر خلفائهم نجح العباسيون فى نشر دعوتهم وتمكنوا من الاستيلاء على الحكم.

ثالثاً : الخلافة زمن العباسيين :

نهج العباسيون نهج الأمويين وأصبح الحكم فى دولتهم وراثياً، وتأثرت نظم الدولة بالنظم الفارسية والحضارة الفارسية، وأصبح ينظر إلى الخليفة بشئ من التقديس لتأثر الشعب فى بغداد بنظرية الحق الإلهى للملك عند الفرس[٤٢] "The Divine Right of Kings" وأضحى البلاط العباسى أشبه ببلاط الأكاسرة وغدا الخليفة ظل الله فى الأرض.

وقد عبر الخليفة أبو جعفر المنصور عن ذلك بقوله : «إنما أنا سلطان الله فى أرضه» ويختلف نظام الخلافة فى العصرين الأموى والعباسى عن نظام الخلافة فى عهد الراشدين، لأن

أبا بكر الصديق جعل الشعب مصدر السلطات فيقول فى خطاب توليه الخلافة : «إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى.. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»(٤٣). ويرى بعض المؤرخين أن نظام الحكم فى الدولة العباسية كان استبدادياً حتى عهد هارون الرشيد لأن الأمويين اتبعوا نظام أخذ البيعة لولى العهد، بينما العباسيون تغاضوا عن ذلك. ولأن الخلفاء العباسيين تسلطوا على الرعية، واحتجبوا عنها، واتخذوا الوزير المصاحب لهم والسياف المرافق، فأحيطت شخصية الخليفة بالرهبة والقداسة، وظهر بمظهر المستبد المتجبر، وظهرت العادات والتقاليد الفارسية والأزياء فى البلاط العباسى، واحتفلت الدولة بعيد النيروز(٤٤) وغيره من أعياد الفرس، وأصبح الخليفة العباسى مثل الأكاسرة تحيط به العظمة والأبهة، وينحنى له الداخل عليه ويحييه بتقبيل الأرض بين يديه، أو تقبيل طرف ثوبه، ولم يكن هذا الشرف إلا لكبار رجال الدولة.

وكان الخليفة العباسى يرتدى بردة النبى (ﷺ) عند توليه الخلافة وعند حضوره فى المناسبات الدينية، كما اتخذ كل خليفة لقباً خاصاً به مثل : الإمام المهتدى بالله، المنصور.. إلخ.

ومع كل هذه المظاهر فقد أخذت الخلافة العباسية فى الضعف منذ وفاة الخليفة الواثق بالله سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦-٨٤٧م بسبب حياة الترف، وأخذ العهد لأكثر من واحد، وأصبح ذلك شائعاً كما حدث فى عهد الرشيد من قبل، وقد نتج عن ذلك أن استبد بنو بويه بالسلطة فى بغداد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥-٩٤٦م ثم انتقل حكم الدولة إلى أيدى السلاجقة سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م إلى أن زالت دولة بنى العباس على أيدى المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م وقد وصف ابن طباطبا(٤٥) حالة أهل بغداد أثناء دخول المغول وكيف تم أسر الخليفة المستعصم وأسرته ومقتله، وكيف حرق المغول ودمروا بغداد ومكتبة القصر وأشاعوا الفوضى والخراب والذعر فى البلاد وبين العباد.

رابعاً : الخلافة زمن الفاطميين :

قامت الخلافة الفاطمية فى بادئ أمرها بالمغرب (مدينة المهدية) سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩-٩١٠م ثم انتقلت إلى مصر عندما فتحها جوهر الصقلى قائد جيوش المعز لدين الله

سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م وقد حضر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ودخلها سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م بعدما شيد جوهر الصقلى مدينة القاهرة المعزية، والجامع الأزهر الشريف ليكون مركزاً لنشر الدعوة الفاطمية الشيعية.

قامت فكرة الخلافة الفاطمية على تقديس الإمام وأنه معصوم من الخطأ، وأنه ظل الله فى الأرض، وقد تلقب الخلفاء الفاطميون بكثير من الألقاب مثل سابقيهم من العباسيين، وقد سماهم أهل السنة (العبيديون) نسبة إلى أول خلفائهم وهو عبيدالله المهدى.

وقد اتبع الفاطميون مبدأ ولاية العهد كما اتبعه العباسيون والأمويون من قبلهم.. وعندما ضعف أواخر الخلفاء الفاطميين استبد الوزراء بالحكم بداية من الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى، واستمر الصراع على الحكم بين الوزراء حتى عصر الخليفة العاضد الفاطمى (الصراع بين شاور وضرغام) إلى أن تمكن صلاح الدين الأيوبى من إسقاط الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى تبعية الخلافة العباسية فى يوم عاشوراء سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م[٤٦].

خامساً : الخلافة الأموية فى الأندلس :

تلقب الأمويون حكام الأندلس فى بادئ الأمر بألقاب (أمير، ابن الخلائف) إلى أن اعتلى عبدالرحمن الثالث حكم البلاد سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٣م وأدرك ما يهدد بلاده بسبب قرب الخلافة الفاطمية الشيعية منها (فى المهدية بتونس) فأعلن نفسه خليفة، وتلقب بأمير المؤمنين وخطب له على المنابر[٤٧]، وبذلك أصبح فى العالم الإسلامى ثلاثة مراكز للخلافة (خلافة عباسية سنية فى بغداد، وخلافة فاطمية شيعية فى المهدية ثم فى مصر، وخلافة أموية سنية فى قرطبة بالأندلس).

لم يلبث عبدالرحمن الثالث أن تلقب بالناصر لدين الله متشبهاً بالعباسيين والفاطميين وأصبح ذلك أمراً معتاداً فى ذريته. ولكن الضعف بدأ يدب فى أوصال هذه الخلافة من عهد هشام المؤيد نتيجة نفوذ أمه (صبح) وتسلطها على مقاليد الحكم، وقد نتج عن ذلك أن استقل كثير من أمراء الأطراف[٤٨] مثل باديس بن حبوس فى غرناطة والبرزالى فى قرمونة، وابن عباد فى أشبيلية، وابن ذى النون فى طليطلة، وابن أبى عامر فى بلنسيه، واستمر هذا الضعف إلى أن استولى بنو حمود على قرطبة سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م (ينتسبون إلى إدريس

العلوى مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب) وقتلوا سليمان المستعين وأزالوا الخلافة الأموية من الأندلس.

سلطة الخليفة

جمع الخليفة بين الرئاسة العامة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن رسول الله ﷺ بحيث تكون منزلة الخليفة فى الدولة الإسلامية كمنزلة النبى ﷺ الرئاسية فى المسلمين، له عليهم الولاية العامة، والسمع والطاعة وتقع عليه مهمة تنفيذ حدود الشريعة الإسلامية – دستور المسلمين – والقيام على شئون دينهم، وبالتالى على شئون دنياهم، لأن زمام الدولة الإسلامية كلها بين يديه، تصريف شئونها مسئولة منه، فكل مسألة دينية أو دنيوية متفرعة من منصبه، فهو باختصار الحاكم الزمنى للدولة، والزعيم الروحى للأمة، وقد عبر ابن خلدون(٤٩) عن رأيه فى الخلافة فقال : «والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها مصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا».

ويرى بعض المستشرقين(٥٠) «أن جمع السلطات فى أيدى الخليفة كان سبباً رئيسياً فى ازدياد قوة العرب، وبسط نفوذهم واتساع سلطانهم» وقد كانت تلك النظم السياسية سبب عظمة العرب، ولا شئ أصوب من جمع النبى ﷺ لكل السلطات المدنية والحربية والدينية فى يد واحدة أيام كانت العرب مجزأة (قبائل)، فقد فتح العرب معظم بلدان العالم فى قرن واحد بعد أن كانوا أشبه بالبرابرة المتناحرين قبل ظهور الإسلام. وفى رأينا أن جمع السلطات كان بسبب تربص جموع قريش بالنبى ﷺ وبالدعوة الإسلامية، وأن الإسلام كان فى بداية ظهوره، وكان الوحى يتنزل على النبى محمد ﷺ بأمر الله عز وجل، يبلغه الأحكام الإلهية، وكان الرسول (ﷺ) يبلغ أمة المسلمين هذه الأحكام وتلك الأوامر، وعلى ذلك فالرسول محمد (ﷺ) كان مبلغاً ومنفذاً لأحكام الله التى وردت فى الدستور السماوى وهو القرآن الكريم.

ومن هنا لم يكن للخليفة مهما اتسعت سلطته وقوى نفوذه أن يخالف أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومع ذلك فقد خرج بعض أمراء وخلفاء بنى أمية على حدود سلطة الخليفة، وأصبح الواحد منهم هو الحاكم المطلق، ينفرد بالحكم فى أغلب الأحيان،

ولا يطلب المشورة إلا نادراً. ولجأ العباسيون أحياناً إلى مثل هذا التصرف، ولكنهم اعتمدوا فى بناء دولتهم على عناصر فارسية وتركية، فأدى ذلك إلى ضعف نفوذهم ووقعوا تحت سطوة ونفوذ هذه العناصر، ووسمهم المؤرخون المعاصرون لهم بالضعف وعدم الحيلة، ومما قيل عنهم : «إنه لم يبق للخليفة من الأمر شئ، اللهم إلا كان متعلقاً بالدين وحراسته»(٥١).

وقد حاول بعض المؤرخين أن يقارن بين نظام الخلافة ونظام البابوية فى العصور الوسطى، فوقعوا فى أخطاء جسيمة حيث شبه البابا بالإمام فى قول ياقوت(٥٢) عند حديثه عن روما حيث قال : «إنها المدينة التى يسكن فيها البابا الذى يطيعه الفرنجة، وهو لهم بمنزلة الإمام، متى خالفه أحد منهم كان عاصياً ومخطئاً يستحق النفى والطرد والقتل». وقد وصفه ابن الجوزى بقوله : (خليفة الفرنجة)، والاختلاف كبير بين الرجلين والسلطتين فالبابا قس كبير يستطيع – فى عرفهم – أن يغفر خطايا المذنبين من المسيحيين وأن يغير أو يلغى القوانين الكنسية التى وضعها الباباوات السابقون. أما الخليفة فلا يمكن له أن يشرع مبدأ دينياً جديداً، ولا يعفو عن الخطايا، ولا يمارس أى وظيفة كهنوتية، لأن الخلافة لم تقم على نظام سياسى سابق، ولكنها نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التى نشأت بعد انتقال الرسول (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى.

وقد امتد نظام الخلافة فى الدولة الإسلامية مع ما اعتراها من اضطرابات وعلى الرغم مما أصابها من ضعف أو هلاك – أبيدت الخلافة العباسية على يد التتار سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م(٥٣) – ثم انتقلت الخلافة إلى غير العرب حيث أحياها الأتراك العثمانيون وظلت موجودة فى العالم الإسلامى حتى هزم العثمانيون (الرجل المريض) فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) وتولى مصطفى كمال أتاتورك(٥٤) رئاسة الدولة العثمانية، فألغى نظام الخلافة رسمياً فى مارس/ آذار سنة ١٩٢٤م، وجعلها دولة علمانية.

الخلافة فى نظر الفقهاء والمؤرخين :

عندما ضعفت الدولة العباسية وأصبح أمرها فى أيدى الوزراء والأمراء، وأصبح الخليفة لا يملك من أمر الحكم شيئاً، بدأ الفقهاء والمؤرخون يدرسون موضوع الخلافة. من هؤلاء نذكر أبو الريحان البيرونى، «المتوفى سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، وكتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية»؛ فقد أعلن حقيقة ما وصلت إليه الخلافة فقال : «لم يبق للخليفة من الأمر شئ، اللهم

إلا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته». أما الماوردى «المتوفى سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م وكتابه الأحكام السلطانية» فقد رأى أن مركز الخليفة انتخابى، وقد تجاهل حقيقة ما وصلت إليه الخلافة من ضعف. ثم تناول موضوع الخلافة بعد ذلك كثير من الفقهاء مثل ابن حزم «المتوفى سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م وكتابه الفصل فى الملل والأهواء والنحل»، والشهرستانى «المتوفى سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م وكتابه الملل والنحل»، وابن خلدون «المتوفى سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م فى المقدمة»، وأبو نصر الفارابى الذى سبق هؤلاء جميعاً «المتوفى سنة ٢٣٩هـ/ ٩٥٠م وكتابه آراء أهل المدينة الفاضلة».

ولاية العهد :

تعرضنا فيما سبق إلى كيفية انتخاب كل من الخلفاء الراشدين، وعرفنا أن الأمويين ومن بعدهم العباسيين حولوا الخلافة إلى ملك وراثى، فكان الخلفاء يبايعون لأولادهم بولاية العهد أو لغيرهم من ذوى القربى.. وقد اختلفت آراء الفقهاء والمؤرخين حول صحة هذا الإجراء وموافقته للتشريع الإسلامى أو مخالفته، فابن خلدون يقول فى المقدمة: «بما أن الخليفة هو الناظر فى مصالح الأمة الدينية والدنيوية، وهو وليها والأمين عليها، وقد منحته الأمة ثقتها، فإنه من متممات مهمته أن يؤمن مصالح المسلمين بعد وفاته وأن يعين لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها». وفى موضع آخر يحاول دعم هذا الرأى فيقول : «إن بعض الخلفاء كانوا يتحرون الحق ويعملون به، مثل عبدالملك بن مروان، وابنه سليمان - من خلفاء بنى أمية - وأبو العباس عبدالله المشهور بالسفاح، وأبو جعفر المنصور، ومحمد المهدى، وهرون الرشيد - من خلفاء بنى العباس - وغيرهم ممن عرف حسن رأيهم للمسلمين والنظر إليهم، ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم على سنن الراشدين فشأنهم غير شأن أولئك.. لأن العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك، والوازع الدينى قد ضعف، واحتيج إلى الوازع السلطانى». بينما يرى آخرون وجوب ترك اختيار الخليفة (رئيس الدولة) للمسلمين - أى عموم الشعب - يختارون الخليفة برغبتهم وبإرادتهم.

علامات الخلافة :

للخلافة علامات ثلاث هى : البردة، والخاتم، والقضيب. وهذه الأشياء توارثها الخلفاء عن الرسول محمد (ﷺ)، وكان الخليفة الجديد يستلمها من الخليفة السابق، ويورثها هذا لمن يأتى بعده.

والسكة تعنى النقود المعدنية المضروبة من دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس برونزية وغيرها. وكان يضرب على أحد وجهيها اسم الخليفة، وعلى الوجه الآخر عبارة إسلامية مثل «لا إله إلا الله».

وكان العرب قبل الإسلام يتعاملون بسكة فارسية، ورومية أى بيزنطية، ويمانية ونبطية وغيرها. فلما انتشر الإسلام ضرب بعض الخلفاء أو الأمراء النقود مشتركة بينهم وبين الفرس أو الروم، وقد فعل ذلك عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، ومعاوية بن أبى سفيان وعبدالله ابن الزبير.

وفى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان أراد تغيير الطراز الذى يستورد من بلاد الروم، ولكن الإمبراطور الرومانى هدد الخليفة عبد الملك بأنه سوف ينقش على الدنانير الرومية التى يستعملها المسلمون شتائما ضد النبى محمد (ﷺ)، فعظم ذلك على الخليفة عبدالملك، وأمر بضرب النقود فى الدولة الإسلامية نفسها، وهدد بقتل كل من يتعامل بغير هذه النقود الإسلامية.

أما الطراز فهو كتابة اسم السلطان أو الملك أو الوالى أو رسم علامات خاصة تدل على المصنع أو عليهم فى أطراف أثوابهم المعدة للباسهم، وقد عرف ذلك من عصور قديمة فى بلاد الفرس.

وفى رأيى أن ما كتبه (آشتور) من أن العرب أطلقت اسم الطراز على مصانع النسيج الملكية فى المدن الإسلامية قد جانبه الصواب، لأن حكام المسلمين لم يتسمو باسم (ملك) منذ بداية العصر الإسلامى حتى ظهور الدويلات الإسلامية فى المشرق الإسلامى[٥٥]، وقد استخدم هذا اللفظ مع وجود لفظ السلطان كذلك. وأول من تلقب به فى مصر هو الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ثم تلاه الصالح طلائع الذى تلقب (بالملك المنصور) الذى تلقب به صلاح الدين الأيوبى عندما أصبح وزيراً فى مصر.

والسكة تعنى النقود المعدنية المضروبة من دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس برونزية وغيرها. وكان يضرب على أحد وجهيها اسم الخليفة، وعلى الوجه الآخر عبارة إسلامية مثل «لا إله إلا الله».

وكان العرب قبل الإسلام يتعاملون بسكة فارسية، ورومية أى بيزنطية، ويمانية ونبطية وغيرها. فلما انتشر الإسلام ضرب بعض الخلفاء أو الأمراء النقود مشتركة بينهم وبين الفرس أو الروم، وقد فعل ذلك عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، ومعاوية بن أبى سفيان وعبدالله ابن الزبير.

وفى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان أراد تغيير الطراز الذى يستورد من بلاد الروم، ولكن الإمبراطور الرومانى هدد الخليفة عبد الملك بأنه سوف ينقش على الدنانير الرومية التى يستعملها المسلمون شتائما ضد النبى محمد (ﷺ). فعظم ذلك على الخليفة عبدالملك، وأمر بضرب النقود فى الدولة الإسلامية نفسها، وهدد بقتل كل من يتعامل بغير هذه النقود الإسلامية.

أما الطراز فهو كتابة إسم السلطان أو الملك أو الوالى أو رسم علامات خاصة تدل على المصنع أو عليهم فى أطراف أثوابهم المعدة للباسهم، وقد عرف ذلك من عصور قديمة فى بلاد الفرس.

وفى رأيى أن ما كتبه (آشتور) من أن العرب أطلقت اسم الطراز على مصانع النسيج الملكية فى المدن الإسلامية قد جانبه الصواب، لأن حكام المسلمين لم يتسمو باسم (ملك) منذ بداية العصر الإسلامي حتى ظهور الدويلات الإسلامية فى المشرق الإسلامى[٥٥]، وقد استخدم هذا اللفظ مع وجود لفظ السلطان كذلك. وأول من تلقب به فى مصر هو الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ثم تلاه الصالح طلائع الذي تلقب (بالملك المنصور) الذى تلقب به صلاح الدين الأيوبى عندما أصبح وزيراً فى مصر.

حواشى الفصل الثالث

(١) الطبرى : تاريخ، ج٣، ص١٧٣.
(٢) السيرة النبوية لإبن هشام، ق٢ ص٣٧٧.
(٣) القضاعى : عيون المعارف نقلاً عن القلقشندى، ج١ ص٩٢.
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى، ج١ ص٩٢.
(٥) سورة الشورى/٣٨.
(٦) سورة آل عمران/ ١٥٩.
(٧) الطبرى : تاريخ، ج٣، ص٢٠٠.
(٨) سورة فصلت/٤١.
(٩) سورة الحجر/ ١٥.
(١٠) سورة الأنعام/ ٣٨.
(١١) سورة النور/ ٥٥.
(١٢) سورة الأنعام/ ١٦٥.
(١٣) سورة الأعراف/ ٧٤.
(١٤) سورة ص/ ٢٦.
(١٥) سورة البقرة/ ٣٠.
(١٦) أحمد الشامى : الخلفاء، ص١٦ وما بعدها.
(١٧) المقدمة، ص١١٩ وما بعدها.
(١٨) سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام.
(١٩) الطبرى : تاريخ، ج٣ ص٢١٩، أحمد الشامى: الخلفاء الراشدون، ص١٧ وما بعدها.
(٢٠) السيوطى : الخلفاء، ص٦٧ وما بعدها.
(٢١) راجع الحوار كاملاً فى كتابنا : الخلفاء الراشدون، ص١٨-٢٠.
(٢٢) ابن الأثير : الكامل، ج٢ ص٣٢٨، وابن قتيبة: الإمامة ج١ ص١٤.
(٢٣)راجع ذلك بتفصيل فى كتابنا : «تاريخ العرب والإسلام، ص٢١٠ وما بعدها».
(٢٤) فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، ص٦٩.
(٢٥) المسعودى : مروج، ج٢، ص١٩١ وما بعدها.
(٢٦) سورة الحجرات/ ١٣.
(٢٧) سورة التوبة/ ٤٩.
(٢٨) المقدمة، ص١٨٢.
(٢٩) أحمد الشامى: الخلفاء الراشدون، ص١٣١.
(٣٠) سورة الشعراء/ ٢٢٧ وقد أورد الطبرى (ج٣ ص٤٢٩) نصاً يختلف فى بعض تعبيراته عن هذا النص.
(٣١) راجع الحوار كاملاً فى الطبرى (ج٤، ص١٩١).
(٣٢) ابن قتيبة : ص٢٣.
(٣٣) المسعودى : مروج، ج٢ ص٢٠٤.
(٣٤) راجع تفاصيل هذه الأحداث فى كتابنا (الخلفاء الراشدون) ص٢٧١ وما بعدها.
(٣٥) ابن طباطبا : الفخرى، ص٧٣.
(٣٦) ابن قتيبة : ج١ ص٤٦.

(٣٧) ابن الأثير: الكامل، ج٣ ص١٩٢.　　　(٣٨) ابن كثير: البداية، ج٧ ص٢٢٦.

(٣٩) الطبري: ج٤، ص٤٢٧.

(٤٠) ابن قتيبة : ج١ ص٤٦ (راجع ما قاله كل منهما في هذا المقام).

(٤١) يذكر ابن كثير : المرجع السابق نفسه، ص٢٢٩ أن طلحة أول من بايع علياً وكانت يده اليمنى شلاء، فقال البعض إن هذا الأمر لن يتم.

(٤٢) راجع تفصيلات ذلك في كتاب الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول (للمؤلف) ص١٥-٣٧.

(٤٣) ابن هشام : السيرة، ج٤ ص٤٥٧، وابن الأثير: الكامل، ج٢ ص٢٣٢.

(٤٤) Sayed Amir Aly: A short History of the saracens, pp. 405-406.

(٤٥) الفخري في الآداب، ص٢٩٤، وما بعدها.

(٤٦) المقريزي: السلوك ج١، ص٤٦، وابن الأثير: الباهر، ص١٥٦ وكتابنا صلاح الدين والصليبيون، ص٨٩، ٩٠.

(٤٧) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ج٢ ص٢١٢.

(٤٨) حسن إبراهيم : تاريخ، ج٣ ص١٨٥، ٢٥٣.

(٤٩) المقدمة، ص ١١٩-٢١٨.　　　(٥٠) جوستاف لوبون : حضارة العرب، ص٢١٨.

(٥١) البيروني: الآثار الباقية، ص٠٠٠.　　　(٥٢) المعجم : ج٢ (مادة روما).

(٥٣) راجع تفاصيل هذه الأحداث عند : رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ، ج٢، ترجمة الصياد وآخرين، ص٢٧١ وما بعدها.

(٥٤) هناك بحوث تاريخية يقول أصحابها إن أتاتورك وضعته القوى الاستعمارية البريطانية في صفوف الجيش التركي ليقوم بهذا الانقلاب، ويحول الخلافة العثمانية إلى دولة علمانية، وكانت هي التي تمده بالخطط والمال... إلخ وإن جذور كمال أتاتورك ترجع إلى العناصر اليهودية.

(٥٥) راجع جروهمان : أوراق البردي العربية، ج١ في حديثه عن الطراز.

الفصل الرابع

أولاً : الوزارة

يقرر علماء اللغة أن هذا الإسم مشتق من معناه ولهم فيه ثلاثة أوجه :

١ - مشتق من الوِزْر وهو الثقل، لأن الوزير يحمل عن الإمام أو السلطان أثقاله.

٢ - مشتق من الوَزَر وهو الملجأ، ومنه قول الله تعالى (كلا لا وزر)[١] أى لا ملجأ، فسميت الوزارة والوزير بذلك لأن الإمام أو السلطان (أى رئيس الدولة) يلجأ إلى رأى الوزير ومعونته.

٣ - مشتق من الأزْر وهو الظهر، لأن الأمام يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر[٢].

ويذكر ابن خلدون[٣] أن أسمها يدل على مطلق الإعانة، لأن الوزارة إما من المؤازرة وهى المعاونة، أو من الوزر وهو الثقل وهو راجع إلى المعاونة المطلقة.

وقد ورد لفظ الوزير فى القرآن الكريم فى موضعين : أولهما : عندما التمس موسى - عليه السلام - من الله عز وجل أن يشدد أزره بأخيه هارون فقال : (... واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى)[٤]، وثانيهما: عندما استجاب الله عز وجل دعاء موسى فيما ورد بالقرآن الكريم : (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا)[٥].

أهمية الوزارة :

ترجع أهميتها إلى أنها الولاية الثانية فى الدولة بعد منصب الإمامة أو السلطان بمعنى أن الوزير هو نائب الخليفة فى حكم البلاد، ويرى بعض العلماء أن الوزارة من الناحية العملية أو التنفيذية تكاد تساوى الإمامة (أى رئاسة الدولة)، لأنها تتحمل عبء الحكم ومسئولياته كلها.

ويرى البعض أن الوزير هو كبير الولاة وأهمهم لأنه يشرف على سياسة الدولة ويسهر على مصالح الأمة، وهو رئيس الدواوين وصاحب الرأى والمشورة وأقرب الناس إتصالاً بالخليفة وأعلمهم بأمور السياسة ودروبها. ومن ناحية الاختصاص فهى «ولاية عامة». بمعنى أن الوزير

ينوب عن الإمام فى جميع أمور الدولة. ووجود الوزير بجانب الإمام فيه مصلحة للمسلمين لأنه يبصر الإمام بالصواب، ويساعده على تجنب الوقوع فى الخطأ، لأن الإمام لا يستطيع تدبير كل الأمور الموكولة إليه إلا باستنابة وزراء معه.

وفى ذلك يقول الماوردى : «ونهاية الوزير المشارك له - أى للإمام - فى التدبير أصح فى تنفيذ الأمور من تفرده بها، ليستظهر بها على نفسه، وبها يكون أبعد من الزلل وأمنع من الخلل».

والوزارة ليست من مستحدثات الإسلام، فقد عرفتها أمم سابقة على ظهور الإسلام، وقبل انتشاره مثل دولة الفرس الساسانية وغيرها، ولكن فى بداية عهد الدولة الإسلامية وجد معنى الوزارة أو من يقوم بعملها.. ففى عهد الرسول ﷺ أطلق العرب الذين خالطوا الفرس والروم والأحباش على أبى بكر الصديق لقب «وزير النبى».. ويروى عن النبى (ﷺ) قوله : «... ووزيراى من أهل الأرض أبو بكر وعمر»، كما استعمل أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) هذا اللفظ بمعناه فى سقيفة بنى ساعدة عندما خاطب الأنصار بقوله : «نحن الأمراء وأنتم الوزراء»[٦] ويفهم من ذلك أن الوزارة عرفت فى الدولة الإسلامية منذ نشأتها.

يرى بعض المؤرخين أن الوزارة ظهرت مع نظام الخلافة، فكان عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وزيراً لأبى بكر، وكان عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب (رضى الله عنهما) وزيران لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كما كان مروان بن الحكم وزيراً لعثمان بن عفان.

وفى عصر الخلفاء الأمويين : أطلق بعض المؤرخين على عمرو بن العاص وزياد ابن أبيه (أخى معاوية من أبيه) وزيراً معاوية، ولكن من المعلوم أن الأمويين استخدموا من يقوم بعمل الوزير وأطلقوا عليه اسم (الكاتب) ولذلك عرف وزراء هذا العصر باسم (الكتاب) مثل عبدالحميد الكاتب الذى كان وزيراً لمروان بن محمد، كما كان يسمى (مشيراً).

ويتفق رأى جمهرة المؤرخين على أن الوزارة ولقب الوزير لم يظهرا بصفة رسمية إلا فى عصر خلفاء بنى العباس، ومن المعروف أن أول من لقب بالوزير ودعى به رسمياً فى الدولة الإسلامية هو أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال، مولى السبيع فقد أطلق العباسيون عليه (وزير آل محمد)[٧]، ولما قامت الدولة العباسية استوزره أول خلفائها عبدالله أبو العباس المشهور بالسفاح، ولكنه تخلص منه بعد أقل من ثلاثة شهور. ويقول ابن طباطبا[٨] :

«الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس».

وقد استوزر أبو العباس المشهور بالسفاح بعد أبى سلمة الخلال، استوزر أبا الجهم بن عطية[٩] ثم خالد بن برمك جد البرامكة الذى كان على ديوان الخراج[١٠]. وقد قضى هرون الرشيد على هؤلاء البرامكة فيما عرف فى التاريخ بنكبة البرامكة. وقد جاءت أوصاف الوزير على لسان الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور فى قوله : «إنى التمست لأمورى رجلاً جامعاً لخصال الخير، ذا عفة فى خلائقه واستقامة فى طرائقه، قد هذبته الآداب، وأحكمته التجارب. إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللحظة، وتغنيه اللمحة، له صورة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أحسن إليه شكر، وإن ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه».

والوزارة نوعان : وزارة تنفيذ، ووزارة تفويض. فوزارة التنفيذ : يتولاها شخص لا يحق له تصريف شئون الدولة باجتهاده، وإنما عمله يكون قاصراً على تنفيذ أوامر الخليفة والالتزام برأيه. وهو وسيط بين الخليفة والرعية والولاة[١١]، ويجوز له أن يسهم بالرأى مع الخليفة إذا طلب منه ذلك. ولأن وزير التنفيذ ليس بوالٍ على أمور الدولة، ولا مقلد لها، فليس من الضرورى أن يكون عالماً بالأحكام الشرعية لأنه ينفذ ولا يحكم. كما يجوز للخليفة أو الإمام أن يعين أكثر من وزير تنفيذى دون أن يحدث تعارض بينهما، لأن كلا منهما ملزم بتنفيذ ما يصدر إليه من الأوامر. وخلاصة القول إن وزارة التنفيذ حكمها أضعف وشروطها أقل من وزارة التفويض، لأن النظر فيها مقصور على رأى الخليفة وتدبيره.

الشروط الواجبة فيمن يتقلد وزارة التنفيذ :

يجب أن تتوافر فيمن يتقلد وزارة التنفيذ سبعة شروط هى :

١ - الأمانة، حتى لا يخون فيما اؤتمن عليه، وألا يغش فيما يقدمه من نصيحة.

٢ - صدق الحديث، حتى يوثق فى أخباره التى يؤديها، ويعمل بقوله فيما ينهيه.

٣ - قلة الطمع، حتى لا يرتشى فيما يتولاه، ولا ينخدع فيتساهل.

٤ - أن يسلم من العداوة والشحناء فيما بينه وبين الناس، لأن العداوة تصد عن الإنصاف وتمنع من التعاطف.

٥ – أن يكون ذكوراً (أى حافظاً قوى الذاكرة) لما يؤديه إلى الخليفة وعنه، لأنه شاهد له وعليه.

٦ – أن يتحلى بالفطنة والذكاء، حتى لا تدلس عليه الأمور فتشتبه فيصبح مشبوهاً فى نظر الخليفة أو السلطان والرعية، ولا تموه عليه فتلتبس فلا يصح مع اشتباهها عزم ولا يصح مع التباسها حزم.

٧ – أن لا يكون من أهل الأهواء، فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل، لأن الهوى خادع للألباب وصارف عن الصواب، وقد حذر الرسول ﷺ من ذلك فى قوله : «حبك الشئ يعمى ويصم»(١٢).

أما وزارة التفويض : فيتولاها شخص يفوضه الخليفة فى تدبير أمور الدولة برأيه، وإمضائها على اجتهاده(١٣)، دون الرجوع إليه. وأول من تولى وزارة التفويض فى الدولة الإسلامية هو يحيى البرمكى(١٤) فى عهد هرون الرشيد، الذى استوزره سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م وكتب إليه :

«قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقى إليك، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وامض الأمور على ما ترى»(١٥). ثم دفع إليه بخاتم الخلافة. وبهذا التقليد حدد هرون الرشيد لأول مرة عمل وزير التفويض ومضمونه(١٦). وقد أطلق بعض المؤرخين على وزارة التفويض اسم (وزارة السيف والقلم).

وينبغى أن تتوافر فيمن يتقلد وزارة التفويض الشروط التى يجب أن تتوفر فى الخليفة أو الإمام، باستثناء النسب القرشى الذى تغاضى عنه الفقهاء. وقد أجمل الماوردى الفرق بين وزارتى التفويض والتنفيذ فى أربع نقاط يجوز لوزير التفويض القيام بها، وليس لوزير التنفيذ مثلها وهى :

١ – تقليده الولاة واستبداده فى [illegible] الأمر.

٢ – التصرف فى أموال بيت المال، فيقبض ما يستحق لهذا البيت، ويصرف منه ما يجب فيه.

٣ – الانفراد بتسيير الجيوش وتدبير شئون الحرب ومباشرتها.

٤ – النظر فى المظالم أو ينيب عنه من يراه لذلك.

ومع ذلك فقد وضع الفقهاء الضوابط التى تمنع وزير التفويض من الاستبداد فقالوا :
«يجب على وزير التفويض أن يطلع الإمام على ما أمضاه من تدبير، وما اتخذه من تقليد ولاية حتى لا يصبح عن طريق الاستبداد كالإمام. كما يجب على الإمام أن يطلع على أعمال الوزير وعلى تدابيره فى الأمور، لأن تدبير الأمة إليه موكول، وعلى اجتهاده محمول».

كما منع الفقهاء وزير التفويض من النظر فى ثلاثة أمور لأنها من صميم صلاحيات الإمام وهى :

** الأمر الأول : ولاية العهد، لأن للإمام أن يعهد بذلك الأمر لمن يراه، وليس ذلك من صلاحيات وزير التفويض.

** الأمر الثانى : للإمام أن يستعفى الأمة من الإمامة (أى يطلب إعفاءه) وليس ذلك للوزير.

** الأمر الثالث : من حق الإمام أن يعزل من قلده الوزير، وليس للوزير أن يعزل من عينه الإمام. وهذا يقابل فى الدساتير الحديثة أن قرار الوزير لا يلغى قرار رئيس الدولة.

ومن المعلوم أنه لم يحدث أن تولى وزارة التفويض وزيران فى وقت واحد مثلما حدث فى وزارة التنفيذ، وذلك للمحافظة على أن تكون الأمور فى يد وزير واحد، حتى لا يحدث اختلاف فى الرأى بين الوزيرين فيتعطل دولاب العمل، أو تختل أمور الدولة. ويذكر المستشرق السويسرى آدم ميتز(١٧) أن تعدد الوزراء فى وزارة التنفيذ لم يعرف إلا فى أواخر العصر العباسى زمن السلطان عضد الدولة (٣٦٧-٣٧٢هـ/ ٩٧٧-٩٨٢م) الذى أحدث فى منصب الوزارة أمرين لم يكونا قبله.

أولهما : أنه اتخذ وزيرين معاً.

وثانيهما : أن أحد هذين الوزيرين كان نصرانياً وهو ابن منصور نصر بن هرون، وقد أبقاه الخليفة فى فارس وطنه الأصلى، وأخذ معه إلى بغداد الوزير الثانى. وقد سار بهاء الدولة (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) على سياسة أبيه فعين هو الآخر وزيرين.

سلطة الوزير :

كانت سلطة الوزير تتأثر إلى حد كبير بقوة الخلفاء وضعفهم، فعندما كانت الخلافة قوية

فى العصر العباسى الأول كان الوزراء يخافون على أنفسهم من بطشهم، لدرجة أن بعض الوزراء كان يتجنب أن يسمى نفسه وزيراً، خاصة بعد مقتل أول وزرائهم أبو سلمة الخلال، وبعدما تكرر منهم قتل الوزراء، فقد وضع الخليفة أبو جعفر المنصور السم فى طعام قدمه إلى الوزير أبى الجهم، فلما أكله أحس بالسم فقام لينصرف، فقال له المنصور : إلى أين؟ فأجاب : إلى حيث بعثتنى يا أمير المؤمنين - يعنى إلى القبر - وقد عبر الشاعر ابن جبيبات الكوفى عن وضع الوزير فى هذا العصر بقوله :

أسوأ العالمين حالا لديهم ... من تسمى بكاتب أو وزير

ومن المعروف أن الخليفة أبا جعفر المنصور كان على جانب كبير من الكفاءة والذكاء[١٨] ولذلك استغنى برأيه عن آراء الآخرين، واستبد بأمره، وأصبح الوزراء فى عهده غير ذى شأن كبير، لأنه كان يتخلص منهم بالقتل أو بالعزل.

وفى عهد هرون الرشيد بلغ شأن الوزارة والوزراء قدراً كبيراً، لدرجة أنه عهد بتصريف شئون الدولة إلى وزيره يحيى بن خالد البرمكى فيما عرف باسم وزارة التفويض[١٩]. وأشهر وزراء العصر العباسى الأول هم البرامكة وبنو سهل. وفى مطلع القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى فى زمن المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٧-٩٣٢م) بلغت الوزارة شأوا بعيداً من حيث النفوذ والسلطة والأبهة والتصرف فى الأموال، حتى أن أحد المؤرخين وصف الوزير ابن الفرات[٢٠] بقوله : «ما سمعنا بوزير جلس فى الوزارة وهو يملك من العين والورق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف (أى مليون) غير ابن الفرات!! وأشهر الوزراء بصفة عامة هم بنو الفرات، وبنو وهب، وبنو الجراح، وأشهر هؤلاء جميعاً الوزير على بن عيسى وزير المقتدر بالله[٢١] وعبدالرحمن بن عيسى وزير الراضى بالله.

ويعلل ابن خلدون أسباب هذا التطور بقوله : «ولما جاءت دولة بنى العباس، واستفحل الملك، وعظمت مراتبه وارتفعت، عظم شأن الوزير، وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد، وتعينت مرتبته فى الدولة، رعنت لها الوجوه، وخضعت لها الرقاب، وجعل لها النظر فى ديوان الحسبان.. ثم يواصل ابن خلدون حديثه عن المكاتبات فيقول : نظراً لمعرفة الوزير بأسرار الخليفة.. فصار اسم الوزير جامعاً لخطتى السيف والقلم، وسائر معانى الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعى جعفر بن يحيى البرمكى بالسلطان فى أيام هرون الرشيد وذلك إشارة إلى عموم نظره وقيامه بأمور الدولة.

ضعف شأن الوزارة :

ارتبط شأن الوزارة والوزراء بقوة الخليفة ونفوذه فى الدولة، وكذلك بمدى ضعفه وعدم نفوذه وسوء حالته.

فإذا طبقنا ذلك على الدولة العباسية نجد أنها أخذت فى الضعف حتى عجز الوزراء عن إدارة شئون الدولة بسبب ازدياد نفوذ القواد الأتراك فاستدعى الخليفة الراضى بالله (٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٢-٩٤٠م) والى البصرة وواسط محمد بن رائق وأسند إليه كافة شئون الدولة، ولقبه أمير الأمراء، وأمر أن يخطب له على جميع المنابر، وأنفذ إليه الخلع والعهد واللواء. فأصبحت الأمور كلها بين يديه يولى من يشاء ويعزل من يشاء، وليس للوزير معه من سلطة أو نفوذ سوى الإسم[٢٢].

وفى عهد المستكفى بالله دخل أمراء بنى بويه بغداد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م وحجروا على الخلفاء، وأصبح لهم حق تولية الوزراء وخلعهم. ومن أشهر أفراد الأسرة البويهية الأخوة الثلاثة على والحسن وأحمد أبناء أبى شجاع بويه ابن فناخسرو[٢٣]، وكان زعيماً لإحدى قبائل الديلم.

ومن أشهر وزراء البويهيين أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد الذى وزر سنة (٣٣٨هـ/٩٤٩م)[٢٤] لركن الدولة ابن بويه (٣٣٠-٣٦٥هـ/ ٩٤١-٩٧٥م) صاحب الرى وهمذان وأصبهان وجميع بلدان العراق، ومما قيل فى ابن العميد : «بدئت الكتابة بعبدالحميد وختمت بابن العميد»، كما لقب بالأستاذ الرئيس.

وجاء بعد أبى الفضل محمد ابنه أبو الفتح على بن محمد بن العميد، وقد لقبه ركن الدولة ابن بويه (ذو الكفايتين) لمهارته الحربية، وعلو كعبه فى العلم وحذقه فى السياسة، وقد مكث فى الوزارة من سنة (٣٦٦-٣٧٣هـ/ ٩٧٦-٩٨٣م).

وبعد بنى بويه قامت دولة السلاجقة وقد تمكنوا كذلك من الاستيلاء على بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، ووضعوا الخلافة تحت سيطرتهم واستبدوا بالسلطة والحكم دون الخلفاء[٢٥]. ثم جاء الخوارزميون وتخلصوا من السلاجقة وأقاموا دولتهم، وناوؤا الخلافة وأضعفوا كل نفوذ وسلطان للخلفاء العباسيين، كما اصطدموا مع المغول. وكان الخوارزميون

من الأسباب الرئيسية التى عجلت بانهاء دولة العباسيين وزوال ملكهم عندما دخل المغول بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

وكان لكل وزير أتباع ومحاسيب (حاشية تسير فى ركابه) فإذا ما عزل هذا الوزير عزل أتباعه معه[٢٦]، وكان الوزير يحرص على تقديم الأموال للخليفة أو السلطان ولنساء القصر، وللخدم لكى يضمن استمراره فى الوزارة، كما كان يتشدد مع الأهالى فى تحصيل الضرائب، كما كان يقوم بمصادرة أتباع الوزير المعزول.

الوزارة فى مصر

لم تعرف الوزارة فى مصر فى عهد الراشدين والأمويين، لأن نظام الوزارة لم يكن قد استحدث بعد، ولأن الخلفاء كانوا يرسلون ولاة إلى مصر يديرون شئونها باسمهم.

وفى العصر العباسى نجد أن أحمد بن طولون يتخذ أحمد بن محمد الواسطى كاتباً له، وكان الواسطى يقوم بأعمال الوزارة دون أن يخلع عليه لقب وزير[٢٧]. ولما تولى خمارويه بن أحمد بن طولون ولاية مصر اتخذ أبا بكر محمد بن رستم الماذرائى كاتباً له[٢٨]. وأول ما عرفت مصر الإسلامية الوزارة كان فى عهد الإخشيديين حيث وليها الفضل بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات المعروف بابن حنزابه[٢٩]. وكان الخليفة الراضى بالله هو الذى قلده الوزارة، وقد تزوج جعفر بن الفضل هذا بابنة محمد بن طغج الأخشيد[٣٠] فازدادت صلة المودة بين الرجلين.

وفى العصر الفاطمى، كانت الوزارة فى أول أمرها وزارة تنفيذ، لأن الخلفاء الفاطميين كانوا أقوياء ويديرون أمور الخلافة بأنفسهم ولم تظهر الوزارة إلا فى عصر العزيز بالله، ومن أشهر وزراء هذه الفترة التى امتدت سبع سنوات (٣٥٨-٣٦٥هـ) يعقوب بن كلس[٣١] اليهودى المغربى الأصل، الذى عهد إليه بشئون الدولة مدنياً وعسكرياً ومالياً، فقام بجمع الخراج وباشر شئون الحسبة وكان صاحب الشرطة، وكان أول وزير فاطمى فى مصر.

وبعد وفاة يعقوب بن كلس ضعفت الوزارة، ثم تحولت إلى ما يسمى الوساطة خوفاً من ازدياد نفوذ الوزراء. فقد قام الخليفة الحاكم (٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢٠م) بعزل الوزير عيسى بن نسطورس النصرانى، وعين بدلاً منه الحسن بن عمار زعيم الكتاميين المغاربة فى

منصب (الوساطة) في شوال سنة ٣٨٦هـ ولقبه (أمين الدولة) ولكن الحسن بن عمار بسط نفوذه على كل أمور الدولة وعلى قصر الخلافة، وحابى الكتاميين المغاربة وقطع أعطيات الأتراك.. ومن الملاحظ أن كثيراً من الذين تولوا منصب (الوساطة) في عصر الخليفة الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله كانوا من أهل الذمة، وكانوا لا يمكثون في مناصبهم (الوزارية) مدة طويلة بسبب عزلهم لمحاباتهم أبناء جلدتهم من الذميين.

وبعد الحسن بن عمار تقلد شئون الوساطة استاذ الخليفة الحاكم بأمر الله ومستشاره المسمى (برجوان) الذى انتهت حياته بالقتل سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م. فخلفه الحسين بن جوهر القائد الذى تلقب بـ (الرئيس).

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمي الأول - فترة الخلفاء الأقوياء - الوزير أبو الحسن على ابن جعفر بن فلاح الذي تلقب بـ (وزير الوزراء، وذى الرياستين، والآمر المظفر قطب الدولة)[٣٢]. وبعده تولى وزراء كثيرون، وقد تلقب كل وزير منهم بلقب مثل : أمين الدولة، عميد الدولة، أمين الأمناء، الوزير الأجل صفي أمير المؤمنين، تاج الملة، فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين[٣٣].

ولم يتقيد الخلفاء الفاطميون فى أن يكون الوزير شيعياً إسماعيليا بل استوزروا عدداً من اليهود قبل أن يدخلوا فى دين الإسلام، من هؤلاء أبو الحسن التسترى، وأبو منصور صدقة الفلاحى، كما استوزروا عدداً من النصارى مثل عيسى بن نسطورس، والشانى زرعة ابن نسطورس، كذلك لم يتقيد الخلفاء الفاطميون بجنسية الوزير أو وطنه الأصلى، فجوهر الصقلى مغربى وابن كلس يهودى بغدادى، واليازورى فلسطيني.. وهكذا.

ومن الواضح أن الوزارة فى مصر فى العصر الفاطمى كانت للكتاب والعلماء والفقهاء ولم تكن للأمراء أو القواد وظل ذلك كذلك حتى استحدث الخليفة المستنصر بالله وزارة السيف فى مصر، وكان أمير الجيوش بدر الجمالى أول وزير سيف فى هذه الفترة (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢-١٠٧٣م).

ويعرف المقريزي[٣٤] وزارة السيف بقوله : «إن معنى وزارة السيف أن تكون كل الأمور مردودة إلى الوزير، ومنه إلى الخليفة دون سائر خدمه، ومنذ أن عقد الخليفة المستنصر لبدر الجمالى عقد الوزارة ولقبه بأمير الجيوش، أصبح المتولى للوزارة فى مصر يلقب بأمير

الجيوش». ويواصل المقريزى تعريفه بهذه الوزارة فيقول : «وصارت الوزارة منذ ذلك الحين وزارة تفويض» أى أن وزارة السيف والقلم تعادل وزارة التفويض.

وأصبحت الوزارة إرثاً فى بعض الأسر، مثل أسرة أمير الجيوش بدر الجمالى الذى استدعاه الخليفة المستنصر بالله من عكا لإصلاح الأمور فى مصر، فتمتع بالسلطة والنفوذ المطلق حتى توفى (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) ثم تولى ابنه الأفضل فاستبد بالحكم لدرجة أن الخليفة المستنصر بالله أصبح فى عهده كالمحجور عليه(٣٥)، ثم زاد نفوذ الوزراء وتضخمت ثرواتهم، وأصبح الخلفاء العوبة فى أيديهم.

وبالإضافة إلى لقب أمير الجيوش لقب الوزير بالأفضل ثم بالملك، وأول من تلقب بلقب (الملك) رضوان بن الولخشى الذى وزر للخليفة الحافظ لدين الله، ومن بعده تلقب الصالح طلائع (بالملك المنصور)، وتلقب ابنه رزيك بن طلائع (بالملك العادل) وتلقب شاور (بالملك المنصور) وتلقب صلاح الدين الأيوبى (بالملك الناصر) عندما أسندت إليه الوزارة بعد موت عمه أسد الدين شيركوه(٣٦)، وكان آخر الوزراء فى دولة الفاطميين، وكان وزير سيف وأصبح خلفاً فى ذلك لأمير الجيوش.

وكان للوزارة فى عصر الفاطميين دار تسمى دار الوزارة الكبرى، والدار السلطانية، والدار الأفضلية نسبة إلى الأمير الأفضل بدر الجمالي أمير الجيوش لأنه هو الذى بناها، وقد سكنها الوزراء حتى آلت أمور الدولة إلى صلاح الدين الأيوبى، فسكنها، ثم سكنها من بعده ابنه العزيز عثمان ثم الملك العادل ومن بعده ابنه الملك الكامل واقتصروا فى تسميتها على اسم (الدار السلطانية).

وقد اندثرت هذه الدار فى عصر المماليك حيث اقتطعت بعض أجزائها وبنيت عليها الربط والخانقاوات وانتهى أمرها إلى استيلاء الناس على ما تبقى منها(٣٧).

فى عصر الأيوبيين والمماليك :

عندما دب النزاع بين الحاجب درغام(٣٨) والوزير شاور(٣٩) فى عهد آخر الخلفاء الفاطميين العاضد (٥٥٥-٥٦٧هـ/ ١١٦٠-١١٧١م) واستغاث شاور بالأمير نور الدين محمود زنكى الذى أرسل الحملات النورية الثلاثة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه الذى صحب معه ابن أخيه القائد الشاب صلاح الدين الأيوبى فى هذه الحملات(٤٠)، رأى الخليفة

الفاطمي العاضد أن يعين أسد الدين شيركوه في الوزارة مكافأة له لأنه قضى على الصراع بين الحاجب والوزير وخلصه من فتنة متوقعة الحدوث، وتوفي أسد الدين شيركوه بعد حوالى شهرين (٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/ ٢٣ مارس ١١٦٩م)[٤١]، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في الوزارة، وانتهز نور الدين محمود هذه الفرصة فطلب من صلاح الدين أن يزيل الخلافة الفاطمية ليتم له تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة، ونجح صلاح الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية، وأقام الدولة الأيوبية في مصر (غرة المحرم ٥٦٧هـ/ ١١٧١م) وأصبح سلطاناً من قبل الخلافة العباسية على مصر وبلدان من الشام. ثم تمكن صلاح الدين بعد ذلك من إتمام تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة التي وضع بذرتها عماد الدين زنكي، ورعاها من بعده ابنه نور الدين محمود، ثم أثمرت وأينعت على أيدي صلاح الدين الأيوبي.

ومن أشهر وزراء صلاح الدين الأيوبي العالم المجاهد المتصوف والمؤرخ بهاء الدين ابن شداد[٤٢] الذي صحب صلاح الدين في كل جهاده وتنقلاته وتحركاته، وبذلك ظهر منصب جديد في النظم الإسلامية هو (وزير الصحبة). أما الوزير (المقيم) فكان ينوب عن السلطان أثناء غيابه، وكان يصرف شئون الإمارة أو الدولة باسم السلطان وحسب توجيهاته.

وآخر وزراء الدولة الأيوبية في مصر هو الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم الذي وزر لشجر الدر زوج الصالح نجم الدين أيوب. وقد بقي هذا الوزير في الوزارة إلى أول عصر الدولة المملوكية حتى قبض عليه المنصور علي بن أيبك التركماني، كما عزل وزير أبيه شرف الدين الفائزي، وعين بدلاً منه القاضي تاج الدين بن بنت الأعراقي، وكان هؤلاء الوزراء جميعاً وزراء تنفيذ لأن السلطان المملوكي وضع كل أمور الدولة في يديه، على أن بعض سلاطين المماليك عينوا لهم نواباً، وكان النائب يقوم مقام السلطان أثناء غيابه[٤٣].

الوزارة في الأندلس

لم يكن لفظ وزارة في الأندلس في عصر الأمويين شائعاً كما هو الحال في المشرق الإسلامي وفي الدولة الفاطمية في مصر، بل كان يطلق على من يتولى الوزارة في الأندلس اسم (الحاجب) أحياناً، واسم الوزير أو ذي الوزارتين أحياناً أخرى. وأول من تلقب بذي الوزارتين في الأندلس الوزير أحمد بن عبدالملك بن شهيد سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م في عهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م).

ثم تطورت أوضاع الحاجب وأصبح يختار ليكون نائب الملك، وأصبح اسم الوزير عاماً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم. أما الوزير الذى ينوب عن الملك فكان يلقب بـ (ذى الوزارتين)[٤٤]. وكان الحاجب فى الدولة الأموية بالأندلس يقوم بأعمال الوزير المعروفة فى الدولة العباسية والدولة الفاطمية. وكان الحاجب يشرف على أعمال أصحاب الدواوين، كما كان بمثابة رئيس الوزراء فيتولى رئاسة مجلس الحاجب (مجلس الوزراء) الذى يشرف على شئون الدولة[٤٥].

وإلى جانب مجلس الحاجب وجد مجلس آخر عرف باسم مجلس الشورى، وكان يرأسه الخليفة أو الأمير، وكان يضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من بنى أمية فى الأندلس.

وقد ازداد نفوذ الحاجب بعد أن ضعفت سلطة الخلفاء والأمراء الأمويين فى الأندلس، وأصبح كرسى الحجابة موضع الصراع للجلوس عليه لدرجة أن ابن أبى عامر تخلص من جعفر ابن عثمان المصحفى الحاجب فى عهد هشام المؤيد (٣٦٦-٣٩٩هـ/ ٩٧٦-١٠٠٨م) ليستولى على هذا المنصب الخطير وليصبح الحاكم المطلق فى الأندلس.

ومما يذكره ابن خلدون[٤٦] عن الوزارة فى الأندلس قوله : «وأما دولة بنى أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافاً، وأفردوا لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال وزيرا، وللترسيل وزيراً، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر فى أحوال الثغور وزيراً، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أوامر السلطان كل فيما جعل له، واختص واحد منهم للتردد بينهم وبين الخليفة، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هكذا إلى اخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب، حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها، فأكثرهم يسمى الحاجب».

أما الوزارة فى دول المشرق، فكان المتولى أمورها يلقب بـ (الدويدار) وكان أشبه ما يكون بكبير الياوران فى عصرنا هذا، وكان يختص بإرشاد الناس إلى الآداب الواجبة فى لقائهم بالسلطان، وكيفية القاء التحية فى مجالسه، وصحبة الوفود وتقديمها إليه. وكان الدويدار يشرف على كاتب السر، وصاحب البريد والمختصين بخدمة السلطان.

ثانياً : الإمارة على البلاد

الإمارة ولاية عامة تتفق مع الوزارة فى كون الأمير نائباً عن الخليفة، وتختلف عنها فى أن الأمير تنحصر سلطاته فى نطاق إمارته. وهى وظيفة مهمة وأساسية فى النظم السياسية فى الدولة الإسلامية، لأن من أول واجبات الأمير (أو الوالى) المحافظة على ارتباط الإقليم الذى يتولى أموره بمركز الخلافة فى المدينة المنورة إنطلاقاً من أن الخليفة (أو الإمام) للمسلمين واحد، وهو مسئول عن رعيته فى كل أقاليم ومناطق الدولة الإسلامية. أى أن أهم واجبات الأمير هى الحفاظ على وحدة الدولة الإسلامية. والقرآن الكريم ينص على ذلك فى قوله تعالى : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)(٤٧).

والإمارة فى الدولة الإسلامية كما قننها الفقهاء نوعان : إمارة عامة وإمارة خاصة(٤٨).

الإمارة العامة : وتنقسم إلى نوعين : إمارة استكفاء، وإمارة استيلاء. فإمارة الاستكفاء تكون بتفويض من الخليفة إلى الأمير أو الوالى بالإمارة على إقليم أو بلد من البلدان ليتولى شئون وأمور أهله.

واختصاصات أمير الاستكفاء هى :

١ - النظر فى تدبير الجيوش وترتيبهم فى النواحى، وتقدير أرزاقهم.

٢ - النظر فى الأحكام، وتقليد القضاة.

٣ - تقليد العمال لجباية الخراج، وقبض الصدقات، وتوزيع المستحق منها.

٤ - حماية الدين، ومراعاة التشريع من غير تبديل أو تعديل.

٥ - إقامة الحدود الشرعية فى الإسلام والمحافظة على حقوق المسلمين.

٦ - إمامة المسلمين فى صلاة الجمعة والأعياد أو يستخلف من يقوم بها.

٧ - تسيير الحجيج وتوفير سبله والإعانة عليه.

٨ - الجهاد ضد العدو إن كان الإقليم الذى يتولى إمارته ثغراً من الثغور أو كان متاخماً لحدود بلد العدو، وتقسيم المغانم حسب الشرع.

وقد اشترط الفقهاء فيمن يتولى هذه الإمارة أن يكون على صفة وزير التفويض من حيث كونه متمتعاً بالحرية والإسلام والعلم بالأحكام الشرعية ومعرفة أمور الحرب وقواعد

جباية الخراج. وحتى لا يكون هذا الأمير مطلق اليد فى أمور الإقليم الذى يتولى إمارته منع عليه تعيين وزير تفويض، وأجاز الفقهاء له فقط تعيين وزير تنفيذ.

أما إمارة الاستيلاء فهى أن يستولى الأمير بالقوة على إقليم أو ولاية من الولايات، فيضطر الخليفة إلى أن يقلده إمارتها ويفوض إليه تدبير شئونها والنظر فى سياستها. وقد أجاز الفقهاء الاعتراف بصحة هذه الإمارة إذا كانت الحدود مصانة، والإسلام مقام، والدين محفوظ، وعلى هذا يكون الفرق بين إمارة الاستيلاء وإمارة الاستكفاء كالآتى :

١ - إمارة الاستيلاء مقترنة بالأمير المستولى، وإمارة الاستكفاء مقصورة على اختيار أمير الاستكفاء.

٢ - إمارة الاستيلاء تشتمل على البلاد التى غلب عليها الأمير المستولى، وإمارة الاستكفاء مقصورة على البلاد التى تضمنها عهد أمير الاستكفاء.

٣ - إمارة الاستيلاء تشتمل على النظر فى كل الأمور المعهودة والنادرة، وإمارة الاستكفاء مقصورة على النظر فى الأمور المعهودة فقط دون النادرة.

٤ - إمارة الاستيلاء يصح فيها وزارة التفويض، ولا تصح فى إمارة الاستكفاء.

الإمارة الخاصة : وفيها تحدد سلطات الأمير ولا تكون مطلقة وهى كالتالى :

١ - يكون للأمير تدبير الجيوش وسياسة الرعية، وحماية البيضة والذب عن الحريم.

٢ - ليس للأمير أن ينظر فى شئون القضاء والأحكام وجباية الخراج وقبض الصدقات.

٣ - للأمير أن يسير الحجيج، وإمامة المسلمين فى الصلاة.

٤ - للأمير أن يقيم الحدود فيما لم يقع فيه اختلاف بين الفقهاء.

كان الأمراء ينتقلون إلى الأقاليم أو البلدان التى يتولون إمارتها فى أول الأمر، ولكن عندما ضعف نفوذ الخلفاء العباسيين (مستهل القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى) فضل هؤلاء الأمراء (أو الولاة) البقاء فى عاصمة الدولة الإسلامية (بغداد) أو فى سامراء بالقرب من الخليفة، وأنابوا عنهم حكاماً يديرون شئون هذه الإمارات بإسمهم، وكانوا يدعون للأمراء بعد الدعاء للخليفة فى المساجد فى خطب يوم الجمعة.

وكان من نتائج هذه السياسة استقلال بعض هؤلاء الأمراء أو الولاة بهذه الأقاليم أو

الإمارات، وساعدهم على ذلك ضعف الخلفاء، وبعد هذه البلدان عن مركز الخلافة، وأوضح مثل على ذلك استقلال أحمد بن طولون بمصر، ثم جاء محمد بن طغج الأخشيد وحذا حذوه، كما استقل يعقوب بن الليث الصفار بكثير من بلدان الدولة العباسية واضطر الخليفة المعتمد إلى الاعتراف بنفوذه على هذه البلدان وتكونت بذلك الدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠هـ/ ٨٦٨-٩٠٢م) التى نشرت نفوذها فى سجستان وكثير من بلاد فارس.

وكان الأمير يخاطب فى المراسلات بما يخاطب به صاحب الخراج، كما أن مكاتبات الوزير كانت ترسل لكل منهما فى وقت واحد، ولكن الأمير كان يتميز على صاحب الخراج بإمامة المسلمين فى الصلاة مما يجعله الرئيس فى إمارته[٤٩].

إمرة الأمراء والسلاطين والملوك

أمير الأمراء :

ظهر هذا اللقب وهذا المنصب فى الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الثانى عندما قام الخليفة المقتدر بالله بتقليد هرون بن غريب إمرة الأمراء سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م. ثم استمر بعد ذلك فى الأمراء من الحمدانيين ومن البويهيين.

ويرجع السبب فى ظهور هذا اللقب أو المنصب إلى ضعف الخلفاء العباسيين، واستبداد الأعاجم (فرس وأتراك) بشئون الحكم، وكان من المتعذر على هؤلاء الأعاجم أن ينتحلوا لقب خليفة، وفى نفس الوقت استنكفوا مشاركتهم للوزراء فى اللقب، لأن الوزراء أقل منهم مرتبة ومقاماً. لذلك تسموا بالإمارة وبالسلطان.

وكان الأمير الذى يستبد بأمور الدولة يسمى أمير الأمراء أو السلطان أو غير ذلك من الألقاب الخاصة التى يمنحها الخليفة العباسى لهم مثل «قسيم أمير المؤمنين». وأشهر الذين حملوا هذا اللقب هو محمد بن رائق الخزرى الحمدانى الذى كان والياً على واسط والبصرة. فعندما تعذر على الوزراء إدارة شئون البلاد نتيجة تفاقم نفوذ كبار القواد من الأعاجم، اضطر الخليفة الراضى بالله (٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٣-٩٤٠م) أن يستميل إليه محمد بن رائق الحمدانى لإقالة الخلافة من عثرتها فقلده الإمارة ورئاسة الجيش ومنحه لقب أمير الأمراء، وأمر بأن يذكر اسمه بعده فى الخطبة، وأعطاه اللواء، وكان ذلك فى سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م، وكان البعض يلقبه ملك بغداد أو سلطان بغداد.

وقد استمر هذا اللقب فى بنى بويه حتى سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م ثم انتقل إلى السلاجقة الأتراك، وأول من حمل هذا اللقب منهم هو طغرل بك ثم أعقبه ألب أرسلان وهما من الملوك العظام، وظل هذا اللقب مستعملاً فى السلاجقة حتى سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، وقد تلاشى هذا اللقب عندما سقطت دولة السلاجقة فى بغداد.

وقد ذكر مسكويه[٥٠] أنه منذ تولية ابن رائق منصب أمير الأمراء، بطل أمر الوزراء ولم يكن للوزير سوى اسم الوزارة فقط، وأن يحضر فى أيام المواكب إلى دار السلطان مرتدياً السواد (شعار العباسيين) ومتشحاً بسيف ومنطقه، ويقف ساكتاً.

ولم يكتف من تولوا إمرة الأمراء بالتسلط على شئون الدولة، بل كانت الأموال التى ترد من الولايات تحمل إلى خزائنهم يتصرفون فيها كيفما يشاءون، وكانوا يصرفون لنفقات الخليفة ما يقدرونه هم، وبذلك بطلت بيوت الأموال. ونتيجة لما تمتع به أمير الأمراء من امتيازات تنازع الأمراء على هذا المنصب واستعان بعضهم ببعض، فقد استعان أبو عبدالله البريدى بعلى ابن بويه الذى أصبح صاحب النفوذ فى فارس، واستعان ابن رائق بالحمدانيين ضد البريدى ولكنه عجز عن إخراجه من بغداد التى استولى عليها عقب وفاة بجكم سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م. وقد أدى هذا الصراع على إمرة الأمراء إلى دخول معز الدولة بن بويه مدينة بغداد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م.

السلطان :

ظهر لقب السلطان قبل ظهور لقب أمير الأمراء، فقد لقب الخليفة هرون الرشيد وزيره وجليسه جعفر بن يحيى البرمكى بلقب السلطان إشارة إلى منزلة هذا الوزير عنده. كما لقب الخليفة الواثق بالله قائده اشناس بهذا اللقب ووضع على رأسه تاجاً مرصعاً ومنحه قلادة وسوارين.

وقد بقى لقب ومنصب السلطان مهملاً حتى قامت دولة بنى بويه[٥١]، فمنحهم الخلفاء العباسيون هذا اللقب وخصوا به القواد الفاتحين فى الدولة الإسلامية من أمثال محمود الغزنوى، وألب أرسلان وملكشاه، وصلاح الدين الأيوبى وغيرهم. وقد توارث أبناء هؤلاء السلاطين هذا اللقب ولكن بعد موافقة من الخليفة.

والجدير بالذكر أن لقب السلطان أصبح يطلق على الخلفاء أنفسهم فى العصر العباسى الثانى، وذلك لضعف هؤلاء الخلفاء ومشاركة السلاطين لهم فى كل شئ.

وفى عصر المماليك فى مصر والشام سمى الأمير (سلطانا) فقيل السلطان أحمد بن قلاوون، والسلطان الظاهر بيبرس.. وغيرهما، لأنهم لم يتجاسروا على اتخاذ لقب (خليفة) لأنه منصب دينى جليل، ولقب محاط بالتبجيل والتقدير. وكذلك تلقب رؤساء الدولة العثمانية وخلفاؤها بلقب السلطان مثل : السلطان عبدالمجيد، والسلطان عبدالحميد، والسلطان سليمان القانونى. كما اتخذ حكام بلاد المغرب الأقصى (مراكش) هذا اللقب لهم فكان يقال : سلطان مراكش.

الملك :

أوجد الخلفاء العباسيون كذلك لقباً جديداً هو (الملك) ومنحوه إلى بعض السلاطين فى بعض الأحيان، كما منحوه إلى غيرهم من الأمراء والقواد فى أحيان أخرى. ولكنهم كانوا يضيفون إلى هذا اللقب (الملك) أبرز صفات الشخص الممنوح له اللقب مثل : الملك العادل نور الدين محمود زنكى.

حواشى الفصل الرابع

(١) سورة القيامة/ ٧٥.
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية، ص٢٣.
(٣) المقدمة : ص١٩٧.
(٤) سورة طه/ ٢٩-٣٠.
(٥) سورة الفرقان/ ٢٥.
(٦) أحمد الشامى: الخلفاء الراشدون، ص١٨.
(٧) أحمد الشامى: الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ص٣٧.
(٨) الفخرى فى الآداب السلطانية، ص١٣١، ط. المعارف ١٩٣٨.
(٩) الطبرى: ج٧ ص٤٢٣-٤٢٤.
(١٠) الطبرى: نفسه، ص٤٥٨.
(١١) الماوردى : الأحكام السلطانية، ص٢٥.
(١٢) الفراء : الأحكام، ص٣١.
(١٣) الماوردى : الأحكام، ص٢٦ وما بعدها.
(١٤) راجع مادة برمك فى دائرة المعارف الإسلامية.
(١٥) الطبرى : ج٨ ص٢٣٣، ٢٥٦.
(١٦) أحمد الشامى : الدولة الإسلامية، ص١٢١.
(١٧) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ج٢ ص...
(١٨) راجع صفاته فى كتابنا : الدولة الإسلامية، ص٦١ وما بعدها.
(١٩) أحمد الشامى : المرجع السابق، فيه تفصيلات عن ذلك، ص١١٣ وما بعدها.
(٢٠) ابن الفرات : هو أبو الحسن على ترجمته عند ابن طباطبا : الفخرى، ص٢٣٣ وما بعدها.
(٢١) مسكويه : كتاب تجارب الأمم، ج١ ص٣٣٠ وما بعدها (مفصلا)، وابن طباطبا: الفخرى فى الآداب، ص٢٤١.
(٢٢) ابن الأثير : الكامل، ج٨، ص٣٢٧.
(٢٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (بويه).
(٢٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢ ص٣٤٦.
(٢٥) أحمد الشامى : صلاح الدين والصليبيون، ص٢٦-٢٧ .
(٢٦) كان هذا السلوك متبعاً فى مصر فى عهد الملكية نتيجة وجود صراع قوى بين حزبى الوفد (حزب الأغلبية) والسعديين (حزب الأقلية المعارضة) فإذا ما تولى حزب الوفد الوزارة خلع أتباع الحزب السعدى من الوزارات والمصالح الحكومية ومن بعض الشركات، وكان الحال بالمثل عندما يتولى حزب السعديين الوزارة (المؤلف).
(٢٧) السيوطى : حسن المحاضرة، ج٣ ص١١٦.
(٢٨) المقريزى : إتعاظ الحنفا، ص٧٠.
(٢٩) كانت أمه جارية رومية تسمى حنزابه فنسب إليها - ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج٤ ص٥٧.
(٣٠) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب، ص١١.
(٣١) ابن منجب الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة، ص٢١ وما بعدها.
(٣٢) ابن منجب الصيرفى : الإشارة، ص٢٧ وما بعدها.

(٣٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام، ج٣ ص٢٦٢.

(٣٤) الخطط، ج١ ص٤٣٨ وما بعدها.

(٣٥) ابن منجب الصيرفي : الإشارة، أورد أعمال الأفضل بن بدر الجمالي كلها.

(٣٦) أحمد الشامي: صلاح الدين والصليبيون، ص٧٤.

(٣٧) المقريزي : الخطط، ج١ ص٤٣٨، فتحية النبراوي : تاريخ النظم، ص٧٥.

(٣٨) هو درغام بن سوار وكان يلقب بالمنصور. ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص١٣٧.

(٣٩) هو شاور بن مجير السعدي يلقب أبو شجاع. ابن واصل : نفس المصدر والصفحة.

(٤٠) راجع تفاصيل هذه الحملات. أحمد الشامي : صلاح الدين، ص٦٠ وما بعدها.

(٤١) ابن الأثير : الباهر، ص١٤٠، وأبو شامة: الروضتين، ج١ ص١٥٩.

(٤٢) هو عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم صاحب المؤلفات التاريخية.

(٤٣) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤ ص١٦ وما بعدها.

(٤٤) المقري: نفح الطيب، ج١ ص١٠٢.

(٤٥) ابن خلدون : المقدمة، ص٢٠٨.

(٤٦) ابن خلدون : المرجع نفسه، ص٦٠٨.

(٤٧) سورة الأنبياء/ ٩٢.

(٤٨) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٢٧ وما بعدها.

(٤٩) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٥٣.

(٥٠) تجارب الأمم، ج٢ ص٧٢.

(٥١) راجع كيف قامت هذه الدولة وكيف انتهت عند ابن طباطبا : الفخري، ص٢٤٤-٢٤٦.

الفصل الخامس

النظام الإدارى

عندما انتشر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية، ودخلت مدن بأكملها، وقبائل بألويتها فى الإسلام، أخذ النبى (ﷺ) فى تأسيس النظام الإدارى للدولة الإسلامية ويمكن لنا تقنين هذا النظام من المصادر التاريخية والفقهية وغيرها مما أشارت إلى جوانب من هذه النظم فى ثنايا الأحداث التى أوردتها أو من دراسة قضايا قد عالجتها. فكان الرسول (ﷺ) يستعين بآراء كبار رجال الصحابة من أمثال أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وأبى بن كعب وزيد بن ثابت (رضوان الله عليهم) وكان هؤلاء بمثابة مجلس للشورى. كما كان له كتاباً (سكرتارية) يكتبون له المراسلات التى يبعث بها إلى الملوك وحكام الأقاليم المجاورة للدولة الإسلامية فى جزيرة العرب، وقد خص كل كاتب من هؤلاء بناحية محددة فى المراسلات فعبدالله بن الأرقم لمكاتبة الملوك والرد على رسائلهم، وعلى بن أبى طالب لكتابة العهود والمواثيق، وحذيفة بن اليمان أمين الأسرار (سكرتير خاص)، والحارث بن عوف المرى حامل خاتم النبى (ﷺ) أى الموثق الذى يختم المكاتبات والمراسلات بخاتم النبى حتى تكون لها الصبغة الرسمية، وتذكر بعض المصادر أن الربيع بن صيفى ابن أخى أكثم كان قائماً بذلك العمل أيضاً.

واتخذ الرسول (ﷺ) زيد بن ثابت ترجماناً للمكاتبات المدونة باللغة الفارسية أو القبطية أو الرومية (اليونانية)، ويقال إنه كان يترجم كذلك من اللغة العبرية والحبشية. كذلك استعمل الرسول (ﷺ) عمالاً (ولاة) على المدن الكبيرة داخل جزيرة العرب، فاستعمل عتاب ابن أسيد على مكة، وعثمان بن أبى العاص على الطائف، ومعاذ بن جبل على اليمن، وزياد ابن لبيد على حضرموت، وعبدالله بن ثور على جرش.

وكانت مهمة (وظيفة) هؤلاء العمال (الولاة) الإمامة فى الصلاة، وجمع الصدقات إذ لم يكن هناك خراج، وكان النبى (ﷺ) يختار هؤلاء العمال ممن تتوفر فيهم الناحية الدينية، وممن يحسنون العمل. ومع ذلك كان يدقق فى محاسبتهم ويطلع على دخولهم ونفقاتهم، ويتقصى أخبارهم ليطمئن على أنهم قائمون بعملهم على خير وجه، وموفون بعهودهم التى قطعوها

على أنفسهم بينهم وبين ربهم.

وفى عصر الخلفاء الراشدين : وعندما تولى أبو بكر الصديق الخلافة أقر عمال النبى (ﷺ) على أعمالهم، لأن الدولة الإسلامية كانت لاتزال فى دور المهد ولا تتحمل أى تغييرات، باستثناء عدد قليل آثر ألا يعمل لغير رسول الله ﷺ. ثم إن أبا بكر الصديق كان يتتبع كل خطوات الرسول فى كل شئ، ويقتدى بها، ويسير على منوالها إن لم يكن يطبقها كما هى.

وقد اتخذ أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وزيرين يساعدانه فى أمور الخلافة بالرأى والمشورة، كما اتخذ أبا عبيدة بن الجراح أميناً على بيت المال.

وكان عدد الولايات فى الجزيرة العربية اثنتى عشرة ولاية نذكر منها مكة والمدينة والطائف ونجران وحضرموت وصنعاء (اليمن) والبحرين.

وفى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اتسعت رقعة الدولة الإسلامية نتيجة للفتوحات فى عهده، فاهتم عمر بالنظم الإدارية وعنى بها عناية خاصة، وأرسى تقاليد هذه النظم حتى رسخت واستقرت، ففى سنة ١٥هـ/٦٣٦م فرض عمر (رضى الله عنه) للمسلمين الفروض، ودون الدواوين، وأعطى الأعطيات على السابقة[١] (أسبقية الدخول فى الإسلام).

كذلك فصل السلطة التنفيذية عن السلطة التشريعية، وأكد استقلال القضاء، ووضع أساس بيت المال، وكان يعس ليلا لمراقبة المدينة وطرقاتها، وكان يراقب أسواقها مستناً فى ذلك بسنة الرسول الأعظم (ﷺ).

ومع أن الفاروق عمر (رضى الله عنه) كان دقيقاً فى اختيار عماله على الأمصار (الولاة) إلا أنه كان يرسل من يتحرى أعمالهم، ويستمع إلى أهالى بلدانهم، ويسجل عليهم كل ذلك ويقدمه لأمير المؤمنين بصدق، فإذا وجد عمر (رضى الله عنه) تقصيراً من جانب الوالى استدعاه وحقق معه حتى يقف على الحقيقة كاملة، فإن تحقق من أمره كان يقتص منه أو يعزله. لأنه كان يشيع الولاة ويوصيهم عندما يستعملهم على مصر من الأمصار فيقول لهم : «إنى لم أستعملكم على أشعار الناس وعلى أبشارهم، إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة، وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بالعدل، وإنى لم أسلطكم على أبشارهم ولا أشعارهم، ولا تجلدوا العرب فتذلوها، ولا تجمروها فتفتنوها، ولا تغفلوا عنها فتحرموها، جردوا القرآن، وأقلوا عن رواية محمد (ﷺ) وأنا شريككم»[٢].

وكان رضى الله عنه إذا استعمل عاملاً كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار، واشترط عليه ألا يركب برذونا، ولا يأكل نقياً (أطايب الطعام) ولا يلبس رقيقا (حريرا) ولا يتخذ باباً دون حاجات الناس»(٣).

ومن أهم أعماله الإدارية أنه قسم الدولة الإسلامية فى عهده إلى أقسام إدارية كبرى هى :

١ - ولاية الأهواز والبحرين.

٢ - وجعل العراق قسمين : ولاية الكوفة، وولاية البصرة.

٣ - وجعل الشام قسمين : ولاية دمشق، وولاية حمص

٤ - وجعل فلسطين ولاية قائمة بذاتها.

٥ - كما ضم سجستان ومكران وكرمان فى ولاية واحدة.

٦ - وجعل طبرستان ولاية.

٧ - وجعل خراسان ولاية.

٨ - ثم قسم أفريقية إلى ثلاثة أقسام هى : مصر العليا، ومصر السفلى، وغرب مصر وصحراء ليبيا.

وكانت سياسته (رضى الله عنه) ذات شقين : يهدف الشق الأول منها إلى توطيد العلاقة بين عاصمة الدولة الإسلامية (المدينة المنورة) وبين الولاة فى هذه الأقاليم.

ويهدف الشق الثانى إلى تماسك البلاد الإسلامية وإدماج بعضها فى بعض لتكوين الأمة الواحدة تحقيقاً لما جاء فى القرآن الكريم (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)(٤). ومع ذلك كان يرى عدم اختلاط العرب الفاتحين بأهالى البلاد التى فتحوها حتى يحتفظوا بعروبتهم، وحتى لا يتركوا الجهاد، ويظلوا مرتبطين بالجندية والفروسية ولا ينغمسوا فى أعمال تجذبهم إلى الرفاهية والدعة فتضعف الدولة بسبب ذلك.

بلغ من شدة حرصه على كرامة الرعية وحفاظه على حقوقها أمام الولاة وشعوره بالمسئولية أمام الله عز وجل أنه خطب الناس يوم جمعة فقال : «اللهم إنى أشهدك على أمراء الأمصار إنى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم، وأن يقتسموا فيهم فيئهم، وأن يعدلوا، فإن أشكل عليهم شئ رفعوه إلى»(٥).

وفى عهد عثمان بن عفان ظلت أمور الدولة وتقسيماتها كما قننها عمر بن الخطاب فى صورتها الإجمالية، لأن ما حدث من تطور إدارى كان محدوداً جداً ولم يذكر، وكان قاصراً على تحول نظام العسس إلى نظام الشرطة، وربما كان مرجع ذلك إلى تقدم عثمان بن عفان (رضى الله عنه) فى السن فآثر عدم التغيير أو التعديل فى نظم الإدارة، وربما شغلته الإنتفاضات والإضطرابات التى حدثت فى بلاد فارس وفى بعض الولايات البعيدة عن مركز الدولة وعاصمتها فى المدينة المنورة، ومع ذلك فقد تمكن عثمان (رضى الله عنه) من إخماد هذه الفتن والاضطرابات وقضى على هذه الانتفاضات وأعاد هذه الأقاليم وهذه الولايات إلى حظيرة الدولة الإسلامية فى الفترة الأولى من خلافته، ولكن بمرور الزمن أحاط الضعف بحكمه، وعادت بعض الفتن والاضطرابات إلى الظهور، وتذمر بعض المسلمين هنا وهناك وشقوا عصا الطاعة عليه، مما أدى إلى مقتله (رضى الله عنه) وما عرف فى التاريخ الإسلامى بالفتنة الكبرى.

وفى عهد على بن أبى طالب سارت أمور الدولة كما كانت فى عهد سابقيه، إلا أنه نقل مركز الخلافة (عاصمة الدولة الإسلامية) إلى الكوفة التى ظل بها ولم يرجع منها إلى المدينة المنورة حتى استشهد.

ومن الجدير بالذكر أن علياً (كرم الله وجهه) كان شديداً فى الحق، وكان عادلاً فى الرعية، ومما يذكر عنه أنه كان يقسم ما فى بيت المال لا يترك فيه شيئاً، اقتداء بالرسول (ﷺ)، فبعد بيعة أهل البصرة له، نظر فى بيت المال فيها، فوجد به ستمائة ألف درهم وزيادة، فقسمها كلها على من شهد معه الوقعة.

استعمل عبدالله بن عباس على ولاية البصرة، وأسند القضاء بها إلى أبى الأسود الدؤلى، وجعل عبيد الله بن عباس على ولاية البحرين، وجعل قثم بن العباس على ولاية مكة والطائف، وجعل على ولاية المدينة المنورة أبا أيوب الأنصارى ويقال سهل بن حنف(٦).

فى عصر الأمويين : اهتم الأمويون اهتماماً كبيراً بالنظم السياسية والإدارية فى الدولة الإسلامية، وشهدت هذه النظم تطورات كثيرة، نتيجة طبيعية لإتساع حدود الدولة التى بلغت أقصى إتساع لها زمن الخلفاء الأمويين، وكان لهذا التوسع ودخول أقاليم واسعة وبلدان كثيرة فى حوزة الدولة العربية الإسلامية أثر واضح فى الحضارة الإسلامية التى أثرت بدورها فى الحضارات الأخرى.

وقد اتبع خلفاء بنى أمية سياسة الراشدين فى اختيار الولاة من العرب، وبلغ اهتمامهم باختيار الولاة أن أسندت الولاية إلى بعض أفراد البيت الأموى نفسه. كما تم تقسيم الدولة إلى خمس ولايات كبرى حتى يسهل إدارتها جميعاً وتكون مرتبطة بعاصمة الخلافة فى دمشق، هذه الولايات هى :

١ - الحجاز ونجد واليمن.

٢ - مصر بقسميها (العليا والسفلى).

٣ - العراق العربى، والعراق العجمى الذى كان يشمل كل بلدان شرق العراق، وحاضرته الكوفة، وكان والى هذا الإقليم يعين والياً من قبله على خراسان وحاضرتها مرو. ومعنى هذا أن العراق نال إهتماماً كبيراً من الخلفاء الأمويين لأنه كان مركز الخلافة فى عهد على بن أبى طالب، وممن تولوا ولاية العراق الحجاج بن يوسف الثقفى وزياد بن أبيه (أخو معاوية).

٤ - بلاد الجزيرة ويتبعها أرمينية وأذربيجان وبعض مناطق فى آسيا الصغرى. (كانت الشام ضمن هذا الإقليم).

٥ - شمال أفريقية، وتضم البلدان الواقعة غربى مصر حتى بلاد الأندلس، ويدخل فيها جزر البحر المتوسط (صقلية، وسردينية، والبليار) وكانت مدينة القيروان (تونس) حاضرة هذا الإقليم.

وفى زمن العباسيين : لم تختلف النظم الإدارية كثيراً عما كانت عليه زمن الأمويين. فقد جزئت بعض الولايات الكبيرة، فبينما كانت ولاية العراقيين قسماً واحداً فى عصر بنى أمية، نجد أنها جزئت إلى خراسان، وما وراء النهر، والسند، والبنجاب، والأهواز، وجنوب فارس... إلخ.

وعندما تولى الخلافة هرون الرشيد قام بتعديل فى هذه التقسيمات، وفصل تخوم الشام وقيليقيا عن إمارة الجزيرة وقنسرين وجعلها إمارة واحدة وأطلق عليها اسم العواصم، وكانت حاضرتها طرسوس.

ومن المعلوم أن نظام الحكم فى العصر العباسى الأول كان مركزياً لغلبة نفوذ وسلطان الخلفاء، ولذلك كان نفوذ عمال الولايات ضعيفاً، فهم بمثابة موظفين كبار ينفذون تعليمات

وأوامر الخلفاء التى تصدر إليهم عن طريق الوزراء. وإلى جانب هؤلاء العمال (الولاة) وجد موظفون آخرون مثل صاحب بيت المال، وصاحب البريد... إلخ.

كتب عامل الخليفة المنصور على أرمينية إليه يخبره بأن الجند شغبوا عليه ونهبوا ما فى بيت المال. فكتب إليه أبو جعفر المنصور يقول : «اعتزل عملنا ملموماً مدحوراً، فلو عقلت لم يشغبوا، ولو قويت لم ينهبوا». وهذا دليل على أن العامل (الوالى) لم يكن له نفوذ كبير فى الولاية التى يتولاها، كما يدل على حرص الخلفاء العباسيين على اختيار ولاة يصلحون لإدارة أقاليمهم وولاياتهم.

أما فى العصر العباسى الثانى فقد دب الضعف فى أوصال الدولة، وضعف الخلفاء، واستبد الولاة وابتكروا الأساليب لجمع المال والتفنن فى صرفه وعاش هؤلاء الولاة فى إماراتهم وولاياتهم وكأنهم ملوك مستقلون، لا يربطهم بالخليفة سوى ذكر اسمه فى خطبة الجمعه، ونقش اسمه على السكة وقليل من المال أو الهدايا ترسل إليه فى كل عام. ونتيجة لهذا الضعف استقل أحمد بن طولون بولايته مصر، واستقل الأغالبة فى أفريقية، واستقل ابن طاهر فى خراسان.

رواتب الوزراء والولاة

بلغ راتب الوزير خمسة آلاف دينار فى السنة، وخصص لكل واحد من أبنائه وإخوته ما بين مائتى إلى ثلاثمائة دينار، ولكل فرد من الحاشية ما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة دينار، هذا عدا الإقطاعات والهدايا والخلع.

ونتيجة للتطور فى حياة الدولة الإسلامية وصلت رواتب بعض الوزراء فى العصر العباسى وفى عصر الفاطميين إلى مائة ألف دينار فى السنة مثل راتب يعقوب بن كلس وزير الخليفة الفاطمى العزيز بالله (٥٣٠-٥٥٥هـ) وراتب يحيى بن هبيرة وزير الخليفة العباسى المتقى.

أما رواتب الولاة فقد عرفت منذ عصر الرسول (ﷺ) فقد خصص ديناراً واحداً فى كل يوم لعتاب بن أسيد حينما استعمله على مكة، فكان هذا أول ما وضع من الرواتب للولاة.

وفى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نجد أنه بعد أن دون الدواوين وعين أرزاق

الجند، وضع رواتب العمال (الولاة) فجعل لعمار بن ياسر ستمائة درهم فى السنة، وخصص له نصف شاة ونصف جريب كل يوم، كما عين رواتب بقية العمال والموظفين. وعندما بعث أمير المؤمنين عمر إلى الشام معاوية بن أبى سفيان والياً عليها، جعل له ألف درهم فى السنة. وكان عمر يشدد فى محاسبة عماله، فإذا وجد أحدهم تاجر أو تربح من شئ قاسمه وصادر نصف أمواله وأودعها بيت المال.

أما معاوية بن أبى سفيان فقد منح الولاة كثيراً من الامتيازات والأموال ووسع لهم فى الأرزاق، وقد اتبع العباسيون مثل ذلك. فقد جعل الخليفة المأمون ثلاثة ملايين درهم فى السنة للوزير الفضل بن سهل عندما ولاه المشرق. وفى مستهل القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى انتشر فى الدولة العباسية منح الإقطاعات بدلاً من الرواتب، ولما تسلط بنو بويه على السلطة فى العراق، صاروا يمنحون الوزراء إقطاعات تقوم مقام الرواتب، وقد بلغ إيراد الإقطاع للوزير خمسون ألف دينار سنوياً، وكان هذا الإقطاع يسترد من الوزير فى حالة عزله ويعطى لمن يخلفه فى الوزارة. ولما استولى بنو بويه على أملاك الخلافة، منحوا الخلفاء كذلك إقطاعات خاصة بهم، فقد خصص معز الدولة بن بويه للخليفة المطيع لله إقطاعاً بلغ إيراده السنوى مائتى ألف دينار، وبذلك انخفض دخل الخليفة عما كان عليه من قبل(٧)، وعومل معاملة الوزراء والولاة.

الدواوين

أول من أنشأ الدواوين فى الدولة الإسلامية هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب(٨) (رضى الله عنه) ويرجع ذلك إلى إتساع الدولة الإسلامية نتيجة للفتوحات، واتصال المسلمين بالفرس والروم ومعرفة نظمهم الإدارية والحضارية، التى أبقى عليها أمير المؤمنين عمر فى البلاد التى فتحها المسلمون حتى لا يسبب أية اضطرابات فى شئونها الداخلية، لأن العرب الفاتحين لم يكن لهم نظم إدارية أو مالية خاصة بهم حتى يمكنهم تغيير نظم البلاد التى فتحوها.

وتجدر الإشارة إلى أن النظم الإدارية (البيزنطية) فى مصر والشام كان لها أثر كبير فى نشأة الدواوين، فقد رجع الفاتحون إلى عاصمة الدولة الإسلامية (المدينة) يحملون معهم ما شاهدوه وما وقفوا عليه من أخبار البلاد المفتوحة، ومن ضمنها أخبار النظم الإدارية وأعمال الدواوين.

والماوردى[٩] يعرف الديوان بقوله : «والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطان من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال».

ويختلف اللغويون فى أصل كلمة (ديوان) فالأصمعى ومعه آخرون يرون أن الكلمة فارسية معربة ومعناها «سجل أو دفتر» وأطلقت على مكان حفظ السجلات الرسمية. بينما يرى سيبويه ومعه آخرون أن الكلمة عربية ومعناها «الأصل الذى يرجع إليه» ومنه قول ابن عباس : إذا سألتمونى عن شئ من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب[١٠]. ويقال إن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال : «ديوانه» أى مجانين، فسمى موضعهم بهذا الإسم، ثم حذفت الهاء من الكلمة تخفيفاً للنطق وقيل «ديوان»[١١].

ويختلف المؤرخون فى سبب وضع الديوان، كما يختلفون فى تاريخ نشأته أى فى السنة التى أنشئ فيها.

فرأى يقول إن أبا هريرة (رضى الله عنه) قدم على أمير المؤمنين عمر (رضى الله عنه) بمال من البحرين، فقال عمر له : ماذا جئت به؟ قال : خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر، وقال له : أتدرى ما تقول؟ قال : نعم، مائة ألف خمس مرات، فقال عمر : أطيب هو؟ قال : لا أعلم إلا ذاك. فصعد عمر (رضى الله عنه) المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا. فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدونون ديواناً لهم، فدون أنت لنا ديوانا.

ورأى آخر يقول : إن عمر (رضى الله عنه) بعث بعثاً، وكان عنده الهرمزان، فقال لعمر : هذا بعث (جيش) قد أعطيت أهلهم الأموال، فإن تخلف منهم رجل وأخل بمكانه، فمن أين يعلم صاحبك (قائدك) به؟ فأثبت لهم ديواناً، فسأله عمر عن الديوان ففسره له. ورأى ثالث يقول : إن السبب مال أتى به أبو هريرة (رضى الله عنه) من البحرين، فاستكثره أمير المؤمنين والمسلمون، وتعبوا فى قسمه، فلجأوا إلى إحصاء الأموال، وضبط العطاء والحقوق، فأشار خالد بن الوليد بالديوان، وقال : رأيت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر، وقيل إن الذى أشار بذلك هو هشام بن الوليد بن المغيرة[١٢] وأمر بوضع ديوان العطاء، (ديوان الجند).

أما الاختلاف فى تاريخ نشأة الديوان فمؤرخنا الطبرى[١٣] يقول إنه العام الخامس عشر

للهجرة، بينما الماوردى[١٤] يحدد هذا التاريخ بعام عشرين للهجرة، ومع ذلك فالاتفاق بين الجميع على أن نشأة الديوان كانت فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه). ولعل الرواية التى تذكر مشورة خالد بن الوليد هى أوضح الروايات فى سبب تدوين الدواوين، ويستند أصحاب هذا الرأى إلى ما ذكره ابن تيمية[١٥] إذ يقول: «ولم يكن للأموال المقبوضة والمقسومة ديوان جامع على عهد رسول الله (ﷺ) وأبى بكر الصديق (رضى الله عنه) بل كان يقسم المال شيئاً فشيئاً، فلما كان زمن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كثر المال، واتسعت البلاد، وكثر الناس، فجعل ديوان العطاء للمقاتلة وغيرهم».

وقد دعا أمير المؤمنين عمر (رضى الله عنه) عقيل بن أبى طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وكانوا من شباب قريش وكتابها، وأمرهم أن يكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوهم على ترتيب الأنساب ابتداء من قرابة رسول الله (ﷺ) وما بعدها الأقرب فالأقرب، ثم روعى التفضيل عند انقراض أهل السابقة فى الإسلام التقدم فى الشجاعة والبلاء والجهاد[١٦]. ومن ثم كان أهل بدر فى مقدمة قائمة العطاء، ويليهم من شهد المواقع إلى الحديبية، ثم من الحديبية إلى القضاء على حركة الردة. كما روعى فى العطاء القرب والبعد من أرض العدو، وفضل من قربت داره عمن بعدت داره من العدو.

وقد شمل العطاء جميع المسلمين من رجال ونساء وأطفال، وبذلك سبق عمر حكومات العالم جميعها فى وضع أسس التكافل والضمان الاجتماعى، وأول من حدد مسئولية الدولة عن توفير الطعام والكسوة لأفراد الشعب. وربما كان مرد ذلك إلى وفرة موارد الدولة الإسلامية من أموال الزكاة والخراج إلى جانب أموال الجزية والصدقات.. إلخ ولو أن كل أغنياء المسلمين وأصحاب رؤوس الأموال، وملاك الأراضى الزراعية وأصحاب العقارات والتجار وغيرهم حافظوا على تطبيق شرع الله وأخرجوا ما هو مفروض فى أموالهم من الزكاة وهى حقوق معلومة للفقراء والمساكين (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) فمن المؤكد لاختفت كثير من صور الفقر والبؤس والمرض والجهل التى نراها فى كثير من المجتمعات الإسلامية ولتغيرت الأحوال إلى الأحسن والأفضل بإذن الله.

وتجدر الإشارة إلى أن أبا بكر الصديق (رضى الله عنه) قد سوى بين الناس فى العطاء، ورفض التفضيل بينهم، فعندما قدم عليه مال، قال: من كان له عند النبى (ﷺ) عِدَة

(وعدا) فليأت، فأعطى كل إنسان ما كان رسول الله (ﷺ) قد وعده بشئ، وبقى من المال بقية فقسمها بين الناس بالسوية على الصغير والكبير والحر والمملوك والذكر والأنثى، فخرج على سبعة دراهم وثلث لكل إنسان. وفى العام التالى جاء مال كثير فقسمه بين الناس فأصاب كل إنسان عشرين درهماً، فجاء بعض الناس فقالوا : يا خليفة رسول الله : إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس، ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق - فى الإسلام - وقدم، فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم. فرد أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) قائلا : أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفنى بذلك، وإنما ذلك شئ ثوابه على الله جل ثناؤه، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة[١٧].

وهذا دليل من أدلة كثيرة تؤكد أن أبا بكر الصديق (رضى الله عنه) كان يطبق سياسة الرسول (ﷺ) بكل حذافيرها، ويمشى على هداه فى كل خطوة من خطوات حياته، وأبى أن يغير ما فعله رسول الله (ﷺ) من تقسيم العطاء بالمساواة للمسلمين، وترك أمر الاجتهاد فى زيادة العطاء وتقسيمه وتفضيل أهل السابقة فى الإسلام إلى من يأتى بعده من الخلفاء.

وتجدر الإشارة إلى أن أمير المؤمنين عمر (رضى الله عنه) فكر فى توحيد العطاء بين المسلمين عملاً بما اتبعه الصديق أبو بكر (رضى الله عنه) فيجعله فى أربعة آلاف درهم فى العام، ألفا يجعلها الرجل فى أهله، وألفاً يتزود بها، وألفاً يتجهز بها، وألفاً يترفق بها، ولكنه توفى ولم يفعل.

ويختلف المؤرخون فى تحديد قيمة العطاء الذى قدر لكل مجموعة من المجموعات التى تم ترتيبها حسب الأسبقية والأفضلية التى أشرنا إليها، فالطبرى[١٨] جعل عطاء أهل السابقة فى الإسلام، وأهل الجهاد، وعلى رأسهم العباس بن عبدالمطلب ٢٥,٠٠٠ درهم من الذهب فى السنة، بينما أبو يوسف[١٩] جعلها ١٢,٠٠٠ درهم، أما الماوردى[٢٠] فجعل هذا العطاء ٧٠٠٠ درهم، ولكن بقية المصادر تتفق على أن هذا العطاء كان ٥٠٠٠ درهم فقط.

كما تتفق المصادر على قيمة عطاء السيدة عائشة أم المؤمنين (رضى الله عنه بـ ١٢,٠٠٠ درهم، بينما كان عطاء بقية أمهات المؤمنين (رضى الله عنهن) ١٠,٠٠٠ درهم[٢١].

أما أهل بدر بما فيهم كبار رجال الصحابة مثل عمر، وعثمان، وعلى فكان عطاء كل

منهم ٥٠٠٠ درهم، وكان عطاء الأنصار ٤٠٠٠ درهم[٢٢]، تصل إلى ٧٠٠٠ درهم أو ٨٠٠٠ درهم لأمراء الجند[٢٣]. وكان عطاء الطفل (الرضيع) ٢٠٠ درهم. وعطاء المرأة يتراوح ما بين ٣٠٠ إلى ٨٠٠ درهم حسب أوضاعهن من الأسبقية فى الإسلام والهجرة و... و... إلخ ولكن سوى هذا العطاء بعد ذلك لجميع النساء.

الدواوين فى عصر الأمويين :

تعددت الدواوين وتنوعت فى عصر الدولة الأموية، وزاد عددها عما كانت عليه فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فصارت خمسة دواوين رئيسية بالإضافة إلى عدد قليل من الدواوين الأخرى أقل أهمية من الأولى. والدواوين الرئيسية هى :

١ - ديوان الجند. ٢ - ديوان الخراج. ٣ - ديوان الرسائل.
٤ - ديوان الخاتم. ٥ - ديوان البريد.

ومن الدواوين الأخرى التى استحدثت فى عهد معاوية ديوان الصدقات وديوان الطراز.

١ - ديوان الجند :

ظل هذا الديوان فى أول عهد الدولة الأموية على الصورة التى أوجده عليها عمر بن الخطاب (رضى الله عنه). ويعتبر أكبر الدواوين فى الدولة الإسلامية لارتباطه بتسجيل أسماء الجنود، وإحصائهم وترتيب شئونهم، وتوفير العطاء لهم، سواء كانوا من العرب أو العجم[٢٤]، وكانت نشأة هذا الديوان عربياً وسوف يتطور مع تطور النظم الإسلامية.

ففى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبدالملك أبطلت الأعطيات للذين لا يقومون بالأعمال الحربية حتى ولو كانوا من البيت الأموى. وبهذا التعديل لم تعد أموال هذا الديوان حقاً مكتسباً لجميع العرب، ولكنها اقتصرت على من يقومون فعلا بالأعمال الحربية.

وقد روعى فيمن يسجل اسمه بهذا الديوان عدة شروط نوجزها فيما يلى :

١ - أن يكون بالغاً سن الرشد. ٢ - أن يكون حراً ليس عبداً.
٣ - أن يكون مسلماً. ٤ - أن يكون سليماً معافاً من الإعاقات.
٥ - أن يكون شجاعاً مقداماً على الحرب عارفاً بفنونها وطرقها.

وكان على ولى الأمر أن يراعى النسب ومدى القرابة من رسول الله (ﷺ) ومدى

الأسبقية والدخول فى الإسلام.. إلخ.

وكان تقدير العطاء مرتبط بالكفاية، وهى معتبرة على ثلاثة أسس :

١ - عدد من يعول من الذرارى والعبيد.　　٢ - عدد ما يرتبط به من الخيل والظهر.

٣ - موضع إقامته ومراعاة الغلاء أو رخص المعيشة.

وكان من الضرورى أن يكون الجندى متفرغاً تماماً للجندية والجهاد دفاعاً عن الإسلام وكان أمير المؤمنين عمر (رضى الله عنه) يتشدد على ضرورة الالتزام والتفرغ التام للجندية حتى لا يتشغل الجنود بأعمال أخرى تستدعى استقرارهم وارتباطهم بها وإهمال أمر الجهاد.

٢ - ديوان الخراج :

وكان القائمون على أمر هذا الديوان يهتمون بتنظيم المسائل المالية من حيث جمع الخراج والإنفاق من موارده المالية على شئون الدولة، وقد وضحت أهمية هذا الديوان فى الدولة الإسلامية حين تعددت مصادر الدخل، فكان فى كل ولاية ديوان أشبه بالإدارة المالية المحلية، بمعنى أنه فرع من الديوان الرئيسى، وكانت مهمة هذه الفروع جمع الخراج، والاحتفاظ بما يحتاج إليه الوالى من مصروفات تخص ولايته، ثم ترسل المبالغ المتبقية إلى الديوان الرئيسى فى العاصمة دمشق حيث ترصد فى السجلات. ويطلق على ديوان الخراج فى بعض المصادر اسم (ديوان الاستيفاء).

يقول الماوردى : أما ديوان الاستيفاء وجباية الأموال فجرى هذا الأمر فيه بعد ظهور الإسلام بالشام والعراق على ما كان عليه من قبل، فكان ديوان الشام بالرومية لأنه كان من ممالك الروم، وكان ديوان العراق بالفارسية لأنه كان من ممالك الفرس فلم يزل أمرها جارياً على ذلك إلى زمن عبدالملك بن مروان فنقل ديوان الشام إلى اللغة العربية. وكان كتاب الدواوين من أهل الذمة من الفريقين[٢٥].

والحقيقة أن الأمويين اهتموا بالنظم الإدارية إهتماماً كبيراً، واستخدموا رجالاً من العرب برعوا فى الإدارة، وأثبتوا كفاءة عالية، من هؤلاء نذكر زياد بن أبيه، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وغيرهم. وممن استعانوا بهم من أهل الذمة فى النواحى المالية على وجه الخصوص سرجون بن منصور ومن بعده ابنه[٢٦].

ومما رواه الطبرى على ألسنة بعض أصحاب الدواوين أو المقربين من أعمال الديوان قول بعضهم عن حالة الديوان فى عهد هشام بن عبدالملك الخليفة الأموى : «جمعت دواوين بنى مروان فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام».

وفى قول لآخر : «لم يكن أحد من بنى مروان أشد نظراً فى أمر أصحابى ودواوينه، ولا أشد مبالغة فى الفحص عنهم من هشام»(٢٧).

٣ - ديوان الرسائل :

كان يختص بكتابة الرسائل إلى الأمراء والعمال، والإشراف على ما يرد منهم من رسائل مختلفة، إلى جانب المكاتبات الأخرى لملوك الدول المجاورة. وكان يطلق على هذا الديوان كذلك ديوان الإنشاء، ويرى القلقشندى أنه أول ديوان أنشئ فى الدولة الإسلامية. ذلك لأن النبى (ﷺ) استخدم كتاباً يكتبون له الرسائل إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الدخول فى الإسلام، كما كان - ﷺ - يوجه بعض هذه الرسائل إلى أصحابه وقواد سراياه، إلى جانب المكاتبات التى تخص أمور الدولة الإسلامية من عهود ومعاهدات وإتفاقيات.. إلخ. ومن الجدير بالذكر أن الخليفة فى العصر الأموى كان يفوض أمر هذا الديوان إلى كاتب يختاره.

٤ - ديوان الخاتم :

والمقصود به خاتم الخلافة الذى تختم به الرسائل بعد طيها وإحكام غلقها إما بنوع من الصلصال أو الشمع حتى لا تعرف محتويات الرسائل وتصل مغلقة إلى الجهات المرسلة إليها.

ومعاوية بن أبى سفيان هو الذى أنشأ هذا الديوان، وعين له عبيد بن أوس النسائى وسلمه الخاتم، وكان نقشه (لكل عمل ثواب)، وبعض المصادر تذكر أن الذى كان على هذا الديوان هو عبدالله بن محصن الحميرى(٢٨).

ويرجع سبب إنشاء هذا الديوان أن معاوية كتب إلى زياد بن أبيه عامله على العراق أمرا بأن يصرف لعمرو بن الزبير مائة ألف درهم، ففتح عمرو الرسالة وجعل المبلغ مائتى ألف درهم. فلما رفع زياد بن أبيه حساباته إلى معاوية استنكر ذلك وقال : ما كتبت له إلا بمائة ألف درهم، وكتب إلى زياد بذلك وأمره أن يسترد المائة ألف منه، وأن يقبض عليه بتهمة التزوير. فدفع عبدالله بن الزبير المبلغ نيابة عن عمرو، ولذلك أحدث معاوية ديوان الخاتم وأمر بحزم الكتب

ولم تكن تحزم، ويختم الرسائل(٢٩) الصادرة والواردة، وأن يحتفظ ديوان الخاتم بنسخة من كل الرسائل المرسلة من الديوان، ومن إيصالات الحسابات وكذلك فعل الولاة فى أقاليمهم، وذلك للرجوع إلى هذه النسخ ومقارنتها عند الحاجة. وقد استقر هذا الأمر فى الدولة العباسية نظراً لما وقع فيه بعض الوزراء وأخذهم الرشوة والتلاعب فى السجلات والثراء غير المشروع.

ومن المعروف أن ختم الرسائل كان معروفاً من قبل، والدليل على ذلك أن رسول الله (ﷺ) حينما كتب رسالته إلى هرقل امبراطور الدولة الرومية ختمها بخاتم اتخذه من الفضة نقش فيه (محمد رسول الله) وكذلك ختمت جميع رسائله، وقد استعمل كل من أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان هذا الخاتم نفسه، ولكن الخاتم سقط من يد عثمان بن عفان فى بئر أريس ولم يعثر عليه، فصنع خاتماً آخر على غرار الخاتم الأصلى (كما أسلفنا).

ويرى بعض المستشرقين أن ديوان التوقيع حل محل ديوان الخاتم فى أول عصر العباسيين، ويرى البعض الآخر أن ديوان الخاتم بقى قائماً حتى عهد الخليفة العباسى الأمين (١٩٣-١٩٨هـ/ ٨٠٨-٨١٣م) ولكن المرجح أن ديوان الخاتم ظل موجوداً حتى عهد المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م) ثم حل ديوان التوقيع محله.

ومن مستحدثات الأمويين أنهم أنشأوا فى دمشق داراً خاصة للمحفوظات الرسمية. وقد أنشأ العباسيون مثلها فى بغداد بعد ذلك.

وكانت الرسائل تختم بخاتم الخليفة فى عصر العباسيين، وكان لكل خليفة علامة خاصة به (تعبير اتخذه شعاراً مثل : الله حسبى، الله كاف وهكذا) كما ختم السلاطين الرسائل كذلك، وكان المستخدم فى عملية الختم نوع من الطين الأحمر أو البنى المحمر يذاب فى الماء، ويغمس الخاتم فيه ثم يختم به على طرف الرسالة عند طيها(٣٠).

ديوان الطراز : ويختص بكتابة أسماء الخلفاء أو السلاطين أو الملوك (الأمراء) أو رسم علامات خاصة بهم فى طراز أثوابهم (أى فى أول جزء من الثوب) المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج. وقد نقله الأمويون عن أباطرة الدولة البيزنطية، ولكنهم أبدلوا صور الأباطرة بكتابة أسمائهم أو كتابة بعض الأمثال والحكم التى يتفاءلون بها أو بعض الدعاء المأثور. وقد ترجمت الطرز للعربية فى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، وبدئ بالقراطيس التى تصنع فى

مصر، وكان طرازها (بإسم الأب والابن والروح القدس) فلما وقف الخليفة عبدالملك على معناه عظم عليه الأمر وقال : «ما أغلظ هذا فى أمر الدين والإسلام» وكتب إلى أخيه عبدالعزيز والى مصر بأن يبطل هذا الطراز، وأن يستبدل تلك العبارة بقول (لا إله إلا الله) فعمل والى مصر بما أمره به أخوه، وظل هذا الطراز (شعار التوحيد) مستعملاً فى كل الدول الإسلامية. ثم كتب عبدالملك بن مروان إلى ولاة الأمصار بإبطال القراطيس المطرزة بطراز الروم وهدد بإنزال العقاب لمن يخالف ذلك.

كما أمر ببناء دور الطراز ملحقة بالقصور للقيام بصنع النسيج الذى يصنع منه ملابس الخلفاء والأمراء، وكان المشرف على هذه الدور يسمى (صاحب الطراز). وعندما حملت هذه القراطيس المطرزة بشعار التوحيد إلى الإمبراطور البيزنطى وعلم بما فيها كتب إلى الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان ليعاود النظر فى إلغاء ما أمر به، وقدم إليه بعض الهدايا الثمينة، ولكن عبدالملك لم يرد عليه ولم يلغ ما أمر به من أمر الطراز، فهدده الإمبراطور بذكر ما يكره هو والمسلمون ونقشه على الدنانير، فاستشار الخليفة عبدالملك الأمير خالد بن يزيد بن معاوية فأشار عليه بضرب الدنانير العربية وتحريم الدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية وإبطال استخدامها فى الدولة الإسلامية، وقد نتج عن ذلك قطع العلاقات الاقتصادية بين بيزنطة والدولة العربية، ولكن الأخيرة كسبت استقلال عملتها، وتدوين عبارات إسلامية على الطرز، كما كان ذلك سبباً فى تعريب الدواوين فى الدولة الإسلامية كلها.

وكانت الدواوين تكتب قبل تعريبها باللغة اليونانية، واللغة القبطية فى مصر، ثم أضيفت إليهما اللغة العربية ومكثت على ذلك مدة زمنية إلى أن انفردت كل الدواوين باللغة العربية وحدها(٣١).

كما كانت الدواوين فى العراق ودول المشرق الإسلامى تدون وثائقها باللغة اليونانية والفارسية ثم انفردت باللغة العربية.

وقد ازداد عدد هذه الدواوين فى عهد خلفاء بنى أمية مثل الديوان الذى أنشأه الخليفة عمر بن عبدالعزيز وكان يعنى بالمرضى والمقعدين وترتيب الخدمات لهم والإنفاق عليهم، كذلك أقام الخليفة هشام بن عبدالملك ديوان الصدقات، كما وجدت دواوين للرقيق وغير ذلك.

وفى العصر العباسى استحدثت بعض الدواوين مثل : ديوان العزيز، أى مجلس الخليفة،

وكان الوزير الأكبر (الأول) هو الذى يرأس هذا المجلس، وهو بمثابة رئيس الوزراء.

وديوان النفقات : وكان يختص بشئون بلاط الخليفة من حيث الرواتب، وتمويل أهل البلاط بالمواد الغذائية وما يحتاجونه من خيول وأدوات وأثاث وملابس.. وتكاليف إقامة الحفلات والمآدب.. إلخ بالإضافة إلى إصلاح القصور وتجديدها وصيانتها، وهذا الديوان يماثل الديوان الملكى أو الديوان الجمهورى حالياً.

ديوان الصوافى : ويختص بأملاك الدولة وأراضيها، ونظير هذا الديوان حالياً فى مصر مصلحة الأملاك الأميرية.

أما ديوان المظالم : فمن المعروف أن رسول الله ﷺ، ومن بعده الخلفاء الراشدون كانوا يستمعون إلى شكاوى الناس فى أى وقت من نهار أو ليل، وكانوا يحققون العدالة والنصفة لمن ظلم منهم. ولكن بعد المؤامرة الدنيئة التى قتل فيها على بن أبى طالب (رضى الله عنه) وجرح معاوية بن أبى سفيان احتجب الخلفاء عن الناس، وحددوا أوقاتاً معلومة للنظر فى المظالم.

وقد أنشئ فى العصر العباسى ديوان خاص لهذه المظالم كان بمثابة محكمة الدرجة الثانية (محكمة الاستئناف) للنظر فى الشكاوى التى سبق للقضاة أن حكموا فيها ولكن أحد أطرافها لا يزال متضرراً - لأن الحكم فى غير صالحه - وقد أسند العباسيون هذا الديوان إلى رجال يثقون فيهم وفى عدالتهم. كما جلس الخليفة المأمون بنفسه للنظر فى المظالم، وكان حريصاً على أن يأخذ العدل مجراه بين الناس. وقد لقب من يتولى الديوان (أى نوع من الدواوين) الرئيس أو الصدر، وكان يتميز غالباً بثقافة أدبية عالية. أما من يتولى ديوان المظالم فكان دائماً من الفقهاء (رجال الدين) لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

بعض المآخذ على أصحاب الدواوين :

من المؤسف حقاً أنه نظراً لوفرة الأموال عند بعض عمال الدواوين فى العصر العباسى (فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى) فقد استخدموا هذه الأموال فى الحصول على هذه المناصب. وكان العامل (صاحب الديوان) متى تقلد المنصب لجأ إلى استرداد ما دفعه بطرق غير مشروعة، مثل تعيين أرزاق (رواتب) لأناس لم يخلقوا بعد[٣٢].

كما كثرت مصادرة أموال العمال والكتاب، فقد صادر محمد بن طغج الأخشيد أموال

بعض عماله، وكان إذا أفلت أحد هؤلاء العمال من المصادرة فى حياته، لم يسلم من مصادرة أمواله بعد وفاته، يؤيد ذلك ما ذكره ابن سعيد المغربى[٣٣] فى قوله : «وإذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرض لورثته وأخذ منهم وصادرهم، وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير» وقد أدت هذه المصادرات إلى ضعف مركز أصحاب الدواوين وعمالها لكثرة ما تعرضوا له من مصادرات.

وكان خراج أهل الشام منذ سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤١م وعشورها ومرافق سلاطينها كان يجبى فى أوقات مختلفة وبقوانين متباينة، تزاد مرة وتنقص أخرى، لأن أغلب الموكلين بالخراج يعملون على استرداد ما دفعوه فى الحصول على هذه الوظيفة، وكان كلهم لا يرغبون فى إقامة العمائر (مساجد وقصور ودواوين.. إلخ) ولا يلتفتون إلى شئ من ذلك[٣٤].

ومن الدواوين فى العصر العباسى أيضاً ديوان الصدقات، وكان مقره بغداد، وكانت له فروع فى جميع الولايات الإسلامية، ويشترط فيمن يتولى رئاسة هذا الديوان أن يكون ملماً بأحكام الزكاة والأنصبة المفروضة على أموال المسلمين وما يملكون. وكانت رواتب عمال الصدقات ترتبط بما يحصلونه منها حتى لا تلتهم هذه المرتبات كل ما يجبى من الصدقات[٣٥].

ديوان البر : وقد أنشأه على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر بالله، وقد أورد هلال بن الصابى[٣٦] ما يثبت صحة ذلك فى قوله : «... وأشار على بن عيسى على المقتدر بالله بوقف المستغلات بمدينة السلام[٣٧] - حصيلتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار - وكذلك الضياع الموروثة بالسواد، والجارية فى ديوان الخاصة - وتقدر بأكثر من ثمانين ألف دينار - على الحرمين الشريفين وعلى الثغور. فقبل الخليفة المقتدر بالله هذا الرأى وأشهد القضاة على ذلك، ونصب على بن عيسى رئيساً للديوان الذى أنشأه لهذه الأوقاف، وسماه ديوان البر. وقد أيد ذلك القول ابن طباطبا[٣٨] فيما ذكره عن الوزير على بن عيسى.

وقد استمر نظام الدواوين على هذا النمط إلى أن ولى المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م. فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض، وكون منها ديواناً واحداً أطلق عليه (ديوان الدار أو ديوان الدار الكبير) وقد قيل فى ذلك : «إنه لم يجتمع فى زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش»[٣٩] مثلما حدث فى عهد الخليفة المعتضد بالله، والوزير

أبى القاسم عبيد الله بن سليمان، وصاحب الديوان أبى العباس ابن الفرات، وأمير الجيوش بدر الجمالى.

وقد قسم المعتضد بالله الديوان إلى ثلاثة أقسام : ديوان المشرق، وديوان المغرب، وديوان السواد (العراق) وأسند الأصل إلى شخص، وأسند الزمام إلى شخص آخر، ومع ذلك فقد كانت بعض دواوين الولايات تقوم مقام الديوان الكبير، لأن الإدارة فى الدولة الإسلامية لم تصل إلى تعيين الحدود الفاصلة بين هذه الدواوين.

ديوان الأحباس : وفى العصر الفاطمى بقيت الدواوين على ما كانت عليه سابقاً، مع ظهور ديوان أو أكثر لم يكن موجوداً من قبل، مثل ديوان الأحباس، ويختص بما يوقفه الأمراء وكبار رجال الدولة على أعمال البر والخير، وهو يشبه وزارة الأوقاف حالياً.

وقد كثر عدد الموظفين فى عصر الفاطميين فى مصر، مثل صاحب الباب، وصاحب الرسائل وكانت مهمته توصيل رسائل الخليفة الفاطمى إلى الوزير أو غيره من كبار رجال البلاط، ومن الوظائف أيضاً حامل مظلة الخليفة، وحامل الدواة وغير هؤلاء كثير.

وفى العصر المماليكى حدثت بعض التغييرات المهمة فى النظم الإدارية بمصر، فقد استعان السلطان الظاهر بيبرس بالأفراد المقربين إليه فولاهم المناصب الرئيسية، كما أحيا منصب نائب السلطان الذى أنشئ فى عصر الأيوبيين، ويرجع ذلك إلى كثرة تغيب السلطان بيبرس عن مصر بسبب الحروب. وقد ازدادت اختصاصات هذا النائب حتى سمى كافل المماليك أو السلطان الثانى.

وقد بقيت الوزارة فى مصر حتى ألغاها السلطان الناصر محمد قلاوون وأسندت اختصاصاتها إلى ناظر الدولة الذى كان يساعده كثير من الموظفين يعرف كل منهم بالمستوفى.

ومن الوظائف المستحدثة فى عصر المماليك (رأس نوبة الأمراء) و(أمير المجلس) و(أمير السلاح) وكان اختصاص الأول رئاسة أمراء الدولة ومحاكمة مماليك السلطان، وكان اختصاص الثانى حراسة السلطان حتى فى قصره وفى حجرة نومه، وأما الثالث فكان اختصاصه الإشراف على مخازن السلاح ومعدات الحرب.

البريد

نقل المسلمون نظام البريد عن الروم والفرس، وقد نقله معاوية بن أبى سفيان. ويختلف

العلماء فى أصل كلمة (بريد) فيرجعها البعض إلى أصل عربى (برد) بمعنى أرسل، والبعض الآخر يذكر أنها فارسية الأصل (بريده دم) بمعنى مقصوص الذيل وهى كناية عن استعمال أهل فارس للخيل التى تقص أذيالها (أذنابها) والتى تخصص للبريد. وقد أطلقت الكلمة على مسافة معلومة تقدر باثنى عشر ميلا، كما أطلقت على حامل البريد نفسه.

وقد استخدم أحمد بن طولون والى مصر استخدم صاحب البريد/ أو عامل البريد فى التجسس على خصومه ومناوئيه فى حاضرة الدولة العباسية حيث كان هذا البريدى يرسل إليه بكل الأخبار التى تخصه أو تخص مصر، فيعمل على إحباط ما يدبر له ويأخذ كل الاحتياطات الضرورية لمواجهة ذلك. ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما وقع الخلاف بين أحمد ابن طولون وبين أخى الخليفة العباسى المعتمد المسمى أبو أحمد الموفق طلحة، ألب القواد عليه واتخذ أمره لإقالة أحمد بن طولون عن ولايته فى مصر، ولكن عامل البريد (عين ابن طولون) أخبره بما يجرى فى بغداد فأخذ حذره وأحبط المؤامرة[٤٠].

وفى زمن الإخشيديين لا نجد ما يذكر عن ديوان البريد فى مصر، وكذلك بالنسبة للفاطميين ويبدو أن اعتماد حكام مصر فى هاتين الفترتين كان على الحمام الزاجل طلباً للسرعة، وما يؤيد رأينا هذا ما يقوله القلقشندي[٤١] : «إن الفاطميين اهتموا بالحمام الزاجل كوسيلة من وسائل نقل الرسائل وأفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب هذا الحمام».

وفى العصر المماليكى استمر استخدام الحمام الزاجل فى عملية البريد، وازدادت العناية به، فجعلوا للحمام خلاخيل من ذهب فى أرجله، وألواح من ذهب فى أعناقه، وأطلقوا عليه (جناح المسلمين)، وهذه الطريقة أشبه ما تكون بنظام البريد الجوى حاليا.

وقد عرف المسلمون أثناء الحروب طريقة رمزية للكتابة أشبه ما تكون بالشفرة فى عصرنا الحالى، فكانت الرسائل تدون على ورق خفيف يسهل على الحمام حمله تحت أجنحته[٤٢] أو تثبت بخيط رفيع على ساقه، وكانت أبراج الحمام الزاجل أو إذا شئت قل مطاراته قد كثرت فى عصر المماليك، وكانت القلعة بالقاهرة مركزه الرئيسى، وكان الذى يشرف على هذا الحمام وهذه الأبراج يسمى (براجا).

أما حامل البريد العادى فكان يسمى (البريدى) وكان يحمل البريد فى خارطة (حقيبة) ويضع حول عنقه شرابة من حرير أصفر، مثبت فيها لوح من الفضة يوضع تحت ثيابه، منقوش

عليه وظيفته، وكان الذى ينقل هذا البريد يسمى النجاب.

ولم تكن مهمة حامل البريد نقل الرسائل والأخبار ومستجدات الأحوال الرسمية والعامة فقط، ولكنه كان مثل الجاسوس أو عميل المخابرات، وقد عرف باسم (العين)، وكان رئيس البريد يسمى صاحب الخبر(٤٣) وكانت مهمته موافاة الخليفة بكل الأخبار والحوادث التى تصل إليه من أعوانه المنتشرين فى أنحاء الأقاليم، بالإضافة إلى إشرافه على المراكز البريدية(٤٤).

وكان يشترط فى صاحب البريد (صاحب الخبر) أن يكون ثقة إما فى نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر فى وقته، لأن هذا الديوان (البريد) ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكاتب المتصفح، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ(٤٥)... إلخ. «أى ليس من الضرورى أن يكون صاحب البريد متعلماً ومثقفاً وعلى جانب من الدراية والإطلاع».

ومع ذلك كان ينبغى على صاحب البريد أن يعرف حال عمال الخراج والصناع فيما يجرى عليه أمرهم.. وأن يعرف أحوال عمارة البلاد وما هى عليه من الكمال والاختلال وما يجرى من أمور الرعية فيما يعاملون به من الإنصاف والجور والرفق والعسف، فيكتب به مشروحاً.. وأن يعرف أحوال دار الضرب (السكة) وما يضرب فيها من العين والورق.. إلخ وأن تكون أخباره التى يكتب بها موثوقاً بصحتها(٤٦).

وكان للبريد محطات تسمى السكك، وكانت تزود بالخيل وراكبيها، وكانت مسافة السكة ثلاثة أميال وأحياناً ستة أميال، وقد قدرت مسافة البريد فى البلدان التى تقع شرقى نهر الفرات بالفراسخ(٤٧). وكانت طرق البريد منتشرة فى الشرق والغرب. وقد استعمل العباسيون الجمازات(٤٨) لنقل البريد أثناء الحروب، فعندما عزم الفاطميون على غزو مصر سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣-٩١٤م استعمل على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر بالله الجمازات من بغداد إلى مصر ليقف على حقيقة الأحوال فى كل يوم ويرسل بالأخبار إلى الخليفة(٤٩).

وبداية من عهد البويهيين استغنت الدولة عن الخيل فى البريد، واستعملت الجمازات بدلاً منها. وقد استخدم ابن العميد الكاتب هذه الجمازات عندما أراد أن يلحق بركن الدولة البويهى فى فارس سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤-٩٧٥م(٥٠).

حواشى الفصل الخامس

(١) الطبرى : تاريخ، ج٣ ص٦١٣.

(٢) الطبرى : نفسه، ج٤، ص٢٠٤.

(٣) الطبرى : نفسه، ج٤ ص٢٠٧ وما بعدها.

(٤) سورة الأنبياء/ ٩٢.

(٥) الطبرى : تاريخ، ج٤ ص٢٠٤.

(٦) الطبرى: تاريخ، ج٥ ص١٥٥.

(٧) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى، ص٢٥٠.

(٨) الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب، ص١٦ وما بعدها، EI, B.I. (Art Diwan).

(٩) الأحكام السلطانية، ص١٧٥، راجع كذلك لسان العرب (مادة ديوان).

(١٠) القلقشندى : صبح الأعشى، ج١ ص٩٠، ج١٣ ص١٠٦.

(١١) ابن خلدون : المقدمة، ص٢٤٤.

(١٢) الطبرى : تاريخ، ج٣ ص٦١٤، ج٥، ص٢٢.

(١٣) الطبرى : نفسه، ج٣ ص٦١٣.

(١٤) الأحكام السلطانية، ص١٩٩.

(١٥) السياسة الشرعية، ص٤٢.

(١٦) أبو يوسف : الخراج، ص٢٦. البلاذرى : فتوح البلدان، ص٤٥٨. ابن الجوزى: سيرة عمر، ص٨٨.

(١٧) أبو يوسف : الخراج، ص٤٥ وما بعدها.

(١٨) تاريخ، ج٣ ص٦١٤.

(١٩) كتاب الخراج، ص٤٧.

(٢٠) الأحكام السلطانية، ص٢٠١.

(٢١) يحيى بن آدم : كتاب الخراج، ص...

(٢٢) ابن سلام : كتاب الأموال، ص...

(٢٣) أبو يوسف : مرجع سابق، ص٤٦.

(٢٤) مسكويه : تجارب الأمم، ج٢ ص٨٣، ١٧٣ وما بعدها.

(٢٥) الأحكام السلطانية، ص١٧٨.

(٢٦) الطبرى : تاريخ، ج٥ ص٣٣٠.

(٢٧) الطبرى : ج٣ ص٢٠٣.

(٢٨) الطبرى : المرجع السابق ج٥ ص٣٣٠، وابن الأثير: الكامل، ج٤ ص١١، وكذلك السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص٢٠١.

(٢٩) ابن طباطبا : الفخرى، ص١٠٢.

(٣٠) راجع مجموعة بردى هايدلبرج بألمانيا، ومجموعة بردى البرتينا بفينا حيث توجد بعض هذه الأختام على رسائل البردى من عصور زمنية متفاوتة، وكذلك فيما نشره جروهمان فى مجموعة أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية. وعندى صور لبعض هذه البرديات واضح عليها هذه الأختام.

(٣١) لدينا صورة بردية عربية يرجع تاريخها إلى سنة ٢٢هـ. مدونة بهذه اللغات الثلاث وأصلها موجود فى مجموعة البرتينا بفينا.

(٣٢) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية، ج١ ص١٣٧.

(٣٣) المغرب فى حلى المغرب، ص١٦ وما بعدها.

(٣٤) ابن حوقل : المسالك، ص١٢٨.

(٣٥) أبو يوسف : الخراج، ص٨٠.

(٣٦) تحفة الأمراء، ص٣١٠ وما بعدها.

(٣٧) المعنى تحويل حصيلة الخراج من مدينة السلام إلى أوقاف.

(٣٨) الفخرى فى الآداب، ص٢٣٦.

(٣٩) هلال بن الصابئ : تحفة الأمراء، ص١٨٩.

(٤٠) الميل = حوالى ١,٦ كم.

(٤١) المقريزى: الخطط، ج٢ ص١٧٨ وما بعدها.

(٤٢) صبح الأعشى : ج١٤ ص٣٩٠.

(٤٣) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى، ص١٧٧.

(٤٤) المقريزى : المرجع السابق ج٤ ص٨٨.

(٤٥) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب، ص٣٥٨.

(٤٦) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ص ١٨٤-١٨٥.

(٤٧) ميتز : الحضارة الإسلامية، ج١ ص ١٢٨ وما بعدها.

(٤٨) الفرسخ : ٣ ميل، والميل ١,٦ كم تقريباً.

(٤٩) الجمازة تشبه العربة الخفيفة التى تجرها الخيل بسرعة. (راجع لسان العرب).

(٥٠) عريب بن سعد القرطبى : صلة تاريخ الطبرى، ص٢٨.

(٥١) ابن الأثير : الكامل، ج٨ ص٢٣٥.

الفصل السادس

أولاً : الموارد المالية للدولة

موارد بيت المال :

المال عصب الحياة، وهو عقل الدولة ووسيلتها للنهوض بأركانها، والعمل على استقرار أمنها وأمانها، إذ لا يمكن لدولة أن تواصل مسيرتها وتحافظ على وجودها بدون المال تنفق منه على شئونها، وتعطي منه أفراد شعبها، وصدق القائل «حبذا المال أتقرب به إلى ربي، وأصون به عرضي، وأنفق منه على ما يصلح حياتي».

وقد حدد التشريع الإسلامي بعض موارد الدولة المالية من :

أ) زكاة المال، لقوله تعالى : (والذين في أموالهم حق معلوم)[١]، وقوله تعالى (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)[٢].

ب) والصدقات : لقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)[٣]، وقوله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله)[٤].

ج) الفيء : وهو مال يدفعه غير المسلمين بدون قتال، وفي القرآن الكريم آيات عن الفيء منها (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير)، وقوله تعالى (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم...)[٥].

د) الغنيمة : وهي جميع ما يقع في أيدي المجاهدين المسلمين من أموال ومتاع أثناء الحرب، وقد بين القرآن الكريم مصارفها في قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير)[٦]، ويقرر الفقهاء أن الفيء والغنيمة محكمة لم ينسخهما شيء[٧].

هـ) الجزية : وهى ضريبة تفرض على الرءوس لغير المسلمين من أهل الكتاب، فى مقابل الدفاع عنهم وتوفير الاستقرار والأمان لهم، لأنه لا يجوز لهم الانضمام أو الاشتراك فى جيش الدولة الإسلامية للدفاع عنها (خشية الخيانة) وهى تماثل - فى رأينا - ضريبة الدفاع التى تأخذها جميع الدول من أفراد شعوبها حالياً إسهاماً منهم فى نفقات الدفاع التى يتكلفها المحاربون فى الدفاع عن الدولة، ولحماية المواطنين المدنيين من شيوخ مسنين ونساء (عجائز) وأطفال لا يقدرون على المشاركة فى الحرب، وعلى ذلك فنحن ننفى ما قاله بعض المستشرقين وما نقله عنهم بعض المؤرخين من عرب ومسلمين من أن الجزية (إتاوة) كان يأخذها النبى محمد ﷺ من أهل الكتاب بعدما ظهرت قوة الأمة الإسلامية[٨]. وإذ أمعنا النظر فى قيمة الجزية نجد أن مبلغها زهيد، فقد أمر رسول الله ﷺ معاذ بن جبل أن يأخذ ممن لم يدخلوا الإسلام من أهل اليمن (وكانوا من اليهود) ديناراً واحداً من كل حالم[٩] - أى بالغ الرشد - وكان من اليسير على كل رجل فى ذلك الوقت أن يدفع هذا المبلغ البسيط مرة واحدة فى كل سنة.

ومن المعلوم أن الجزية كانت تفرض على البالغين الأقوياء من الذكور فى مقابل الخدمة العسكرية، ولكن إذا التحق البعض من أهل الذمة فى صفوف الجيش الإسلامى كانوا يعفون من دفع الجزية[١٠]. وقد حدث ذلك مع قبيلة الجراجمة المسيحية المجاورة لأنطاكيا عندما صالحت المسلمين ووعدت بأن تكون حليفة لهم، وأن تحارب إلى جانبهم فى المعركة بشرط إعفائها من دفع الجزية وأن تأخذ نصيبها من الغنائم[١١].

الخراج : عرفت ضريبة الخراج قبل ظهور الإسلام، وكانت موجودة فى بلاد الفرس والروم، فقد اتخذت الدولة الرومية من مصر - فى فترة ما قبل الإسلام - بقرة حلوبا، يستنزفون لبانها، ويمتصون دماءها، وفى هذا يقول الفرد بتلر[١٢] : «إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة.. ومما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل».

ويقول آخرون[١٣] : «إن مصر كانت تضيف إلى مالية الدولة البيزنطية قدراً كبيراً من محصولاتها ومنتجاتها، وكانت طبقة الفلاحين - مع حرمانها من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ - مرغمة على أداء الخراج للدولة البيزنطية ككراء الأرض فضلا عن الضرائب، وكانت

ثروة مصر فى هذا العهد إلى الانتقاص والانحطاط». والخراج فى التشريع الإسلامى مقدار من المال، أو من الحاصلات الزراعية التى تنتجها الأرض التى صولح الأعاجم عليها وصاروا أهل ذمة (أى يعيشون فى ذمة وكنف الدولة الإسلامية وهم من غير المسلمين).

وقد ساد الدولة الإسلامية نظامان لجباية الخراج، هما : نظام المقاسمة، ونظام الألتزام. ويؤخذ الخراج على الأرض فى الحالات الآتية :

١ - الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة ولم تقسم بين المسلمين المجاهدين وتركت فى أيدى أهل المدينة الذين كانوا يزرعونها.

٢ - الأراضى التى استحوز المسلمون عليها بدون قتال لأنها تدخل فى عداد الفئ.

٣ - الأراضى الموات (البور) التى أحياها المسلمون وكانت فى أرض خراج، ولم يحفر لزراعتها بئر ماء، ولم يشق لها قناة.

ويذكر بعض الفقهاء[١٤] أن مقدار الخراج لم يكن ثابتاً، بل كان يتغير حسب ارتفاع أسعار المحاصيل، وحسب جودة الأرض ووفرة الإنتاج، بل حسب حاجة الدولة للمال. وكان الخراج يجبى بعد جمع المحصول، وكانت السنة المالية للخراج هى السنة الشمسية (أى الميلادية) لارتباط الزراعة والمحصول بها. وكانت السنة الخراجية فى بلاد الفرس وما وراءها تبدأ بعيد النيروز (عيد الربيع)، ولكن أدخلت تعديلات كثيرة على هذا الوضع[١٥].

وكان الزراع يؤدون الخراج نقداً على البساتين (الأشجار والكروم والنخيل) حيث تقدر ثمارها بالمال ويدفع المالك عنها النصف أو الثلث. وقد أسقط الخليفة المهدى العباسى الخراج عن هذه المحاصيل[١٦]. واستمر هذا الإلغاء إلى أوائل عهد الخليفة المقتدر بالله حيث قدمت إليه شكاوى من الزراع ضد أهل البساتين فألغى هذا الاعفاء، وأصدر كتاباً أعاد به ضريبة الخراج على الشجر فى سائر الكور[١٧] وتمت جبايتها فى مستهل سنة ثلاث وثلاثمائة للهجرة، وأصبح يؤخذ على الجريب الكبير[١٨] من الكروم ١٤٢٥ درهما[١٩]، وعلى كل شجرة تمر ربع درهم[٢٠].

وقد استمر جمع ضريبة الخراج فى أيدى الملتزمين طوال عصر الدولة الأموية وحتى عهد هرون الرشيد فى الدولة العباسية عندما وضع القاضى أبو يوسف كتاب الخراج وحرم بيع أو شراء الضريبة المفروضة على الأرض.

العشور : هى الضريبة المقررة على الأرض ومقادرها ١/١٠ عشر ما تنتجه من غلال عيناً أو بدلاً منه مالاً. وضريبة العشر هى الزكاة المفروضة على المسلمين فى زرعهم وثمارهم لقوله تعالى : (... وآتوا حقه يوم حصاده)(٢١) ويسميها البعض الصدقة(٢٢)، ويستندون على قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)(٢٣). والأراضى التى تدفع العشر على ما تنتجه من زروع هى :

١ - الأرض التى أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب، وكذلك الأرض التى أسلم صاحبها لأنها لم تكن أرض خراج(٢٤).

٢ - الأرض التى ملكها المسلمون عنوة، وقسمها الخليفة على المحاربين المسلمين.

٣ - الأرض الموات (البور) التى أحياها المسلمون وكانت فى أرض عشور أو حفر لها بئر مياه أو شق لها قناة، فهذه تعتبر أرض عشور ولا يجوز أن يوضع عليها خراج(٢٥). ويرى أبو يوسف صاحب كتاب الخراج أن الأراضى التى يقطعها الخليفة للمسلم يدفع ضريبتها حسب موقعها، فإن كانت أرض خراج دفع عليها الخراج، وإن كانت أرض عشور دفع عليها العشر.

وليس فى مقدور الخليفة تحويل الخراج إلى عشر، أو أن يفرض عليها أكثر أو أقل مما هو موضوع عليها من الخراج.

وفى عصور لاحقة فرضت العشور على تجارات غير المسلمين عند نقلها والمرور بها فى أراضى الدولة الإسلامية، وهى أشبه ما تكون بالضرائب الجمركية أو المكوس وهذه الضرائب نوعان :

أولاً : ضريبة تفرض على هؤلاء التجار غير المسلمين المقيمين داخل البلاد الإسلامية وقدرها ١/٣٠ جزء من ثلاثين جزءاً من قيمة البضاعة، وتجبى مرة واحدة فى السنة متى بلغت القيمة الإجمالية للبضائع ٢٠٠ درهم.

ثانياً : ضريبة تفرض على التجار القادمين من خارج البلاد الإسلامية، وتقدر قيمتها بـ ١/١٠ جزء من عشرة أجزاء من إجمالى التجارة متى بلغ الإجمالى ٢٠٠ درهم(٢٦). كما كانت الضرائب تفرض على البضائع المنقولة من إقليم إلى إقليم، أو من بلد إلى بلد آخر سواء كان النقل براً أو عن طريق النهر.

وقد أقيمت مراكز لجباية هذه الضرائب عرفت باسم (دور المكوس). وكان يمد حبل سميك بعرض النهر بين ضفتيه لمنع مراكب التجارة من العبور قبل جباية هذه الضرائب[٢٧]. وكان هناك نوع من الضرائب يعرف باسم (المسقفات)[٢٨] وكانت تفرض على الدور والحوانيت والأسواق. وقد بلغت إيرادات هذه الضرائب في عصر العباسيين سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م ١٣,٠٠٠ دينار في السنة[٢٩].

ومن موارد بيت المال كذلك أخماس المعادن، وخمس ما يقذف به البحر أو ما يستخرج منه (كاللؤلؤ)[٣٠] وما يؤخذ من التركات ممن يموتون وليس لهم من يرثهم فيؤول ميراثه إلى بيت مال المسلمين، وكان ذلك مقصوراً على معاملة المسلمين.

وقد أنشئ في عهد الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ) ديوان خاص لهذه التركات سمي (ديوان المواريث) وهذا يشير إلى أهمية هذه المواريث والدور الذي تقوم به في إمداد بيت المال بقدر كبير من الأموال[٣١].

وقد تعرض هذا الديوان إلى الإلغاء والإعادة حتى ألغاه نهائياً الخليفة المقتدر بالله سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م نظراً لما أصاب الناس من جور وعنت بسبب هذه المواريث[٣٢].

بيت المال :

كانت هذه الأموال كلها تحفظ في (بيت المال) وهو أشبه ما يكون (بوزارة المالية). وأول من أنشأ بيت المال هو الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب، لأن الرسول ﷺ ومن بعده أبو بكر الصديق كانا يوزعان كل ما يرد إلى المدينة المنورة - عاصمة الدولة - من أموال في حينه، ولكن عندما تدفقت الأموال في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نتيجة الفتوحات الإسلامية، وتعددت الموارد المالية اقترح الوليد بن هشام على أمير المؤمنين أن يتخذ بيتاً للمال، فوافق عمر وأمر بإنشاء بيت المال. وكان عبدالله بن الأرقم أول أمين لهذا البيت، واتخذ له مساعدين.

وقد جعل عمر بن الخطاب لكل ولاية أميناً لبيت المال له اختصاص مستقل عن عمل الوالي وعمل القاضي، كما أمر بترتيب حرس خاص لكل بيت من بيوت المال.

العملات المستعملة فى الدولة الإسلامية :

كانت العملة المستعملة فى عهد الرسول ﷺ ومن بعده عهد الخلفاء الراشدين والفترة الأولى من عصر الدولة الأموية هى العملة الرومية (البيزنطية) والعملة الفارسية وهى الدينار الذهبى والدرهم الفضى، كما استخدم المسلمون فى هذه العهود العملة اليمنية القديمة كذلك. وقد رسمت شعارات كل دولة على عملتها فعلى وجه العملة الرومية نقش الصليب، وعلى وجه العملة الفارسية نقش بيت النار (معبد زاجوروات) ويقال إن عمر أمر بنقش عبارة التوحيد على الوجه الثانى لهذه العملات وظلت هكذا مستعملة حتى عهد الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان الذى رأى أن العملة إلى جانب قيمتها الاقتصادية فهى مظهر من مظاهر سيادة الدولة الإسلامية، ثم إنها إعلان عن شرعية حكم الخليفة بنقش اسمه عليها. لذلك أمر بتعريب العملة كجزء من سياسة عامة لتعريب كل أجهزة الدولة الإسلامية، وفعلا قام بتعريب الدواوين وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى مكاتبات الدولة وإن لم يمنع الكتابة باللغات الأخرى وهى اليونانية والقبطية والفارسية.

وكلمة دينار لاتينية الأصل dinarius وهى مشتقة من deni أى عشرة، وكان الدينار يساوى وزن درهم وثلاثة أسباع ($1\frac{3}{7}$). أما قيمة الدينار فهى ما بين ١٣ إلى ١٥ درهم فضة وربما أكثر. وكان وزن الدرهم خمسين حبة أو ستة دوانق من النحاس[٣٣]. (الدرهم = دراخمة drachmas).

ويرى بعض المؤرخين[٣٤] أن أول من ضرب النقود فى الإسلام هو عمر بن الخطاب سنة (١٨هـ) على غرار النقود الفارسية، وجعل عمر وزن الدرهم ١٤ قيراطاً أو سبعة أعشار المثقال، كما أن عثمان بن عفان أصدر درهماً آخر منقوشاً عليه (الله أكبر) وكما يذكر المؤرخ الألمانى Mueller أن خالد بن الوليد ضرب فى طبرية دنانير ذهبية على شكل الدنانير الرومية تماماً وعلى أحد وجهيها اسم خالد باليونانية سنة ١٥هـ، وأن معاوية ضرب نقوداً ذهبية على مثال الدينار الفارسى وعليها اسمه، وتوجد نماذج لكلا النوعين. ونحن لا نستطيع تقبل هذا الرأى - على الأقل - مؤقتاً لحين التأكد من صحته، كما أننا لا نستطيع النفى قبل التحقق من ذلك. لأن المصادر تكاد تجمع على أن الدولة الإسلامية لم تعرف التعريب فى سكتها (نقودها) ولا فى دواوينها إلا فى عهد عبد الملك بن مروان.

وقد عرفت الدولة الإسلامية نوعاً من العملات الصغيرة المضروبة من النحاس مثل (الدانق/ دوانق، المثقال/ مثاقيل، فلس/ فلوس)، ويبدو أن الكلمة الأخيرة يرجع أصلها إلى اللاتينية كذلك.

وما يذكره المقريزى[٣٥] عن هذه العملة وسبب ضربها ما يلى :

** وفيها توقفت الأحوال بالقاهرة، لكثرة الفلوس وما دخل فيها من الخفاف الوزن.. فرسم بضرب فلوس جدد، وعملت الفلوس الخفاف بدرهمين ونصف الرطل فمشت الأحوال.

** وفيها توقف حال الناس بسبب الفلوس وما كثر فيها من الزغل[٣٦]. وكانت المعاملة بها عدداً عن كل درهم فضة ثمانية وأربعين فلساً من ضرب السلطان، فعملتها الزغلية، وخففوا وزنها حتى صار الفلس زنته سدس درهم. وكانت معاملة دمشق بالفلوس التى يقال لها القراطيس[٣٧]، والقرطاس ستة فلوس.. فنقلت هذه الفلوس الخفاف القراطيس إلى مصر وخلطت بفلوس المعاملة (أى الجيدة حسب وزنها الرسمى).

وكانت صناعة ضرب النقود ساذجة. يصنع قالب من حديد تنقش عليه الكلمات التى يراد ضربها على العملة معكوسة. وتجهز العملات المعدنية (ذهب/ فضة/ نحاس) بعد وزنها ويوضع القالب فوق القطعة المعدنية، ويضرب عليه بطرقة ثقيلة حتى تظهر الكتابة على قطعة العملة (المعدن).

ويذكر ابن خلدون أن كلمة السكة كانت تطلق على القالب الحديد، ثم نقل هذا المعنى إلى النقوش التى على العملة نفسها ثم أصبح يطلق على الدار التى تسك وتضرب فيها العملة فسميت دار السكة، وكذلك دار الضرب. وقد انتشرت دور السكة فى الولايات الإسلامية الكبيرة، كما انتقل اللفظ إلى اللغات الأوروبية بعد ذلك.

ظهور الصيرفة والصيارفة :

نتيجة لتعدد الدول الإسلامية، ووجود معاملات تجارية بينها، ظهرت طائفة عرفت باسم (صيارفة) كان وظيفتها تسهيل عقد الصفقات المالية والتجارية، وتحويل العملات وقيمتها من بلد إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى، وكان معظم هؤلاء الصيارفة من أهل الذمة، (يهود ونصارى) لأن الدين الإسلامى يمنع ويحرم التعامل بالربا[٣٨]. ومع انتشار مهنة الصيارفة ظهرت تعبيرات تستخدم فى سوق المال مثل «صفتاجة، صك، رقعة، خط، حوالة» وكلها

بمعنى إذن صرف أى (شيك). فكان التاجر من مصر يطلب تجارة من أسوان أو من السودان، ويرسل الصك بثمنها فيقوم تاجر أسوان أو السودان بصرف ثمن بضاعته من المصرف الموجود فى بلده ويرسل التجارة المطلوبة. وهكذا ظهرت البنوك فى شكلها الأولى فى الدول الإسلامية، ومنها انتقلت إلى الدول الأخرى.

ثانياً : الشرطة

تعتبر الشرطة من أهم النظم الإدارية فى الدولة الإسلامية، وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة وهو أشبه ما يكون بمدير الأمن حالياً. وفى اشتقاق الكلمة قولان :

الأول إنها مشتقة من الشَرَط (بفتح الشين والراء) وهى العلامة لأنهم يجعلون لأنفسهم علامات يعرفون بها.

الثانى : بمعنى رذالة المال لأنهم يتحدثون فى أرذال الناس وسفلتهم ممن لا مال لهم من اللصوص ونحوهم.

ويختلف المؤرخون فى نشأة الشرطة ومن الذى أنشأها، فيقول السيوطى أن عمرو بن العاص هو أول من أوجد الشرطة فى الإسلام عندما ولى إمارة مصر. ويذكر ابن الأثير(٣٩) أن معاوية أول خلفاء بنى أمية هو الذى أوجدها لتقوم بحراسته وقت الصلاة، أو لتكون أداة فى يد عماله لتنفيذ سياسته. ويذكر ابن سعد(٤٠) أن الذى أوجدها هو عثمان بن عفان. ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار أن العسس هو المرحلة الأولى لتكوين الشرطة، وأنهم كانوا يتتبعون اللصوص للقبض عليهم وكذا أهل الفساد ومن يخش شرهم لجاز لنا القول بأن أبا بكر الصديق هو أول من أوجد الشرطة فى الدولة الإسلامية، وكان أمير العسس فى عهده هو عبدالله بن مسعود، وقد سار على منواله عمر إلا أنه تولى العسس بنفسه، وكان يصطحب معه مولاه، وأحياناً كان يصطحب معه عبدالرحمن بن عوف.

ومما يذكره الطبرى نجد أن الشرطة وجدت فى الأمصار الإسلامية منذ عهد الراشدين، فقد عين أبو موسى الأشعرى وهو والٍ على البصرة (٤٠٠) أربعمائة شرطى لحراسة بيت المال والسجن فى هذه المدينة. فلما جاء الزبير ومعه أم المؤمنين عائشة لتحريض أهل البصرة على

الخليفة الرابع على بن أبى طالب قاوموه وتمسكوا بواجبهم، ولم يسلموه المنشآت التى وكلوا بحراستها إلا بعد أن أقنعهم بأحقية دعواه، مما يدل على ارتباطهم بالمؤسسات دون الأمير شخصياً.

ومهمة رجال الشرطة حفظ الأمن وإقرار النظام، وتنفيذ أحكام القضاء، وأوامر المحتسبين. وكانت الدولة تنفق عن سعة على رجال الشرطة، حتى أن منصب صاحب الشرطة لا يقل عن منصب الوالى(٤١).

وكانت الشرطة تابعة للقضاء فى أول الأمر، إلا أنها لم تلبث أن انفصلت عنه، واستقل صاحبها بالنظر فى الجرائم، وكانت توليته فى الأمصار الإسلامية وعزله من اختصاص الوالى.

وقد وجدت الشرطة فى مصر منذ الفتح العربى لها، وكان مقرها الفسطاط، ولما تأسست مدينة العسكر سنة ١٣٢هـ عند قيام الدولة العباسية أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها الشرطة العليا، كما أطلق على الشرطة فى الفسطاط الشرطة السفلى وبذلك أصبح فى مصر نوعان من الشرطة :

١ - شرطة عليا فى مدينة العسكر.

٢ - شرطة سفلى فى مدينة الفسطاط.

وكانت وظيفة صاحب الشرطة من أهم وظائف الدولة فى مصر، وكان صاحبها من عظماء الرجال، وكان ينوب عن الوالى فى الصلاة وفى توزيع الأعطيات(٤٢).

ومن أهم صفات صاحب الشرطة أن يكون حليماً مهيباً دائم الصمت طويل الفكر، بعيد الغور.. وأن يكون غليظاً على أهل الريب.. وأن يكون طاهر النزاهة غير عجول.. وأن يكون قليل التبسم غير ملتفت إلى الشفاعات، وأن يأمر أصحابه بملازمة المساجين وتفتيش الأطعمة وما يدخل السجون(٤٣).

وكان رجال الشرطة يحملون سلاحاً يسمى «الطبرزين» عبارة عن سكين طويلة معلقة فى أوساطهم(٤٤)، وهو يماثل السونكى حالياً.

ويبدو لنا أن نظام الشرطة انتقل من مصر إلى بلاد الأندلس، حيث كانت الشرطة بها على نوعين كذلك. شرطة كبرى، وشرطة صغرى. ويشرح ابن خلدون فى مقدمته(٤٥) اختصاص كل نوع منها فيقول :

«ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء.. وعلى أهل المراتب السلطانية، والضرب على أيديهم فى الظلامات.. وعلى أيدى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه.

وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة. ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دار السلطان، ورجال يتبوءون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها إلا فى تصريفه».

ولما اعتلى عبدالرحمن الناصر العرش(٤٦) (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م) استحدث نوعاً ثالثاً للشرطة أطلق عليه الشرطة الوسطى. ويبدو أن صاحبها اختص بالنظر فى جرائم الطبقة الوسطى وهم : أعيان التجار، وأصحاب الصنائع، وأرباب المهن الراقية كالأساتذة والأطباء، ومن فى حكمهم. وقد أسند هذا المنصب إلى سعيد بن جدير(٤٧) وقد كانت الشرطة فى الأندلس مضبوطة ومعروفة بهذه السمة ويعرف صاحبها فى السنة العامة بصاحب المدينة، وصاحب الليل، وكان يقيم الحدود على الزناة وشاربى الخمر، وكان كثير من الأمور الشرعية راجعة إليه(٤٨). وهكذا نجد أن صاحب الشرطة فى الدولة العباسية وفى الأندلس، وفى عهد الدولة الفاطمية فى مصر والمغرب كان يختص بنظر الجرائم ويقيم الحدود(٤٩).

وكان نظام العسس فى الأندلس مطابق لنظيره فى الشرق، إلا أنه عرف فى الأندلس باسم (الداربين) لأن مدن الأندلس لها دروب، ولها أبواب تغلق بعد صلاة العشاء. لكل زقاق بواب يعرف أهل الزقاق ويفتح لهم الباب. وله سراج معلق، وكلب يسهر، وسلاح معد، وذلك لشطارة عامتهم أى خبثهم وكثرة شرهم(٥٠).

الحسبة

كان صاحب الحسبة بمثابة مراقب للتجار وأرباب الحرف يمنعهم من الغش فى تجارتهم وعملهم وصناعتهم، ويراقب المكاييل والموازين ويختلف المؤرخون فى نشأة الحسبة، فيسندها البعض إلى الرسول ﷺ لأنه نهى عن الغش «من غشنا فليس منا»، ويسندها آخرون إلى أمير المؤمنين عمر لأنه كان يطوف الأسواق والشوارع فإذا رأى غشاشاً ضربه بها، مهما كان شأنه ومركزه. والمحدثون من المؤرخين يسندونها إلى العصر العباسى، ويعارضهم البعض ويسندونها إلى بنى أمية.

وأهم اختصاص المحتسب :

١) مراقبة الأسواق والحرف.   ٢) مراقبة الأسعار والموازين.

٣) مراقبة سلوك الناس بمعنى إتباع الناس للأخلاق.

٤) مراقبة العبادات بمعنى حث الناس على الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة والجماعة والأعياد، ويمنعهم من الإفطار فى شهر رمضان، ويراقب نظافة المساجد.

٥) مراقبة الأبنية والطرق (مثلما تقوم به مجالس البلديات حالياً).

٦) النظر فى ثلاث دعاو تدخل فى اختصاصاته وهى :

أ) بخس الكيل والميزان.

ب) الغش والتدليس فى الثمن أو الشئ المباع.

ج) المماطلة فى سداد الديون الثابتة.

القضـاء

تعريف :

عرف ابن خلدون القضاء بقوله : «القضاء هو الفصل بين الناس فى الخصومات حسماً للتداعى وقطعاً للنزاع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاه من الكتاب والسنة».

وهناك بعض التعريفات الأخرى منها : «القضاء فى الخصومة هو إظهار ما هو ثابت»(٥١)، «حقيقة القضاء الإخبار عن حكم شرعى على سبيل الإلزام»(٥٢).

ويرى البعض أن هذه كلها تعريفات غير كاملة لأن القضاء ينظر فى غير الخصومات مثل نظره مسائل الأوقاف، وكفالة الأيتام، والحجر على السفهاء.. إلخ.

ومن المعلوم لنا أن مصادر التشريع الإسلامى هى القرآن الكريم والسنة الشريفة، ويقوم التشريع فى القرآن على أسس ثلاثة :

١ - عدم الحرج والضيق : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج)(٥٣)، (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)(٥٤)، (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم)(٥٥).

٢ - تقليل التكاليف : هو نتيجة لازمة للأساس الأول (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)(٥٦).

٣ - التدرج فى التشريع : وهو أخذ الناس بالرفق لإصلاح أمورهم، وبالتدريج حتى يصلوا إلى المستوى المراد رفعهم إليه دون أن يشعروا بإنقلاب أو بإرهاق معجز عن بلوغه(٥٧).

وفى القرآن آيات كثيرة تبحث فى ذلك مثل آية الخمر والميسر : (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى)(٥٨).

(إنما الخمر والميسر والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه)(٥٩).

أما السنة : فهى أقوال النبى وأفعاله وهى مفسرة للقرآن، وشارحة لما أجمل من أحكامه مثل : (أحكام الصلاة فقد فرضت مجملة فى القرآن بدون ذكر أوقاتها أو طريقة أدائها، أو عدد الركوع والسجود فيها. ولكن الرسول علم المسلمين كيف يصلون وقال : (صلوا كما رأيتمونى أصلى وخذوا عنى مناسككم) ومثل الصلاة الزكاة... إلخ.

الإجماع : وهو أن يجمع العلماء وأهل الفقه فى قطر إسلامى على أمر من الأمور الدينية مستندين فى ذلك إلى روح التشريع فيعتبر هذا الإجماع حجة فى هذا القطر.

القياس : وهو قياس حادثة طارئة على حادثة ثانية فيها نص أو إجماع لاتحاد العلة فيهما.

الشروط التى يجب توفرها فى القاضى :

١ - أن يكون ذكراً لأن المرأة لا يجوز لها أن تتولى القضاء.

٢ - أن يكون بالغاً لأن الصبى ليس له ولاية على نفسه، فكيف يكون له ولاية على الناس.

٣ - أن يكون عاقلا مدركاً للضروريات، صحيح التمييز، جيد الفطنة، بعيداً عن السهو والغفلة.

٤ - أن يكون حراً لأن العبد لا يجوز له تولى القضاء.

٥ - أن يكون مسلماً لأنه لا يجوز لغير المسلم القضاء بين المسلمين.

٦ - أن يكون سليم الحواس كالسمع والبصر والنطق. حتى لا تؤثر مثل هذه العاهات الحسية على تفكيره وفى نفسه فتأتى أحكامه فاسدة غير مطابقة للتشريع.

٧ - أن يكون متصفاً بالعدالة والعلم.

مجلس القاضي :

كان القاضي يجلس للقضاء في منظرة مخصصة في داره أو في المسجد أو في السوق. وقد كره أصحاب المذهب الشافعي التقاضي في المسجد، وتغلب رأيهم على أصحاب المذاهب الأخرى فأخذ القضاة يجلسون في رحاب (ساحات) المساجد أو في المدارس أو في الدور التي خصصت للقضاة.

وكان للقضاة أياماً محددة للنظر فيما يعرض عليهم من أمور وكان القاضي يلتزم السكينة والعبوسة والوقار في مجلسه وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري يوم كان عامله على الكوفة رسالة في آداب القاضي والأصول المتبعة في القضاء لاتزال إلى اليوم الشعار الذي يحتذي به دارسو القانون في مصر وهذا نص الرسالة.

«أما بعد.. فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أولي إليك، وانفذ إذا تبين لك، فإنه لا ينفع التكلم بحق لا نفاذ له، آس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً حرم حلالاً، أو أحل حراماً. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك، مما ليس في كتاب أو سنة. ثم اعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور بنظائرها، واعمد إلى أحب الأمور إلى الله تعالى، وأشباهها في الحق فيما ترى، واجعل لمن يدعى حقاً غائباً أو بينه آجلا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك اجلى للعمى، وأبلغ للعذر، والمسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حد أو مجرباً في شهادة زور، أو ظنينا في نسب أو ولاء، فإن الله تعالى تولى منكم الرأي ودرأ عنكم بالبينات والأيمان».

وإياك والقلق والضجر والتأذي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن الذخر، فإن من يصلح بينه وبين الله، ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس مما يغير ما يعلم الله تركه الله لشأنه. فما ظنك بثواب الله تعالى في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام»(٦٠).

مساعدو القاضى :

كان القاضى يتخذ له مساعدين فى مجلسه، من هؤلاء :

١ - كاتب الجلسة : وكان يقوم بتسجيل الأحكام، وأقوال المتقاضين.

٢ - خازن المحكمة : وكان يقوم بحفظ اضبارات (ملفات) الدعاوى.

٣ - الحاجب : وكان يرتب المتقاضين حسب أوقات حضورهم.

٤ - وقد وجدت وظيفة (حاجب الحجاب) وكان يتولاها أحد كبار موظفى الدولة، وكان ينظر فى مخاصمات الأجناد ومنازعاتهم فى أمور الإقطاعات وكانت تسمى كذلك (الحجوبية الكبرى).

٥ - الأعوان : وكان القاضى يرسلهم لإحضار الخصوم.

٦ - ترجمان : وكان ينقل إليه أقوال الأعاجم إذا كان القاضى فى بلد يكثر فيها أناس لا يتكلمون العربية.

وكان القاضى ومساعدوه يتقاضون رواتبهم من بيت المال.

النظر فى المظالم

نتيجة لتطور ظروف الحياة فى الدولة الإسلامية ظهرت إلى جانب وظيفة القاضى وظائف أخرى من أهمها نظر المظالم أو (ديوان المظالم) ويرى البعض أن هذا الديوان كان بمثابة محكمة استئناف يلجأ إليها المتقاضون معارضين فى حكم أصدره القاضى كما يلجأ إليه المتظلمون من تعدى أصحاب الجاه أو الولاة أو جباة الأموال، أو كتاب الدواوين أو الأمراء ومن فى حكمهم. وكان الذى يجلس للنظر فى المظالم هو الخليفة نفسه ثم أخذ الخلفاء ينوبون عنهم من يقوم بهذا العمل ممن يثقون فيهم من كبار رجال الدولة.

وأول من أفرد يوماً خاصاً وجلس فيه لرد المظالم هو الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان، وفى بعض الأحيان كان ينوب عنه القاضى ابن إدريس الأزدى. وكان عمر بن عبدالعزيز يجلس للمظالم بنفسه، ثم أهملت بعده إلى أن قامت الدولة العباسية فكان الخليفة المهدى هو أول من جلس للنظر فى المظالم ثم تبعه الخلفاء من بعده (الهادى والرشيد، والمأمون) على أنهم كانوا ينوبون أحياناً من يخلفهم فى هذا العمل.

وعندما ضعف خلفاء الدولة العباسية وغلب عليهم سلاطين الأتراك السلاجقة وغيرهم أصبح النظر فى المظالم إليهم.

حواشى الفصل السادس

(١) سورة المعارج/ ٧٠ .

(٢) سورة الحج/ ٧٨. (٣) سورة التوبة/ ١٠٣.

(٤) سورة التوبة/ ٦٠. (٥) سورة الحشر/ ٦-٧.

(٦) سورة الأنفال/ ٤١. (٧) ابن آدم القرشى : الخراج، ص٢٣.

(٨) يرى البعض أنه نتيجة لحركة الفتوحات الإسلامية وتدفق الأموال على الدولة العربية ثم تعد للضرائب الشرعية المكان الأول فى دخل الدولة الإسلامية (مثل الزكاة والصدقة.. إلخ)، وهذا القول يحتاج إلى مراجعة علمية (راجع ماجد: الحضارة الإسلامية، ص٣٨).

(٩) ابن آدم القرشى : كتاب الخراج، ص٧١.

(١٠) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام.

(١١) أبو يوسف : الخراج، ص٨١؛ والبلاذرى : فتوح، ص١٥٩؛ فون كريمر : الحضارة الإسلامية، ص١٥٨-١٥٩.

(١٢) فتح العرب لمصر، ص٤٧.

(١٣) Historian's History of the World, Vol. VII, p. 173 .

(١٤) أبو يوسف : الخراج، ص٥٨، ريسلر : الحضارة العربية، ص٧٩.

(١٥) المقريزى : الخطط، ج١، ص٢٧٤، وما بعدها.

(١٦) هلال بن الصابئ : تحفة الأمراء، ص٣٤٢ وما بعدها.

(١٧) راجع نص هذا الكتاب عند ابن الصابئ، ص٣٤٤.

(١٨) الجريب الكبير يساوى م/٢ ٣ جريب صغير، والجريب الصغير مساحته ٦٠ × ٦٠ ذراعاً.

(١٩) راجع الأصطخرى : المسالك والممالك، ص٩٥.

(٢٠) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص٤٥٢ وما بعدها.

(٢١) سورة الأنعام/ ٦. (٢٢) ابن آدم القرشى : الخراج، ص١٠٨.

(٢٣) سورة التوبة/ ٩. (٢٤) ابن آدم القرشى : المرجع السابق، ص٢٧.

(٢٥) الماوردى : الأحكام، ص١٤١ وما بعدها؛ والقرشى : المرجع السابق، ص١٢٢.

(٢٦) ابن آدم القرشى : الخراج، ص٢٧ وما بعدها، ص١٢٦.

(٢٧) ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص٠٠٠، عبدالعزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى، ص٢٠٠.

(٢٨) ابن حوقل : المسالك، ص٣٠٣.

(٢٩) عبدالعزيز الدورى : تاريخ العراق، ص٢٠٤.

(٣٠) يرى ابن آدم القرشى (الخراج ص٢٢) أن اللؤلؤ والعنبر وما يخرج من البحر ليس عليه شئ لأنه مثل صيد السمك.

(٣١) ابن الأثير : الكامل، ج٧ ص١٥٩.

(٣٢) ابن الصابئ : تحفة الأمراء، ص٢٤٧. ومن الغريب أن الحكومة المصرية كانت تشارك المتوفين فيما تركوه من ميراث باسم (قانون التركات) وظل ذلك سارياً إلى التسعينيات من هذا القرن حيث أفتى د./ محمد سيد طنطاوى مفتى الجمهورية حينذاك أن ما تحصله الحكومة من أموال اليتامى والأقارب... إلخ حرام شرعاً لأن ذلك ميراث لهم بحكم التشريع الإسلامى فأمر رئيس الجمهورية عندئذ بإلغاء هذا القانون.

(٣٣) راجع انستاس الكرملى : النقود العربية وعلم النميات. القاهرة ١٩٣٩ وكذلك دائرة المعارف بالإنجليزية مادة (دينار، درهم).

(٣٤) المقريزى : السلوك، ج٢، ص١٧ وما بعدها.

(٣٥) السلوك : ج٢، ق١، ص١٧، ٢٠٥. ency : art fals. vol. 11; p. 50 .

(٣٦) الزغل : تزييف النقود ويطلق على المزيف اسم الزغلى.

(٣٧) دراهم ملفوفة على شكل أصبع مصنوعة من النحاس أما معنى الكلمة حقيقة فهى الكتب أو الورق الذى يكتب عليه.

(٣٨) وأحل الله البيع وحرم الربا (البقرة/ ٢٧٥).

(٣٩) الكامل : ج٣، ص١٩٣.
(٤٠) الطبقات : ج٤، ص٢١.

(٤١) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٢٣٣.

(٤٢) راجع كل التفصيلات فى : ابن أبى الربيع : سلوك المالك فى تدبير الممالك.

(٤٣) راجع المقريزى : الخطط. ج...، ص...
(٤٤) ميتز : الحضارة الإسلامية.

(٤٥) ابن خلدون : المقدمة، ص٢٥١.
(٤٦) المقرى : نفح الطيب، ج١، ص١٦٦.

(٤٧) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار، ج٢، ص٢١٢.

(٤٨) المقرى : نفح الطيب، ج١، ص١٠٣.
(٤٩) ابن خلدون : المقدمة، ص١٩٣.

(٥٠) المقرى : نفسه، ج١، ص١٠٤.
(٥١) الجرجانى : التعريفات.

(٥٢) ابن فرحون : تبصرة الحكام.
(٥٣) سورة الحج/ ٧٨.

(٥٤) سورة البقرة/ ١٨٥.
(٥٥) سورة المائدة/ ٦.
(٥٦) سورة البقرة/ ٢٨٦.

(٥٧) أنور الرفاعى : الإسلام فى حضارته ونظمه، ص١٥٦.

(٥٨) سورة النساء/ ٤٢.
(٥٩) سورة المائدة/ ٩٠.

(٦٠) مصطفى الرافعى : حضارة العرب، ص١٤٤-١٤٥.

الفصل السابع
النظام الحربى

الجيش :

لم يعرف العرب قبل الإسلام الجيوش النظامية كما عرفها الفرس والرومان والمصريون الفراعنة.. وغيرهم. ولكنهم عرفوا الحرب على شاكلة الإغارات المفاجئة أو الهجوم الخاطف التى تشنه قبيلة على أخرى. ومع ذلك نستطيع القول بأن القبائل العربية من اللخميين (المناذرة) والغساسنة عرفوا نوعاً من الجنود النظامية بحكم احتكاكهم بالدولتين الكبيرتين آنذاك وبحكم أنهم كانوا يدافعون عن حدود هاتين الدولتين الفرس والرومان.

وبعد ظهور الإسلام، وبعد أن تمت هجرة النبى ﷺ والمسلمين إلى يثرب، وبدأت قوة الدولة الإسلامية فى الاستقرار وأصبح المسلمون أهلا للدفاع عن دينهم وعن حياتهم بالحرب أذن الله عز وجل لهم بذلك (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)(١).

ومع ذلك لم يكن للدولة الإسلامية فى عصر الرسول ﷺ وفى عصر الراشدين من بعده جيش منظم بمفهوم الجيش وإنما وجد مجاهدون يتطوعون بمحض رغبتهم للدفاع عن دينهم وأعراضهم وأوطانهم وأموالهم ورد الأذى عن أنفسهم وذلك بالتصدى للمعتدين الظالمين، البغاة على من دخلوا فى الإسلام وقتال هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله ويتعرضون للدعوة الإسلامية. وقد نزلت الآيات القرآنية تعطى المسلمين حق القتال ضد هؤلاء، مع عدم الاعتداء بحيث لا يبدأ المسلمون القتال بدون أسباب، لأن دين الإسلام دين سلام ودين حب وعدالة ومساواة، وهو دين يدعو للاستقرار النفسى والاجتماعى للبشر كافة. بدليل قوله تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)(٢).

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)(٣)، (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير)(٤)، (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال)(٥).

وإلى جانب هذه الأسس التى وضعها الإسلام للحرب والقتال نجده يدعو المؤمنين إلى

الثبات فى ميدان القتال، ويأمرهم بعدم الفرار من أمام الكفرة أعداء الله والدين والإنسانية، يتمثل ذلك فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار. ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)(٦).

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)(٧). ولأن دين الإسلام دين سلام فقد أعطى للسلم أهمية كبرى، وأمر المسلمين أن يجنحوا للسلام ولكن بشرط أن يجنح هؤلاء المعتدون إلى هذا السلام (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)(٨) لأن هناك فارق كبير بين السلام والاستسلام، الذى يؤدى إلى ضعف الدولة الإسلامية وإذلال المؤمنين، والله عز وجل يأبى ذلك لدينه وأمة الإسلام بعد أن منح عبادة المؤمنين شيئاً من عزة الإيمان وعزة النفس يدلنا على ذلك قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)(٩).

وكان الرسول القائد ﷺ يسمح للنساء بالإسهام فى الغزوات والحروب وكان عملهن قاصراً على الأعمال الإنسانية لمن يحتاجها من المجاهدين المقاتلين مثل تضميد الجروح والعناية بالجرحى، وتهيئة الطعام وتقديمه، وتقديم المياه وتجهيز القرب التى تحمل فيها هذه المياه، والعناية وحفظ مهمات المجاهدين المقاتلين التى تكون عادة فى المؤخرة من ساحة القتال. وقد لعبت بعض النساء دوراً بارزاً فى إثارة الحماس فى نفوس المجاهدين، وذلك بالضرب على الدفوف أو بقول الشعر الذى يدفعهم إلى الذود عن حرماتهم وحريمهم وشرفهم وكرامتهم وعزة نفوسهم ومن أشهر هؤلاء النساء رفيدة الأسلمية وأختها كعبة، ونسيمة بنت كعب المازنية التى صدت عن النبى ﷺ إحدى الضربات التى تلقتها بجسمها فى غزوة أحد فأصيبت من ذلك بجرح غائر شديد.

وقد قنن الرسول ﷺ الأسس التى يجب على المقاتلين (الجيوش) إتباعها أثناء الغزو حتى لا تمتد أيدى الغزاة بالأذى إلى المواطنين الأبرياء فمن وصاياه لقواده وجنوده قوله : «أغزوا باسم الله، وفى سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا امرأة ولا وليدا» وكان عليه السلام ينهى الغزاة عن النهب والسلب من ذلك قوله : «من انتهب نهبة فليس منا» كما نهى ﷺ عن التفريق بين السبى ووليدها أو بين الأولاد وأمهم، «من فرق بين والدة وولدها فرق الله

بينه وبين أحبته يوم القيامة».

وقد سار على هديه ونهجه الخلفاء الراشدون، فى فتوحاتهم الإسلامية فمن وصايا أبى بكر للمجاهدين : «... لا تخونوا، ولا تغلوا ولا تغرروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيراً، ولا شيخاً كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع دعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

ومن وصايا عمر بن الخطاب لقائد جيش الفتح المتجه إلى العراق وهو سعد بن أبى وقاص قوله : «وترفق بالمسلمين فى سيرهم ولا تجشمهم سيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو بقيم، حامى الأنفس والكراع - الخيل - وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم، ويصلحون أسلحتهم وأمتعتهم ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإذا وطئت أرض العدو فاذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك من أمرهم شئ.. واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخص أحدا بهوى، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك».

التجنيد الإجبارى فى الدولة الإسلامية

رأينا كيف أن المسلمين كانوا يتطوعون جهاداً فى سبيل الله وينخرطون فى سلك الجيوش الإسلامية المرسلة للفتوح فى عهد أبى بكر ومن بعده عمر. إلا أن حادثة دفعت أمير المؤمنين عمر إلى موقف حازم فى موضوع التجنيد، فعندما ندب عمر المسلمين لحرب فارس والروم وجد تقاعس بعض الناس رهبة وخشية من قسوة جنود هاتين الدولتين الكبيرتين فى الحروب، عندئذ عمد عمر إلى الحزم فى تجنيد المسلمين فبعث كتبه إلى الأقاليم لتجنيد المقاتلة وقد جاء فى هذه الكتب : «ولا تدعوا أحداً من أهل النجدة، ولا فارساً إلا جلبتموه، فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه» أى أن عمر طلب من الولاة فى الأقاليم والأمصار أن لا يتركوا أحداً ممن يقدرون على القتال - أهل النجدة - ولا مقاتلا فارساً إلا دعوه وأحضروه وبعثوا به سواء جاء طائعاً أو مجبراً لتأدية هذا الواجب الدينى والوطنى. ومن هنا يرى بعض المؤرخين أن بداية

نظام التجنيد الإجبارى كان فى عهد عمر بن الخطاب.

بينما يرى البعض الآخر أن هذا النظام الإجبارى حدث فى عصر بنى أمية وفى عهد عبدالملك بن مروان على وجه الخصوص.

فعندما أراد أن يخمد الثورات التى اشتعلت فى عهده أرسل إلى الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق ليقضى على ثورات الخوارج وينضم بجنوده إلى جيش المهلب بن أبى صفرة. عندئذ لم يجد الحجاج مفراً من تطبيق مبدأ التجنيد الإجبارى فدعا الناس إلى الإنضمام إلى صفوف الجيش فى ظرف ثلاثة أيام، وأنذر من يتخلف بتوقيع عقوبة الإعدام عليه، باعتباره متخلفاً عن واجب دينى ووطنى خطير يدخل فى نطاق الخيانة العظمى فقال : «.. وإنى والله لا أجد رجلاً تأخر بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه» ولذلك كان الرجل يسرع إلى معسكر الجيش قبل أن يستكمل معداته ويهيئ طعامه ويطلب إلى أهله أن يوافوه بها فى المعسكر العام خارج المدينة خوفاً من انتقام الحجاج منه، وبهذا ظهرت الجندية الإجبارية. لأن الجندى كان يجهز جميع ما يحتاجه من معدات القتال وما يحتاجه من طعام، ولم تكن الدولة ملزمة بذلك.

وفى عصر الدولة العباسية اندمج فى الجيش العباسى عناصر أخرى غير العناصر العربية التى كانت عماد الجيش منذ نشأة الدولة الإسلامية فى عهد الرسول وحتى نهاية الدولة الأموية، هذه العناصر كانت من الفرس الأعاجم ثم من الأتراك وقد لعب العنصر الأول دوراً مهماً جداً فى قيام الدولة العباسية، ثم طغى العنصر الثانى عليه بعدما كثرت أعداده وهيمنت قيادته وتوغلت فى الجيش والقصر وأصبح الصراع قائماً بين العنصرين. ولم يكن لهؤلاء الجنود إلا الطمع فى المال ولذلك عرفوا فى المصادر التاريخية بالجنود المرتزقة. وقد دفعهم الجشع والشطط إلى المطالبة بمرتب ثلاث سنوات أو أكثر تدفع لهم مقدماً قبل التحرك للقتال، ولذلك عبر ابن الأثير عن مثل هذه المواقف بقوله : «كانت الجندية فى العصر العباسى مهنة مربحة». وقد أسقطت الدولة العباسية فى عهد الخليفة المعتصم بالله أسماء العناصر العربية من ديوان الجند (العطاء)، ونتيجة لما حدث من نزاع بين العناصر العربية والعناصر الأعجمية (ظهور الأحزاب) اضمحل النفوذ العربى فى الدولة العباسية، وتسلط الأعاجم على مقدرات الدولة، وسلبت من الخليفة سلطاته وأصبح رمزاً معنوياً للدولة فقط. من أمثلة هذا النزاع مقتل أبى سلمة الخلال أول وزراء العباسيين، ثم مقتل أبى مسلم الخراسانى على يد الخليفة

المنصور ونكبة البرامكة فى عهد الرشيد، ثم النزاع بين الأمين والمأمون، وقيام الدولة الحمدانية بعد ذلك.

ولم يتورع بعض الخلفاء العباسيين وقوادهم من الإستعانة بالعناصر الأجنبية المعادية للدولة نفسها، فقد استعان الخليفة الراضى بالله (٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٤-٩٤١م) بالقرامطة وأدخلها فى صفوف جيشه، ولم يسلم هو من أذاهم، إذ ثاروا عليه وانضموا إلى ابن رائق الذى عمل على أن يستأثر بالنفوذ والسلطان دون الخليفة «واستجاش بألف من القرامطة وجاء بهم إلى بغداد فأكثروا فيها الفساد»(١٠).

وعندما استبد البويهيون بالنفوذ فى الدولة العباسية منذ ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م أصبح الجيش خليطاً من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراغنة والمغاربة وغيرهم من المرتزقة. كما أصبح للجيش قائدان أحدهما للديلم فقط، والآخر لبقية العناصر(١١) كما كان للجيش مجلسان هما:

مجلس التقرير : وينظر فى رواتب الجند وأوقات دفعها إليهم. ومجلس المقابلة : ويختص بالإشراف على سجلات الجند ومراجعة أسمائهم. وكان كل مجلس منهما يضم أقساماً معينة من الجند مثل : جند الخاصة وجند الخدمة العسكرية، وجند الولايات(١٢).

وكان الجيش منذ عصر الأمويين وما بعدهم يشمل الفرق الآتية :

١ - المشاة : وكانت أسلحتهم السيوف والرماح والأقواس والسهام ويلبسون البيض (الخوذ) والدروع.

٢ - الفرسان : وسلاحهم الرماح والسهام وكان الجنود الخراسانيين من أبرع من سددوا السهام وهم على متون الخيل.

٣ - الطلائع : الطليعة سرية من الفرسان يتقدمون الجيش عادة للاستكشاف والاستطلاع.

٤ - الكشافة : وكان عملها الرئيسى الاستطلاع، ويقال إن القائد قتيبة بن مسلم استخدم الكشافة فى رسم خرائط البلاد التى كان ينوى غزوها.

٥ - النشابون (الرماة) : وهؤلاء الرماة كانوا يسمون رماة الحدق لمقدرتهم الفائقة على تحديد وإصابة الهدف الذى يريدونه.

٦ - النفاطون : وهم مثل قاذفى القنابل حالياً، وكانت مهمتهم إلقاء النفط على الحصون التى يراد إحراقها.

٧ - المنجنيقيون : رماة المنجنيق ورئيسهم يسمى أمير المنجنيقيين، وهم بمثابة المهندسين العسكريين حالياً.

٨ - العيارون : وهم رماة الأحجار من المخالى (جمع مخلة).

٩ - المعماريون : وكانوا يحملون المعاول مع التروس والسيوف.

١٠- مستشفيات الميدان : أماكن تبعد عن مسرح القتال بمسافة معقولة لمعالجة الجرحى، بواسطة الأطباء والصيادلة الموجودين بها، وكانت النقالات عبارة عن محفات تحملها الإبل.

١١- العيون (الجواسيس) : عرف العرب هذا النظام قبل الإسلام، وقد استخدمه الرسول ﷺ قبيل غزوة حنين إذ بعث عبدالله الأسلمى وأمره أن يدخل بين صفوف العدو ويقيم فيهم ويقف على أخبارهم ثم يأتيه بما علمه منهم ونجح الأسلمى فيما كلف به.

وفي عهد الأمويين والعباسيين كان العيون يتسترون وراء زى التجار أو طلبة العلم وخصوصاً الأطباء ويدخلون أراضى العدو ويقيمون بها ويلتقطون الأخبار. وقد استخدم العباسيون بعض النساء فى التجسس على أعدائهم ومن المرجح أنهم نقلوا ذلك من الدولة البيزنطية التى كان أهلها أساتذة للعرب فى هذه الفنون الحربية، قبل أن تقوى الدولة الإسلامية وتطور كل الجوانب الحضارية حسب مقتضيات الإسلام والمسلمين.

وكانت الاستراتيجية العسكرية فى ميدان القتال تدعو إلى تقسيم الجيش إلى خمسة أقسام هى : القلب وفيه قائد الجيش، والميمنة، والميسرة، والمقدمة، والساقة، وكانت المقدمة بمثابة سرية (أو طليعة) من الفرسان يلبسون الدروع اللامعة والخوذ الفولاذية ويحملون الرماح.

ويصف لنا مؤرخ عربى[١٣] منظر هذا الجيش أثناء تحركه فيقول : « ... إن منظر الجيش العربى وهو يشق طريقه فى صفوف لا نهاية لها فى بلاد الأعداء، قد بلغ حد العظمة والبهاء». فكان الفرسان يسيرون فى المقدمة، وعلى جانبيهم حملة النبال، ثم يأتى بعدهم الرجال (المشاة) اللذين كانوا يسيرون فى صفوف متراصة بنظام عجيب، ويليهم صفوف الجمال المحملة بالخيم والعتاد والعدد.

ثم تأتى بعدهم المستوصفات الصحية والنقالات لحمل المرضى والجرحى. ثم آلات الحرب كالمنجنيقات والعرادات محملة على ظهور الجمال والخيول والبغال وهى تسير فى المؤخرة. فإذا

وصل الجيش الرئيسى نصبت الخيم فى نظام بديع، وأقيمت الشوارع والأسواق والميادين كما لو كان المعسكر مدينة عامرة، وكانوا لا ينامون إلا بعد الهزيع الأول من الليل».

فى مصر :

وفى مصر اتخذ أحمد بن طولون جيشاً كثير العدد من النوبيين والسودانيين والروم، وكان فى قصره مكان يشرف منه على الجيش أثناء العرض العسكرى وقد بلغ الجيش فى عهده مائة ألف جندى.

وزاد منظر الجيش روعة وبهاء فى عهد ابنه خمارويه الذى أدخل فى خدمته مجموعة من قطاع الطرق ضخام الأجسام معروفين بالشجاعة والبأس يسمون أولاد الحوف وشناترة الضياع.

وقد بلغ عدد جنود الجيش فى عهد الأخشيد أربعمائة ألف مقاتل، يزاد عليهم الحرس الخاص والعبيد والمماليك الذين كانوا يملأون القصر وقد بلغ عددهم ٨٠٠٠ رجل.

وفى العصر الفاطمى بلغ اهتمام الخلفاء الفاطميين شأوا كبيراً بالجيش الذى كان يتكون من الأمراء وطوائف الجند. مثل المغاربة والأتراك والأكراد والغز والديلم والسودان، وكانت بعض هذه العناصر تنسب نفسها إلى الخلفاء أو الوزراء مثل الحافظية (نسبة إلى الحافظ) والآمرية (نسبة إلى الآمر) والجيوشية والأفضلية[١٤]... إلخ (أمير الجيوش بدر الجمالى، الأفضل بن بدر الجمالى).

وقد بلغ عدد الجند الإسلامى فى أواخر عهد الرسول ﷺ ثلاثين ألفاً من المشاة، وستة آلاف فارس. وفى أيام أبى بكر الصديق بلغ مائة وخمسين ألفاً ثم وصل إلى ما يقرب من ثلاثمائة ألف فى أواخر عهد الراشدين.

وفى عهد بنى أمية بلغ جنود العراق مائة وأربعين ألفا، وفى مصر أربعون ألفاً، وفى الشام مثلهم ما عدا الذين كانوا فى فارس وغيرها.

وفى عهد العباسيين يتراوح عدد الجنود ما بين ١٣٥ ألف جندى، ٩٠٠,٠٠٠ جندى، ووصل عدد الجنود فى مصر فى عهد الأخشيد ٤٠٠,٠٠٠ بالإضافة إلى ٨٠٠٠ مملوك. وكانت الرتب فى الجيش العباسى كالآتى :

- العريف رئيس على عشرة رجال.

- النقيب رئيس على مائة رجل.
- القائد رئيس على ألف رجل.
- أمير التعبئة رئيس على خمسة آلاف رجل.
- أمير الجيوش رئيس على عشرة آلاف رجل.

البحرية الإسلامية

نشأتها :

تؤكد الدراسات التاريخية أن العرب فى عصورهم القديمة عرفوا ركوب البحر، وحملوا تجارات الشرق الأقصى وتجارات القرن الأفريقى ونقلوا إلى هذه الأماكن البعيدة بعضاً من تجارة جزيرتهم وكذلك تجارات الفرس والروم والشام ومصر، ولكن بمرور الزمن ونتيجة لما أصابهم من ضعف حتى أنهم وقعوا تحت الاحتلال الفارسى، والاحتلال الحبشى (فى اليمن) أهملوا ركوب البحر إهمالاً كبيراً، واتجهوا إلى الطرق البرية يرتادونها فى حمل هذه التجارات وكانت لهم رحلتان كبيرتان أساسيتان لمثل هذه التجارة رحلة الشتاء إلى الجنوب ورحلة الصيف إلى الشمال(١٥).

وقد علل ابن خلدون(١٦) وسار على نهجه بعض المؤرخين المحدثين(١٧) انصراف العرب عن ركوب البحر والاشتغال بالملاحة لأن بلادهم صحراء تندر فيها الأشجار التى تصلح أخشابها لصناعة السفن الكبيرة القوية. وباستثناء اليمن فإن بلاد العرب تخلو من معدن الحديد اللازم لصناعة المراسى والمسامير، ومن القطران المستعمل فى دهان السفن حتى لا تتسرب إليها المياه، ثم إن الملاحة فى البحر الأحمر كانت محاطة بالأخطار لكثرة الصخور والشعاب المرجانية التى تعترض سبيل السفن.

ومع تقديرنا لمثل هذه الآراء فى أسباب ابتعاد العرب عن الاشتغال بالملاحة، إلا أننا ننفى هذه الأسباب، لأن مصر لا ينمو بها أشجار تصلح لصناعة السفن، ومع ذلك كانت مصر أول بلد قامت بهذه الصناعة منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا بعد أن استوردت الأخشاب اللازمة لهذه الصناعة من فينيقية (لبنان)، ثم أن العرب فى عمان كانوا يستوردون الأخشاب اللازمة لصناعة السفن على تعدد أشكالها والأغراض التى صنعت من أجلها من الهند

وسرنديب (سيلون) وغيرهما من بلدان الهند[١٨] ولا تزال هذه الصناعة البحرية موجودة فى عمان وفى غيرها من بلدان الخليج العربى حتى يومنا الحاضر.

ومع ذلك فقد كان ظهور الإسلام عاملاً حاسماً فى تاريخ العرب، فبعد أن حقق لهم وحدتهم السياسية، وجعل منهم أمة قوية يرهب جانبها، حيث تغلبت الدولة العربية الناشئة فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر على الدولتين العظميتين آنذاك وهما الفرس والروم، فقد وصلت فتوحات المسلمين فى عهد عمر إلى كل البلدان الساحلية الممتدة من جبال طوروس شمالاً وحتى حدود برقة غربى مصر. وأصبح من الضرورى للدولة الإسلامية أن يكون لها أسطول بحرى يحمى هذه البلدان الساحلية ويدافع عنها أمام هجمات الأسطول البيزنطى الذى كانت له السيادة على البحر المتوسط حتى عرف هذه البحر باسم (بحر الروم).

وقد لجأ العرب فى أول الأمر إلى اتخاذ سياسة دفاعية عن هذه البلدان الساحلية. فقاموا بتحصين ثغورها وموانيها الهامة، ووضعوا فيها حاميات قوية حتى يمنعوا البيزنطيين من العودة إلى هذه البلدان واستعادتها عن طريق هجوم بحرى بأسطولهم. وقد وضعت هذه الحاميات فى اللاذقية وطرابلس وصور وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت على ساحل بلاد الشام، وكذلك فى الأسكندرية وتنيس ودمياط والبرلس ورشيد على ساحل مصر، وقد امتدت حتى ساحل برقة.

ونجحت هذه السياسة الدفاعية فى حماية الشام ومصر فى أول الأمر، ولكن الدولة البيزنطية انتهزت فرصة افتقار العرب المسلمين إلى أسطول بحرى، وفكرت فى استعادة الشام ومصر إليها، وفعلا أمر الامبراطور الرومانى قنسطانز الثانى بخروج حملة بحرية بقيادة أعظم قواده وهو القائد مانويل للاستيلاء على الأسكندرية، ولم يلبث أن بعث بحملة بحرية أخرى إلى الشام حتى يمنع مساعدة أى إقليم للآخر.

وفى سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م فاجأ الأسطول البيزنطى الأسكندرية وتغلب على الحامية العربية بها[١٩] - على الرغم من استماتتها فى الدفاع عن المدينة - وأسرع أمير المؤمنين عمر بإرسال عمرو بن العاص إلى مصر، وضرب عمرو الحصار على الأسكندرية وقد احتمت الحملة البيزنطية بها، وطال الحصار ولم يتمكن عمرو من اقتحام المدينة إلا بواسطة أحد المصريين الذى أرشده إلى أحد أبواب الأسكندرية الضعيفة الحراسة والتحصين، وانقض عمرو

بقواته على الحامية البيزنطية الموجودة لحراسة هذا الباب وأعمل فيهم القتل، وتدافعت الجنود البيزنطية تقاتل بشراسة والمسلمين مستميتون فى القتال حتى أحرزوا النصر على البيزنطيين بعد أن قتلوا القائد مانويل ومعه كثير من جنوده. وبذلك استطاع العرب القضاء على حملة الروم البحرية بعد عناء وتضحيات جسيمة جعلتهم يفكرون جيداً فى سياسة جديدة لمواجهة الأسطول البيزنطى.

بدأت فكرة إنشاء أسطول عربى تظهر على الساحة العربية فى عهد عمر بن الخطاب، وكان أول الداعين إليها معاوية بن أبى سفيان الذى كان والياً على الشام، والذى مر بتجارب قاسية أثناء الفتح العربى لهذا الإقليم، والذى كان طموحاً إلى غزو جزر البحر المتوسط، والذى وعى الدرس جيداً من هجمات البيزنطيين على سواحل الشام ومصر، وما صادفه عمرو بن العاص من صعاب لعدم وجود أسطول عربى إسلامى يمنع تدفق الإمدادات على الحامية البيزنطية فى الأسكندرية بواسطة الأسطول البيزنطى.

أراد معاوية أن يدعم الوجود العربى الإسلامى فى هذه المناطق بوجود أسطول يعمل بأوامره، وكان يرمى إلى الاستيلاء على جزر البحر المتوسط التابعة للروم، والتى كانت قواعد بحرية للأسطول البيزنطى، ومنها خرجت الإمدادات لمهاجمة العرب المسلمين فى المدن الساحلية. فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى غزو قبرص وشرح له مدى خطورة هذه الجزيرة على سلامة المدن فى الشام وقد جاء فى كتابه : «يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص»[٢٠] ثم ختم كتابه بطلب الإذن له بغزو قبرص.

ولم يكن أمير المؤمنين لينفرد بإصدار مثل هذا القرار، فلابد من عرضه على مجلس الشورى، أهل العقد والحل من صحابة رسول الله ﷺ ووجد عمر بثاقب نظره أن يعرض الموضوع على قائد خبير ليقف على رأيه صراحة فكتب إلى عمرو خاصة وأن عمرا فاتح مصر والأسكندرية، ولمصر سواحل ومدن على البحر المتوسط مثل الشام، ولأن مصر تعرضت للهجمات البحرية من الأسطول البيزنطى كذلك.

وأرسل عمرو بن العاص برأيه كتابة إلى عمر بن الخطاب فقال : إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، هم فيه مثل دود على عود،

إن سال غرق وإن لجا برق»(٢١). تريث عمر فى الموافقة على طلب معاوية، ولجأ إلى الحرص على حياة المسلمين، حيث قال لمعاوية فى رده على ما طلب «تالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم».

ولجأ معاوية إلى ما عرف به من دهاء ومكر وحيلة، فطلب من عمر أن يسمح له بتقوية وسائل الدفاع فى مدن الساحل، وأن يرتب فيها المقاتلة، وأن يقيم الحرس على مناظرها، وأن يتخذ لها المواقيد(٢٢). وبذلك بدأ معاوية فى جعل هذه المدن حصوناً وقواعد عسكرية تخرج منها الجيوش الإسلامية مستقبلا. فاتخذ لهذه المدن نظام الرباطات (الأربطة) التى ارتبطت أشد الارتباط بالجهاد أو الحرب المقدسة. لأن الرباط كان يضم مجموعة من الحصون يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لهجمات أساطيل بيزنطية. وهو فى نفس الوقت (أى الرباط) مكان حصين يلجأ إليه الأهالى فى المدن التى تتعرض لهجوم بيزنطى.

ويرى بعض المؤرخين أن عدم موافقة أمير المؤمنين عمر على إنشاء أسطول بحرى كما طلب معاوية يرجع إلى خوفه شخصياً من ركوب البحر، وأنه كان متأثرا بهزيمة المسلمين فى الخليج (الفارسى حينذاك) عندما غزا العلاء بن الحضرمى والى البحرين بلاد الفرس فى البحر فداهمتهم جحافل الفرس وحالت بينهم وبين ركوبهم السفن التى جاءوا بها فغرقوا جميعاً وقضى على المجاهدين فى تلك الواقعة(٢٣).

والحقيقة أن عمر لم يكن يخش ركوب البحر، ولا يخاف على المسلمين من ركوبه، ولكنه كان يدرك تماماً أن العرب حديثى عهد بالتعامل مع البحر، وأن العدو البيزنطى أكثر خبرة وأوسع نشاطاً وتمرساً فى شئون البحار وثقافتها والتعامل معها. ولذلك لم يرد أن يدفع بالجنود المسلمين لخوض غمار معارك ليست فى صالحهم آنذاك(٢٤).

وعندما ولى عثمان بن عفان شئون الخلافة عاود معاوية طلب إنشاء الأسطول والسماح له بغزو قبرص، وعضده فى هذا الأمر عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر بعد عمرو بن العاص.

ووافق عثمان على طلب معاوية بشرط ألا يحمل الناس فى البحر على غزو قبرص كرهاً، وأن يصحب معه زوجته. وكتب له «فإن ركبت البحر ومعك امرأتك، فأركبه مأذوناً لك وإلا فلا»(٢٥).

وقد لعبت مصر فى نشأة الأسطول العربى دوراً مهماً حيث كان معاوية يرسل الأخشاب من الشام وتقوم مصر بصناعتها سفناً شامخة وترسل بها إلى معاوية، الذى خرج على رأس أول حملة بحرية بأسطول عربى لغزو قبرص سنة ٣٨هـ/ ٦٥٨م، ولم يكن المسلمون قد ركبوا بحر الروم قبل هذه الغزوة[٢٦]، وقد اشترك الأسطول المصرى مع الأسطول الشامى فى غزو قبرص[٢٧] كما أسهم فى موقعة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ[٢٨]/ ٦٥٤م وقد انتصر المسلمون فيها انتصاراً حاسماً جعل لهم السيطرة على مياه البحر المتوسط والتفوق على الأسطول البيزنطى[٢٩].

ولكن معاوية لم يفد من هذا النصر العظيم بسبب مقتل الخليفة عثمان وانشغاله بالمطالبة بدمه ابتداء من سنة ٣٥هـ/ ٦٥٥م ويبدو أن معاوية أراد أن تكون دار صناعة السفن على مقربة منه فأمر بإنشاء دار لها فى عكا، وظلت عكا دار الصناعة فى الشام إلى أن نقلها المروانيون إلى صور[٣٠].

ومع ذلك فقد ظلت مصر على اتصال دائم بشئون الشام، كما ظهر التعاون البحرى بينهما جلياً طوال العصر الأموى. وتشير بعض أوراق البردى العربى فى عهد والى مصر قرة بن شريك[٣١] سنة ٩٠هـ/ ٧٠٨-٧٠٩م إلى حرص الأمويين على المحافظة على التعاون البحرى بين الشام ومصر، الذى يعتبر حجر الزاوية فى صرح الأسطول العربى منذ نشأته.

وقد اهتم الطولونيون بإنشاء المراكب الحربية إلى جانب المراكب التجارية التى تبحر فى النيل محملة بالبضائع. وكانت هذه المراكب تصنع فى جزيرة الروضة والفسطاط. وعندما رأى الفاطميون تهديد البيزنطيين لملكهم قاموا ببناء السفن فى القاهرة والأسكندرية ودمياط. وقد بلغ عدد السفن التى بناها المعز لدين الله الفاطمى ٦٠٠ سفينة ولكن الأسطول الفاطمى أخذ فى الضعف بعد عهد المعز لدين الله.

وفى عهد صلاح الدين الأيوبى كان الاهتمام بالأسطول المصرى كبيراً نظراً لمجابهة الصليبيين ومحاربتهم والتصدى لعدوانهم وغاراتهم على البلدان الإسلامية[٣٢].

وقد نهج الظاهر بيبرس فى عصر المماليك نهج صلاح الدين فى العناية بالأسطول.

البحرية المغربية الأندلسية :

أخذت بيزنطة تهمل شئون قواتها البحرية منذ أواخر القرن الثانى للهجرة/٨م بعدما

أهملت الدولة الإسلامية شئون بحريتها منذ قيام الدولة العباسية نظراً لاتجاه هذه الدولة نحو الشرق فى سياستها، وبذلك أصبح البحر المتوسط شبه خالٍ من سفن المسلمين وسفن الروم على حد سواء.

وانتهز المغرب الإسلامى فرصة إنفصاله عن العباسيين فى الثلث الأخير من القرن الثانى للهجرة وأخذ يعد نفسه ليكون له الدور الأساسى فى ضرب البحر المتوسط. وساعدتهم الظروف بقيام اضطرابات فى داخل الدولة البيزنطية وإنشغالهم بحروب مع البلغار فى عهد ليون الخامس، ثم بإنشغالهم فى إخماد ثورة توماس التى نشبت فى أعقاب مصرع ليون فى ٢٥ ديسمبر ٨٢٠م/٢٠٥هـ. وقد استمرت هذه الإضطرابات الثلاث سنوات الأولى من حكم الإمبراطور البيزنطى ميشيل الثانى ٨٢١-٨٢٣م تلك السنوات التى كان لها خطرها وتأثيرها الواضح فى النواحى السياسية والاجتماعية والدينية(٣٣).

وبذلك تمكن المغربيون والأندلسيون من بسط سيطرتهم على القسم الغربى والأوسط من حوض البحر المتوسط. وقد ساعد المسلمين على التفوق على البيزنطيين عدة عوامل أهمها :

١ - امتداد السواحل المغربية والأندلسية وكثرة المراسى. حيث يصل طولها فى سواحل تونس الممتدة إلى سواحل ليبيا حوالى ١٤٠٠كم.

٢ - سيطرة المسلمين على الجزر الواقعة أمام السواحل المغربية، والأندلسية، فقد تمكن المسلمون من غزو هذه الجزر وفتحها مثل جزيرة صقلية التى تقع بين سواحل تونس وسواحل إيطاليا، ومنذ أن فتحها الأغالبة فى بداية القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، وأصبح زمام الطرق البحرية فى غرب البحر المتوسط فى أيديهم. كما خضعت بقية الجزر مثل سردانيه، وميورقة، ومنورقة، وقوصرة وقرقنة وجوبة وغيرها كثير إلى سلطة المسلمين.

٣ - وفرة الأخشاب والمواد اللازمة لصناعة السفن. فقد وجدت أخشاب الصنوبر فى بلاد المغرب والأندلس وصقلية وهذه الأخشاب من الأنواع الجيدة لصناعة السفن وسواريها والمجاديف وكذلك الألياف المستعملة فى ربط الألواح (تدسير) والقلفطة مع القطران وغير ذلك من هذه المواد.

٤ - اتصال المغرب والأندلس بالمشرق الإسلامى وتأثرهما بالحضارة المشرقية. فقد كثرت وفود

أهل المغرب والأندلس إلى المشرق الإسلامى، كما وفد كثير من أهل المشرق إلى الأندلس التماساً للعلم من منابعه، أو سعياً للتجارة أو لأداء فريضة الحج. وكانت معظم هذه الرحلات تتم عن طريق البحر ومن هؤلاء نذكر الرحالة ابن جبير الأندلسى.

وكان للرحلات التجارية فى البحر بين مدن وموانى الأندلس، والمغرب، وبين الأسكندرية والشام، أو بعض جزر البحر المتوسط كان لهذه الرحلات أثر كبير فى وصول الملاحين المسلمين إلى درجة ممتازة فى علم البحار ومعرفة مسالك البحر ودروبه.

تدهور البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس :

أخذت القوى البحرية فى المغرب وصقلية فى التدهور والإضمحلال تدريجياً بعد رحيل الفاطميين من المهدية إلى مصر وعلى الرغم من المحاولتين اللتين قام بهما الزيريون فى إنشاء أسطول أفريقى فى المهدية عامى ٣٦٥، ٤١٦هـ/ ٩٧٦-١٠٢٥م إلا أن المحاولتين فشلتا تماماً.

وقد سارت البحرية الأندلسية بعد عصر الدولة العامرية فى نفس طريق التدهور والإضمحلال الذى سارت فيه البحرية التونسية. فقد أعقب سقوط الخلافة الأموية، وتدهور النظام والأمن فى البلاد، وتفتت الوحدة السياسية للأندلس أن انقسمت البلاد إلى دويلات مستقلة حافظت كل منها على استقلالها على قدر استطاعتها. ولذلك لم يكن فى استطاعة هذه الدويلات أن تحتفظ بأساطيل قوية تعمل بأوامر السلطة المركزية فى قرطبة عاصمة الخلافة كما كان الحال من قبل.

وحتى المرية التى ظلت بعد سقوط الخلافة فى قرطبة تحتفظ بأسطول أندلسى قوى فى زمن دويلات الطوائف. فقد أحرق معز الدولة بن المعتصم قطع هذا الأسطول عندما تغلب المرابطون على المرية[٣٤].

وقد لعب النورمان فى جنوب إيطاليا الدور الأخير فى إنهاء سيطرة الأسطول الإسلامى على القسم الغربى والأوسط من البحر المتوسط عندما استولوا على جزيرة صقلية بعد سقوط سرقوسة آخر معقل إسلامى فيها سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧ ثم استولوا على مالطة، وتحكموا فى المضايق الحيوية بين أفريقية وصقلية[٣٥].

وقد اشتهرت السفن العربية بوجه عام بكبر حجمها وكثرة عدد مجاديفها حتى يسهل

على البحارة تحريكها فى مقابلة الرياح المضادة وإلى جانب السفن الكبيرة وجدت سفن متوسطة وصغيرة لتكون سريعة وخفيفة الحركة، وكانت هذه السفن مخصصة لمساعدة السفن الكبيرة من الأسطول، وبعضها للحراسة. ومن أشهر أنواع سفن الأسطول العربى الإسلامى[٣٦] :

١ - الشينى : الشونة (وجمعها شوانى) : وتمتاز بطولها وكثرة مجاديفها (١٤٠ مجدافاً) وبأبراجها وقلاعها المخصصة للهجوم والدفاع. بها مخازن للمؤن والميرة والمياه العذبة تكفى بحارتها مدة زمنية طويلة. وصفها شاعر[٣٧] بقوله :

أنشــأت شــوانى طائرة	وبنيت على مــاء مــدنا
ببروج قــتــال تحسبهــا	فى شم شــواهقــهــا قننا
ترمى ببــرج إن ظهــرت	لعــدو مــحــرقــة بطنا
وبنفط أبيض تحسبــه	مــاء، وبه تذكى السكنا

٢ - الغراب (وجمعها الأغربة) : وهذه السفن قريبة الشبه بالشوانى، وكانت مقدمتها على شكل رأس الغراب، ولذلك سميت به، واشتهرت الأغربة بالبأس الشديد وإنزال الرعب فى قلوب الأعداء. ويمكن تشبيه هذين النوعين بالمدمرات فى السفن الحربية الحديثة.

٣ - الحراقة (جمعها حراريق وحراقات) : هذه السفن أقل حجماً من الشوانى، ومهمتها رمى العدو بالنار الأغريقية (مثل القنابل الحارقة)، وتمتاز بوجود المجانيق عليها لقذف العدو بهذه القنابل. وكان للخليفة الأمين خمس حراقات فى نهر دجلة مقدماتها على شكل الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس. وقد عرف هذا النوع من السفن فى الأندلس وعند الأغالبة وعند الفاطميين فى مصر.

٤ - الطراد / الطريدة (جمعها طرائد) : وهى سفن صغيرة سريعة الإبحار، تستعمل لحمل الجنود والفرسان والخيول، وتتسع الواحدة لأربعين فارساً بخيولهم وكان بمؤخرتها فتحة لكى يسهل على الخيل الصعود إليها أو النزول منها وهى تشبه العبارات فى أيامنا الحالية.

٥ - الحربية (جمعها حربيات وحرابى) : وهى قريبة فى شكلها وحجمها من الحراقة، تمتاز بسرعتها وخفة حركتها، استخدمت فى مصر الفاطمية، وفى المغرب والأندلس، يمكن تشبيهها بلنشات قاذفات الطوربيد حالياً.

٦ - الشلندى (الشلنديات) : من السفن الحربية الكبيرة أهميتها قريبة من الشوانى والحراريق، ولكنها مسطحة لحمل الجنود والسلاح والبضائع وهى تشبه الصنادل أو المواعين المستخدمة حالياً. وتسمى في الأندلس باسم الأجفان الغزوية.

٧ - البطسمة (جمعها بطس)(١) : نوع كبير من المراكب، له عدة طوابق، يشغل كل طابق منها فئة معينة من الجنود بأسلحتها، مزودة بعدد كثير من القلوع تقدر بحوالى ٤٠ شراعاً، وحمولتها من الجنود حوالى ٧٠٠ جندى عدا حمولتها من الذخيرة والميرة. وهى تشبه البعبعة حالياً وهى سفن نقل الجنود.

٨ - القرقور (القراقير) : مهمتها الأساسية نقل الزاد والكراع (المؤن والذخيرة) لسفن الأسطول، ولكنها اختصت فيما بعد بحمل المؤن والزاد بينما جعلت الحمالة (الحمالات) لنقل الذخيرة(٣٨). أصل اسمها بالأسبانية (كاراكا).

وقد استخدمت أنواع أخرى من السفن كانت أقل أهمية من التى سبق ذكرها مثل :

الجلبة، والغيطانى، والعشارى، والسميريات، والعجزى، والنواشى، والقتاش، والأغزارى، والمركوش.

كما وجدت أنواع أخرى متعددة للتجارة وكان خطها الملاحى قاصراً على بلدان الخليج العربى وبلدان الشرق الأقصى(٣٩).

وقد أشار القرآن الكريم فى كثير من آياته إلى السفن التى عرفها الإنسان منذ عهد نوح - عليه السلام - مثل قوله تعالى (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون)(٤٠)، وقوله تعالى (وحملناه على ذات ألواح ودسر، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر)(٤١)، (وترى الفلك مواخر فيه)(٤٢).

الأسلحة وآلات القتال البحرية

كان رجال البحرية المقاتلون يتسلحون بأنواع متعددة من الأسلحة نذكر منها :

** اللتوت والدبابيس والمستوفيات : وهى أعمدة من حديد لها رؤوس مستطيلة الشكل مضرسة، ورؤوس الدبابيس مستديرة غالباً.

** السيوف والرماح والفؤوس : وكل نوع من هذه الأسلحة يوجد منه عدة أنواع.

** الأقواس والنشاب : وهى تختلف باختلاف صناعتها.

** الكلاليب : وهى تشبه الخطاف الحديدى، يرمى به على مراكب العدو، فينغرس فى خشبها، فيجذبها البحارة ويحاربون من فيها.

** الباسليقات : الباسليقة عبارة عن سلسلة حديدية ينتهى طرفها بكرة من الحديد، تستخدم فى القتال على سطح السفن.

** المنجنيق : آلة مصنوعة من خشب سميك جداً مهمتها قذف الأحجار الضخمة على أهداف العدو لتدميرها. كما استخدم فى قذف النفط أو جرار الزيت المغلى.. إلخ.

** العرادة : تشبه المنجنيق ولكنها أقل حجماً منه، وتستخدم كذلك فى رمى الحجارة وقدور النفط والسهام.

حواشى الفصل السابع

(١) سورة الحج/ ٣٩. (٢) سورة البقرة/ ١٩٠. (٣) سورة الأنفال/ ٦٠.
(٤) سورة الأنفال/ ٣٩. (٥) سورة الأنفال/ ٦٥. (٦) سورة الأنفال/ ١٥-١٦.
(٧) سورة الأنفال/ ٤٥. (٨) سورة الأنفال/ ٦١. (٩) سورة المنافقون/ ٨ .

(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١١، ص١٨٩.

(١١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام، ج٣، ص٢٨٣ معتمداً على ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه : ج٣، ص٤٠.

(١٢) متز : الحضارة، ج٢ ص١٢٥ معتمداً على كتاب الخراج لقدامة بن جعفر.

(١٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب، ص٣٧٧.

(١٤) القلقشندى : صبح، ج٣، ص٤٨٠.

(١٥) راجع سورة قريش/ ١-٢. (١٦) المقدمة، ج٢، ص٦٢٨.

(١٧) فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية، ج٢، ص٣٣.

(١٨) راجع كتابنا : العلاقات التجارية بين دول الخليج ومدن الشرق الأقصى فى العصور الوسطى، الأسكندرية، ١٩٧٩. وكذلك : صناعة السفن ومعرفة العرب ركوب البحر (بحث) منشور فى مجلة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة سنة ١٩٩٣م.

(١٩) ابن عبدالحاكم : فتوح مصر، ص١٥٧. (٢٠) الطبرى : تاريخ، ج٥، ص٥١.

(٢١) الطبرى : ج٥، ص٥٢.

(٢٢) البلاذرى : فتوح البلدان، ص١٣٤ وما بعدها. (٢٣) الطبرى : ج٤، ص ٧٩-٨١.

(٢٤) أحمد الشامى : صناعة السفن (مجلة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة) سنة ١٩٩٣.

(٢٥) البلاذرى : فتوح، ج١، ص٩٨١. (٢٦) فتحى عثمان : ج٢، ص٣٣٨.

(٢٧) ابن عبدالحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس، ص٢٥٥.

(٢٨) البلاذرى : فتوح، ج١، ص١٥٩.

(٢٩) إبراهيم العدوى : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم، ص٦٤.

(٣٠) البلاذرى : فتوح، ج١، ص١٤٠.

(٣١) مجموعة بردى هايدلبرج وقد نشر منها ما يخص عهد قرة بن شريك المستشرق كارل هنرى بيكر.

(٣٢) أحمد الشامى : استراتيجية صلاح الدين فى استرداد بيت المقدس - بحث منشور بواسطة هيئة اليونسكو بمناسبة مرور ٨٠٠ سنة على وفاة البطل صلاح الدين سنة ١٩٩٤.

(٣٣) فاسيليف : البيزنطيون والعرب، ج١ ص٢٨ (مترجم).

(٣٤) ابن الخطيب : أعمال الإعلام، ص٢٩٢.

(٣٥) لويس/ ارشيبالد : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ص٢٧٦.

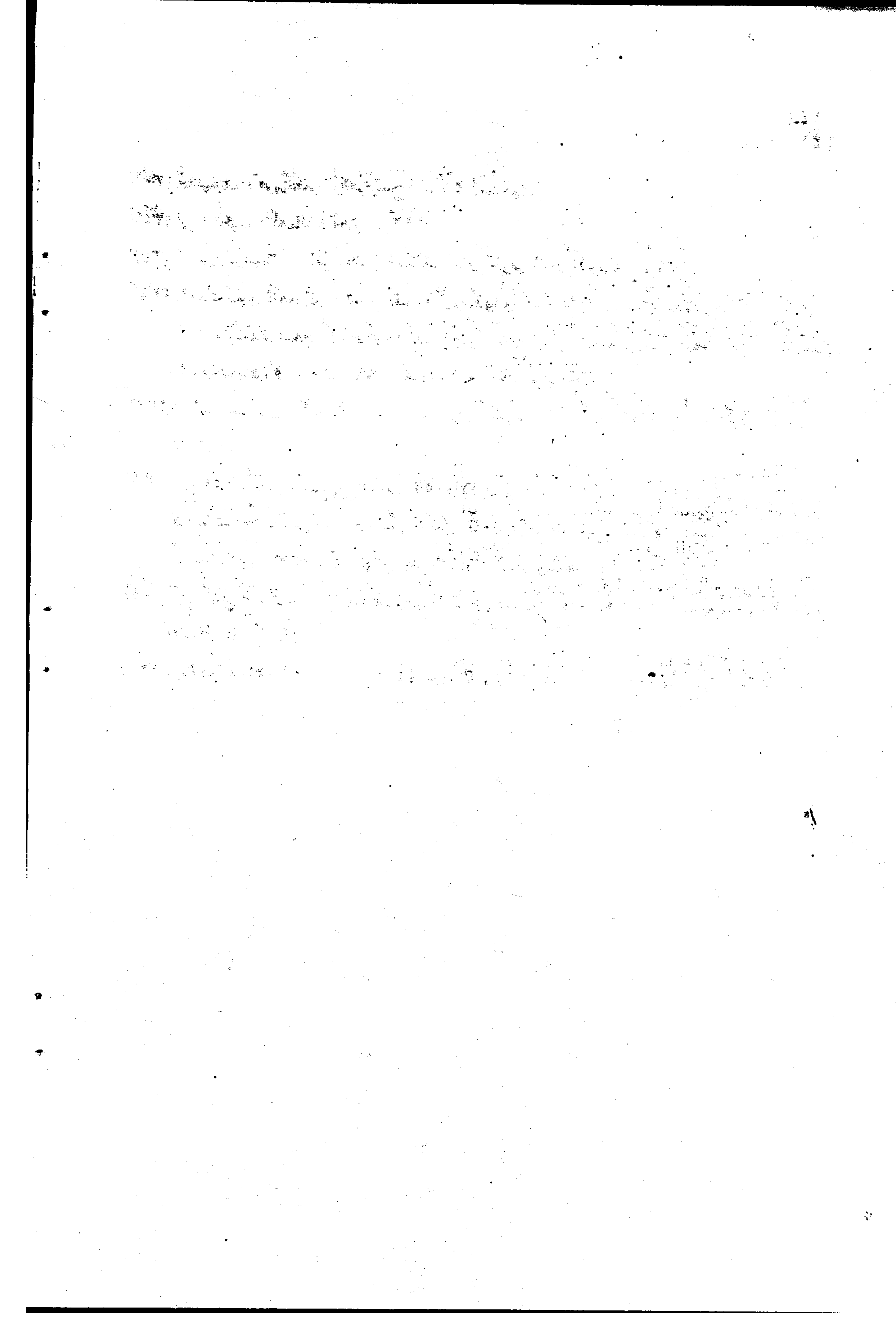
(٣٦) راجع تفصيل ذلك وأنواع السفن المتعددة ووصفها واستعمالاتها فى بحثنا بعنوان : «العرب وركوب البحر وصناعة السفن وأنواعها» فى ندوة إنجازات الحضارة الإسلامية فى عالم البحار، باتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة فى نوفمبر ١٩٩٣ وقد نشر البحث فى كتاب الندوة.

(٣٧) هو أبو حمد يس، قالها لأحد أمراء بنى زيرى بالمغرب الأدنى، أنور الرفاعى : الإسلام فى حضارته، ص٢١١.

(٣٨) راجع القلقشندى : صبح، ج٣، ص٥٢٣، والإدريسى : نزهة المشتاق، ص١٧٩. وكلمة كاراكا أو كراكا تدل حالياً على نوع من السفن الكبيرة المجهزة بمعدات خاصة مهمتها تعميق مداخل الموانى، وتعميق الممرات المائية داخل الموانى حتى لا تتعثر السفن وتصطدم بقاع البحر. (المؤلف).

(٣٩) راجع أنواع هذه السفن وأسماءها ومميزاتها فى كتابنا : «العلاقات التجارية»، ص٢٠-٢١، الأسكندرية، ١٩٧٨.

(٤٠) سورة هود/ ٣٧، ٤١. (٤١) سورة القمر/ ١٣-١٤. (٤٢) سورة النحل/ ١٤.



الفصل الثامن

النظم الاجتماعية

تقوم البنية الاجتماعية للمجتمع الإسلامى على أسس تختلف عن غيرها فى المجتمعات الأخرى السابقة عليها من حيث القيم الأخلاقية والمفاهيم الدينية التى يقوم عليها هذا المجتمع، لأن النظام الاجتماعى فى الإسلام يقوم على مجتمع حر لا يعرف العبودية إلا لله الواحد القهار.

وقد أخذ الرسول ﷺ فى تطبيق هذا النظام الاجتماعى بالتدريج حتى تقوى أسسه وتتعمق جذوره ويزيل ما كان سائداً قبل الإسلام فى مجتمعات شبه الجزيرة العربية من فساد وإنحلال وتسلط ليؤسس بذلك مجتمعاً جديداً تتفق نظمه الاجتماعية مع ما جاء به الإسلام، ومع ذلك فقد أقر الإسلام القليل من النظم الاجتماعية المتوارثة عند العرب والتى لم تتعارض مع أسس النظام الاجتماعى للدين الجديد.

والأساس الذى يقوم عليه النظام الاجتماعى فى الإسلام هو تنظيم العلاقات فى جوانبها المتعددة بين الأفراد بعضهم وبعض وبين الفرد والدولة (بينَ الحاكم والمحكوم) لضمان مصالح كل منهما بما يكفل العدالة الاجتماعية فى المجتمع. وقد نهج الرسول ﷺ هذا النهج عندما استقر فى المدينة المنورة، وأخذ يرسى دعائم بناء المجتمع وأعلن أول دستور اجتماعى سياسى تضمنته الصحيفة المعروفة ليكون هذا الدستور هو الأساس والقاعدة للمجتمع الإسلامى كله. فقد آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فنشأت الأمة الإسلامية وقامت على أروع وحدة توجد فى نظام اجتماعى، فقد حلت الأخوة محل العصبية القبلية وتلاشت الأنساب وصلة القرابة وبرزت صلة الدين الواحد والعقيدة الواحدة متمثلة فى دين الإسلام إنطلاقاً من معنى الآية القرآنية (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)(١). وقد تمكنت هذه الأخوة من قلوب أهل المدينة وهم الأنصار لدرجة أنهم كانوا يفضلون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، وقد سجل القرآن الكريم لهم هذا الفضل فى قول الله تبارك وتعالى (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)(٢).

ومن النظم التى أوجدها الإسلام كذلك الزكاة، وهى ركن أساسى من أركان الدين وحق معلوم للفقراء فى أموال الأغنياء من المسلمين، وقد أشار القرآن الكريم لذلك فى الآية الكريمة (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)[٣] والغرض الأساسى من الزكاة هو التكافل الاجتماعى بين أفراد الأمة كلها لتزداد صلة الترابط والتماسك بينهم وقد عبر الرسول ﷺ عن ذلك بقوله : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٤].

الـزواج :

ومن النظم الاجتماعية التى عني الإسلام بها وأولاها أهمية خاصة الزواج لأن الأسرة هى اللبنة الأساسية فى بناء وتكوين المجتمع، وعن طريق الزواج تنضبط فطرة الإنسان، ويتحقق له التوازن الاجتماعى والنفسى، وتسمو أخلاقه، ويتحقق استمرارية البقاء للجنس البشرى عن طريق الإنجاب، ويؤكد القرآن الكريم هذه المعانى فى قوله تعالى (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون)[٥].

وقد أقرت الشريعة الإسلامية الغراء بعض الأعراف والعادات التى كانت موجودة عند العرب قبل الإسلام، والتى تتفق وفضائل الأخلاق وكريم الطباع، فكانوا يحرمون على الرجل أن يتزوج بأمه، وبنته وأخته وعمته وخالته، وبنت الأخ، وبنت الأخت، فجاء الإسلام وأقرهم على هذا العرف، وأيد هذا التحريم فى قوله تعالى (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت)[٦] وكان كثير من العرب لا يجمعون بين الأختين، فأقر الإسلام هذا العرف (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف)[٧]، وكانوا يكرهون زواج أكبر الأبناء بزوجة أبيه بعد وفاته، بل كثير منهم كانوا يمقتون هذا الزواج ويبغضونه ولذلك سموه زواج المقت، وأطلقوا على الإبن الذى يولد نتيجة هذا الزواج (المقتى)[٨]. فلما ظهر الإسلام أقر هذا العرف (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا)[٩].

حقيقة أن العرب عرفت أنواعاً أخرى من الزواج مثل نكاح الاستبضاع[١٠]، ونكاح الخدن[١١]، وزواج المتعة[١٢] وزواج الشغار[١٣]، وتعدد الزوجات[١٤]، ولكن الإسلام حرم

هذه الأنواع من الزواج لمضارها الاجتماعية والخلقية واختلاط الأنساب وعدم مواءمة هذه الأنواع من النكاح مع الفطرة الإنسانية السليمة.

وربما يقول قائل إن الإسلام أباح تعدد الزوجات كذلك، وردنا على ذلك أن الشريعة الإسلامية قيدت هذا التعدد بأربع زوجات فقط كما أوردته الآية القرآنية الكريمة (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع)[١٥] كما أن الشريعة الإسلامية أباحت هذا التعدد لضرورات أحصاها الفقهاء، ووضعت له شروطاً من أهمها العدل بين الزوجات، ومع كل هذه القيود والاشتراطات نجد أن الإسلام يحث على الاكتفاء بزوجة واحدة، يتضح ذلك فى قوله تعالى (وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم)[١٦].

والزواج حق من حقوق الرجل والمرأة على حد سواء، ولكى يكون الزواج شرعياً ومتفقاً مع ما جاء به الإسلام لابد أن يتوفر فيه القبول والإيجاب، وقد اشترط الفقهاء لصحة عقد الزواج هذه الشروط :

١ - توافق إرادتى المتعاقدين على وجه ينتج عنه أثره الشرعى وهذا ما يعبر عنه بالإيجاب من جانب الزوج، والقبول من جانب الزوجة، وهذه الإرادة يعبر عنها بالمشافهة لفظاً وبالكتابة تحريراً، وبالإشارة المتداولة عرفاً، كما تكون باتخاذ موقف لا تدع ظروف الحال شكاً فى دلالته على حقيقة المقصود[١٧]. والسبب فى ذلك يرجع إلى أن الزواج عقد بين شخصين، ولابد من فهم كل واحد من المتعاقدين ما يصدر عن صاحبه[١٨].

٢ - اتحاد المجلس أى لا يكون هناك فاصل زمنى بين الإيجاب والقبول، بل ينبغى أن تتم موافقة كل من المتعاقدين (العروسين) فى مجلس واحد، وأن يكونا سامعين لكلام بعضهما، وعدم مخالفة الإيجاب للقبول.

٣ - أن يشهد على العقد شاهدين من العدول، وقد وصل عدد الشهود على أحد عقود الزواج فى العصور الوسطى أربعين شاهداً[١٩].

٤ - أن لا يكون هناك مانع شرعى[٢٠] بين العروسين.

٥ - وقد اختلف الفقهاء فى الشرط الخامس وهو حضور ولى العروس وحضور الشهود، فقد أجاز بعضهم عدم حضور ولى أمر العروس والشهود، واستنكره البعض الآخر[٢١] ولكل من الجانبين أسانيده التى يعتمد عليها فى تدعيم رأيه، وليس هنا مجال مناقشة هذه الآراء.

٦ - الصداق (المهر) : وردت كلمات متعددة في القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبوية الشريفة تعريفاً لهذا المدلول، ففي قوله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة)(٢٢)، (وآتوهن أجورهن فريضة)(٢٣)، وفي حديث رسول الله ﷺ للرجل الذي أراد أن يتزوج وليس معه ما يقدمه للمرأة التي يريد أن يتزوجها، قوله (أمهرها ذلك الخاتم)(٢٤) وقد جمع الفقهاء الأسماء السبعة للصداق(٢٥) في بيت الشعر الآتي :

صداق ومهر نحلة وفريضة   حبا وأجر ثم عقر علايق

وليس في التشريع الإسلامي تحديد لقيمة المهر، لأن هذه القيمة تختلف من شخص لآخر حسب الحالة الاجتماعية، ولدينا أمثلة متعددة لقيمة هذا الصداق في عصور مختلفة(٢٦). ولا يشترط أن يكون الصداق ديناراً أو درهماً أو أية عملة أخرى، بل يجوز أن يكون سلعة تباع وتشترى ولها ثمن معلوم، مثل القمح أو التمر أو الشعير ونحو ذلك، وإن كان العرف قد جرى على أن يكون الصداق مالاً.

والزواج في حد ذاته آية من آيات الله جعله رحمة أهداها إلى عباده رجالاً ونساء، والقرآن الكريم يوضح ذلك في قوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)(٢٧) فالرجل لا يستطيع الاستغناء عن المرأة، والمرأة لا يمكن لها الاستغناء عن الرجل، فكل منهما في حاجة إلى الآخر لكي تستمر الحياة وتعمر الدنيا بوجودهما ووجود ذريتهما من بعدهما، ومع ذلك فقد أوجبت الشريعة على الرجل أن يكفل لأسرته الحياة الكريمة، وأن يوفر لها ما أحل الله له من الرزق، ويقوم على رعايتها وتربية الأبناء تربية إسلامية إنطلاقاً من المسئولية التي دفع الإسلام بها إلى عنق الرجل، والقرآن الكريم والسنة الشريفة يقرران ذلك «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)(٢٨)، (وللرجال عليهن درجة)(٢٩).

الطلاق :

أباح التشريع الإسلامي الطلاق كعلاج ضروري للمشاكل التي يستعصى حلها والتي تجعل استمرار الحياة الزوجية مستحيلة، ومع ذلك يقول الرسول ﷺ عن الطلاق «إنه أبغض الحلال عند الله»، لأنه يفصم العلاقة بين الزوجين، ويسلب الأبناء حب وعطف وحنان

الوالدين، ويهدم كيان الأسرة. وقد بينت الشريعة الإسلامية الطريقة التي يتم بها هذا الطلاق حفاظاً على كرامة المرأة وعلى إنسانيتها، وجاءت بعض أحكام هذا الطلاق في سورة كاملة في القرآ الكريم هي سورة الطلاق(٣٠).

والطلاق حق من حقوق الرجل، إلا إذا ملك زوجته أمرها، وأصبحت العصمة في يدها ونص على ذلك صراحة في عقد الزواج، ومع ذلك فالاختلاف كبير بين الفقهاء منذ عهد الصحابة وحتى يومنا هذا في مسألة تطليق الزوجة نفسها من زوجها، وهل يحق لها أن تطلق نفسها ثلاثاً فتبين بينونة كبرى، أو يكون طلاقها ذلك طلقة واحدة رجعية، ولزوجها عليها حينئذ حق إعادتها لعصمته؟

فالإمام مالك(٣١) (رضي الله عنه) يروى في هذه المسألة عن خارجة بن زيد بن ثابت أنه كان جالساً عند أبيه زيد فأتاه محمد بن عتيق وعيناه تدمعان، فقال له زيد : ما شأنك؟ فقال : ملكت امرأتي أمرها ففارقتني. فقال له زيد : وما حملك على ذلك؟ قال : القدر. فقال زيد : ارتجعها فإنما هي طلقة واحدة وأنت أملك بها.

ويروى أن مروان بن الحكم قضى بطلقة واحدة رجعية في امرأة رجل من ثقيف ملكها أمرها فطلقته ثلاث تطليقات، وذلك بعد أن استحلفه أنه لم يملكها إلا مرة واحدة، وكان الإمام مالك يستحسن هذا الرأى ويحب العمل به(٣٢).

ويرى بعض الفقهاء أن شرط الله مقدم على شروط الزوجة في عقد الزواج، وللزوج إن شاء وفى بوعده، وإن شاء تزوج على زوجته أو اتخذ سرية، ولا تطلق الزوجة الثانية، ولا تعتق السرية(٣٣).

ومن عجيب ما أورده أبو حنيفة النعمان في هذا المجال، ما قضى به علي بن أبي طالب في رجل تزوج امرأة وشرط لها أن الجماع بيدها والفرقة إليها. فقال علي له : خالفت السنة، ووليت الحق غير أهله. وقضى أن على الزوج الصداق، وبيده الجماع والطلاق، وأبطل ما كان في العقد من شروط.

وهناك فريق من الفقهاء يختلف مع ما سبق ذكره، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل ويعتمدون في ذلك على حديث لرسول الله ﷺ : «إن أحق الشروط أن توفوا بها هي ما استحللتم به الفروج(٣٤)». وهؤلاء الفقهاء يجيزون مثل هذه الشروط في عقد الزواج،

ويقولون إن القوانين تقر مثل هذه الشروط إن كانت قد كتبت فى وثيقة الزواج[٣٥] باعتبار أن العقد شريعة المتعاقدين.

وفى رأينا أن مثل هذه الشروط كانت رد فعل من جانب المرأة على عادات الرجل فى المجتمعات العربية، لإقباله على تعدد الزوجات واتخاذ السريات فى تلك الأزمان السابقة، وقد تلاشت مثل هذه الأمور فى مجتمعات اليوم، ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين الميلادى، بسبب تطور وسائل الحياة وما يحيط بها من ظروف قاسية تجعل الشباب يكدح ويلهث للحصول على شئ من المال ليشق به طريقه فى الحياة، ويقدمه صداقاً للاقتران بزوجة واحدة يتطلع إليها سنوات حتى يوفق للزواج منها.

ويقرر التشريع الإسلامى عدم خروج الزوجة من بيتها إذا حدث الطلاق بل ينبغى على زوجها (مطلقها) أن يبقيها فى بيتها حتى تنتهى عدتها كما جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله وباليوم الآخر)[٣٦] وذلك لوضوح الأمر ومعرفة إذا ما كانت الزوجة المطلقة حاملا أم لا حتى لا تختلط الأنساب وينسب الطفل إلى والده. وقوله تعالى (يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا)[٣٧]. وهكذا يؤكد التشريع الإسلامى على احترام حقوق المرأة وعلى صيانة إنسانيتها وعلى حمايتها أمام أى طغيان من جانب الرجل، ثم إن التشريع يعطى الفرصة للرجل والمرأة فى مراجعة كل منهما لموقفه ونفسه بعد أن تهدأ نفس كل منهما ويعود إلى صوابه وهدوئه لتعود الحياة الزوجية بينهما كما كانت من قبل، وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا).

وقد حدد التشريع الإسلامى عدد مرات الطلاق التى يجوز للزوج فيها مراجعة زوجته وإعادتها إلى عصمته حتى بدون رضاها، ومتى تصبح الزوجة المطلقة محرمة على زوجها التى طلقها، ومتى تحل له وفى أى الظروف، يتبين ذلك فى قوله تعالى (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا... إلخ (فإن طلقها فلا تحل له من بعد ذلك حتى تنكح زوجاً غيره، فإن طلقها فلا جناح عليهما أن

يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون)[٣٨] والمقصود هنا فإن طلقها للمرة الثالثة أى بعد المرتين الأولتين.

حقوق المرأة فى الإسلام :

لقد أعطى الإسلام المرأة المسلمة من الحقوق ما لم يعطه لها أى دين سابق على الإسلام، ولم تحظ بمثل هذه الحقوق فى أى قانون وضعى فى أى بلد من بلاد الدنيا، لأن المرأة تتساوى مع الرجل فى كثير من الحقوق والواجبات، وقد جاء ذكر النساء فى عشر سور من القرآن الكريم[٣٩] تعرض التشريع فيها إلى شئون المرأة وحقوقها وواجباتها نحو دينها ونحو نفسها ونحو والديها ونحو زوجها وأبنائها.. إلخ، ومن الآيات التى تدل على المساواة بين الرجل والمرأة قوله تعالى (يا أيها الناس أتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا)[٤٠]. وقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة)[٤١]. (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة)[٤٢]. (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى)[٤٣].

وحديث رسول الله ﷺ إلى الرجل الذى سأله عن أحق الناس بحسن صحبته، حيث قال له الرسول ﷺ أمك وكررها ثلاث مرات، وفى الرابعة قال له أبوك.

هذا الحديث يدل بوضوح على تكريم التشريع الإسلامى وتقديره وتعظيمه للمرأة المسلمة باعتبارها الأم شريك الرجل فى تكوين الأسرة وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمع. ومن البديهيات المسلم بها أن للمرأة حقوقها الكاملة فى أن تتعلم وتتفقه، وتدرس ما تتعلمه، وأن تتصرف فى مالها الخاص (ليس فى مال زوجها) طالما أن هذا التصرف فى أمور مشروعة ومعقولة، كما أن لها الأهلية الكاملة فى ممارسة التجارة بالبيع والشراء وإبرام العقود.

وكما أعطى التشريع المرأة حقوقها فقد وضع عليها واجبات وفرض عليها مسئوليات باعتبارها امرأة مسلمة ولها مكانتها فى المجتمع وعليها يقع العبء الأكبر فى تربية النشأ فهى المدرسة الأولى لغرس القيم وتهذيب النفوس وتقويم السلوك لأطفالها، وقد عبر الشاعر عن ذلك حقيقة بقوله :

الأم مدرسة إن أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق

ومن رحمة الله بالمرأة المسلمة نجد أن التشريع قد خفف عنها القيام ببعض ما يكلف به الرجل، فهى لم تكلف بالغزو والقتال كما يكلف الرجل، ولكن إذا تطوعت من نفسها للقيام بمثل هذا العمل فليس عليها من حرج. وتاريخ المسلمين يقص علينا ما قامت به بعض النساء من دور فعال فى غزوات رسول الله ﷺ حيث قمن على تضميد الجروح ونقل الجرحى من المسلمين إلى خارج ميدان المعركة، وتقديم المياه للجنود(٤٤).

وإذا كان بعض المستشرقين يثيرون موقف التشريع من ميراث المرأة ومن شهادتها أمام القضاء ويرون فى ذلك إنقاصاً من حقوقها (ميراث الرجل يعادل ضعف ميراث المرأة، وشهادة الرجل تعادل شهادة امرأتين) يقرر القرآن ذلك فى قوله تعالى : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين)(٤٥)، (وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين)(٤٦) وقوله تعالى (... واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى)(٤٧).

وللرد على هؤلاء نقول : إن الإبن هو الذى يتحمل مسئولية الأسرة كلها بعد وفاة أبيه، وهو ملزم بالنفقة على أمه وعلى إخوته الصغار ذكوراً وإناثاً، وملزم كذلك برعايتهم والنظر فى مصالحهم، ومن ثم كانت عدالة التشريع فى مضاعفة قيمة الميراث له، لأن الأنثى سوف تتزوج وتنتقل إلى بيت الزوجية، وزوجها مكلف بها شرعاً، وليس عليها من نفقة لأمها وأخواتها، فمن العدل أن يكون نصيبها فى الميراث نصف نصيب أخيها.

أما موضوع الشهادة فردنا عليه أن الآية القرآنية الكريمة تتضمن السبب - أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى - وليس للمخلوق أن يعقب على الخالق سبحانه وتعالى، فالله أعلم بما خلق، وقد اقتضت حكمته ورحمته لأسباب ترجع إلى تكوين المرأة نفسها، اكتشفها علماء الطب ووقف عليها الفقهاء أخيراً، مما يدل بوضوح تام على رحمة الله أن جعل للمرأة من يذكرها إن هى وقعت فى النسيان.

وفى رأينا ليس فيما ورد بالتشريع الإسلامى من أحكام مماثلة ما يمس كرامة المرأة أو ينتقص من حقوقها الكاملة، أو ينال من قدرها وتقديرها واحترامها، كما أن هذه الأحكام لا تنطوى على تمييز للرجل أو تفرقة بينه وبين المرأة. لأن الإسلام دين عدالة ومساواة وأخوة ومحبة وسلام.

حواشى الفصل الثامن

(١) سورة الحجرات/ ١٠. (٢) سورة الحشر/ ٩.

(٣) سورة المعارج/ ٢٤. وفى سورة الذاريات/ ١٩ (وفى أموالهم حق معلوم).

(٤) راجع صحيح البخارى ومسلم (باب النكاح).

(٥) سورة النحل/ ٧٢. (٦) سورة النساء/ ٢٣. (٧) سورة النساء/ ٢٣.

(٨) أحمد الشامى : تاريخ العرب والإسلام، ط٣، ص٥٣.

(٩) سورة النساء/ ٢٢. وتفسير ابن كثير، ج١ ص٤٦٨.

(١٠) راجع صحيح البخارى بشرح القسطلانى، ج٨ ص٢٥.

(١١) سورة النساء/ ٢٥ «محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان».

(١٢) بكن : الزواج، ص٦٠٨. (١٣) الصنعانى : ج٣ ص٢٠٠ أورد الحديث كاملاً.

(١٤) أحمد الشامى : المرجع السابق، ص٥٧ وما بعدها.

(١٥) سورة النساء/ ٣. (١٦) سورة النساء/ ٣.

(١٧) فتح القدير (باب النكاح)، أحمد الشامى : التطور التاريخى لعقود الزواج فى الإسلام، ص٢١.

(١٨) ابن قدامة : المغنى، ج٦ ص٥٣٤. (١٩) أحمد الشامى : عقود الزواج، ص٣٠.

(٢٠) من هذه الموانع الشرعية ما جاء فى القرآن الكريم سورة النساء/ ٢٣.

(٢١) راجع تفصيل ذلك فى كتابنا عقود الزواج، ص٣٥، هـ ٤٥.

(٢٢) سورة النساء/ ٤. (٢٣) سورة النساء/ ٢٤.

(٢٤) موسى : الفقه الإسلامى، ص٢١٩. (٢٥) الأزهرى : الجواهر، ص١٤.

(٢٦) راجع تفاصيل هذه الأمثلة فى بحثنا «عقود الزواج، ص٢١-٢٥.

(٢٧) سورة الروم/ ٢١. (٢٨) سورة النساء/ ٣٤.

(٢٩) سورة البقرة/ ٢٢٨. (٣٠) سورة رقم ٦٥ فى القرآن الكريم.

(٣١) الموطأ : ج٢ ص١٧-١٨، والباجى : المنتقى، ج٤ ص٢٠ وما بعدها.

(٣٢) موسى : مرجع سابق، ص٢١٩.

(٣٣) أبو حنيفة النعمان : كتاب دعائم الإسلام، ج٢ ص٣٢٥، والسرية هى المرأة التى يتملكها الرجل شراء بماله فتصبح ملك يمينه.

(٣٤) ابن تيمية : نظرية العقد، ص١٥٥.

(٣٥) البرديسى : الأحوال الشخصية (باب الصيغة والشرط) ص٢٧.

(٣٦) سورة البقرة/ ٢٢٨. (٣٧) سورة الطلاق/ ١.

(٣٨) سورة البقرة/ ٢٢٩-٢٣٠.

(٣٩) نذكر منها سورة النساء، والطلاق، والبقرة، والتحريم، والمجادلة، والممتحنة، والمائدة، والأحزاب، والنور.

(٤٠) سورة النساء/ ١. (٤١) سورة النساء/ ١٢٤.

(٤٢) سورة النحل/ ٩٧. (٤٣) سورة العمران/ ١٩٥.

(٤٤) راجع تفصيل ذلك فى كتابنا «تاريخ العرب والإسلام» غزوات رسول الله.

(٤٥) سورة النساء/ ١١.

(٤٦) سورة النساء/ ١٧٦.

(٤٧) سورة البقرة/ من آية رقم ٢٨٢.

الفصل التاسع
العلوم والآداب

يبدو تأثير الفنون الإسلامية فى مجالات اللغة والتاريخ والجغرافيا والأدب واضحاً بشكل ملموس فى الحضارات الأوروبية الحديثة التى ظهرت بداية من عصر النهضة Renaissance ، ذلك لأن الإسلام أتاح المناخ الفكرى الحر عند المسلمين المشتغلين بالعلوم والآداب والفلسفة وغيرها فأسهم هؤلاء العلماء فى إثراء الحضارة الإسلامية فى كافة مجالاتها، وقدموا من إنتاجهم الفكرى والعلمى ما بهر العالم ودفع المعتدلين من علماء الغرب الأوروبى إلى الاعتراف صراحة بأن ما قدمه علماء المسلمين من إنتاج فكرى فى المجالات المتعددة كان النواة والأساس اللذين بنى الغرب الأوروبى عليهما حضارته.

وقد اشتغل المسلمون بنوعين من الدراسة، دراسة دينية تتضمن القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، ودراسة دنيوية تتضمن الطب والفلسفة والكيمياء والرياضيات والتاريخ والجغرافيا.. إلخ. وقد عبر ابن خلدون[1] عن هذين النوعين بصدق حين قال : «إن العلوم صنفان، صنف طبيعى للإنسان يهتدى إليه بفكره، وصنف نقلى يأخذه عمن وضعه. والأول يشمل العلوم الحكمية الفلسفية وهى التى يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدى بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها، والثانى يشمل العلوم النقلية وهى مستندة إلى الخبر عن المشرع، ولا مجال فيها للعقل إلا فى إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول. وزاد ابن خلدون على ذلك فقال : إن العلوم العقلية أو الطبيعية مشتركة بين الأمم لأن الإنسان يهتدى إليها بطبيعة فكره، وأما العلوم النقلية كلها فمختصة بالملة الإسلامية وأهلها». والعلوم النقلية تشمل علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو واللغة، والأدب. أما العلوم العقلية فتشمل الفلسفة، والهندسة، وعلم الفلك (النجوم) والموسيقى والطب والكيمياء والرياضيات والتاريخ والجغرافيا[2].

وقد تميزت بعض المدن الإسلامية فى العصور الوسطى بوجود مدارس علمية وأدبية وعلماء أفذاذ لعبوا دوراً بارزاً فى تطور ونمو وازدهار الحضارة الإسلامية، من هذه المدن البصرة والكوفة، وبغداد، وأصبهان والرى (فى بلاد الفرس) وبخارى وسمرقند (فى بلاد ما وراء

النهر) وغزنة (حاضرة الدولة الغزنوية) وحلب فى الشام والقاهرة فى مصر. وفى هذا الفصل سوف أتعرض بالدراسة لهذه العلوم.

الترجمة :

والحقيقة أن الحضارة الإسلامية بدأت بوادرها فى الظهور فى أواسط عصر الدولة الأموية وكان السبب فى تأخر ظهورها إنشغال المسلمين بالفتوحات لنشر الإسلام، وعدم الاستقرار السياسى فى الدولة لوجود فتن وأحزاب مثل الشيعة والخوارج، مما أدى إلى انشغال المسلمين وابتعادهم عن الجوانب العلمية المتعددة، ولكن عندما قضى العباسيون على الدولة الأموية (الدولة العربية) واستقرت الأمور لها، وجد المسلمون وخاصة فى بلدان الشرق الإسلامى الفرصة الكافية للاشتغال بصنوف العلوم المتعددة، وساعدهم على ذلك تشجيع الخلفاء لهم، وبذلك اتسعت دائرة الحضارة الإسلامية عن طريق ترجمة علوم السابقين من الأمم كالفرس واليونان والهند ومصر[٣] وإن اقتصرت هذه الترجمات على ما يتعلق وحاجة المسلمين في العصر العباسى الأول إلى علوم الطب والرياضيات، ثم اشتملت عملية النقل والترجمة على نواحى العلوم المختلفة. وقد ساعد على ذلك أن مراكز الحضارة فى العالم القديم دخل معظمها ضمن دار الإسلام (تابعة للدولة الإسلامية) مثل الأسكندرية[٤] وحران[٥] وجنديسابور[٦].

ويعتبر الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان أول عربى مسلم اتجه إلى معالجة العلوم القديمة فأمر بترجمتها حيث كلف شخصاً يدعى (اصطفان) بترجمة بعض البحوث الكيماوية التى كانت معروفة وموجودة فى الأسكندرية فى عصره، ثم قام - أى خالد - بالتأليف فيها. ومما يذكره ابن خلكان[٧] أنه أخذ صنعة الكيمياء عن رجل من الرهبان يقال له (مريانس الرومى)، ويذكر الرازى فى مقدمة كتابه (سر الأسرار) أن خالداً من بين الأساتذة الذين تعلم من كتاباتهم. ثم إن بعض كتابات خالد بن يزيد فى علم الكيمياء قد عرفت فى أوروبا فى العصور الوسطى، فقد ذكر جورج سارتون أن رسالة فى الكيمياء من تأليف خالد قد ترجمت إلى اللاتينية بعنوان : "De Compositione alchemia" كانت تدرس فى مدارس أوروبا فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى. ويذكر ابن النديم فى (الفهرست) أن خالداً أول من ترجمت له كتب فى الطب وعلم النجوم مع كتب الكيمياء. ويبدو أنه اهتم بعلم الجغرافيا كذلك، فقد ذكر القفطى[٨] فى ترجمة خالد بن يزيد أنه رأى بنفسه فى خزانة الكتب بالقاهرة

في سنة ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م كرة من النحاس من عمل بطليموس الإسكندرانى الفلكى الجغرافى القديم، وقد كتب عليها : «حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية»، ومع كل ما كتب عن خالد إلا أنه لم يصلنا شئ من كتبه أو بحوثه.

خبت أخبار الترجمة ومعالجة العلوم القديمة مدة تزيد عن نصف قرن، لم يظهر خلالها إلا أقل من القليل مما لم يكن له أثر علمي واضح. والدليل على ذلك ما ذكره ابن أبى أصيبعة أن عمر بن عبدالعزيز (رضى الله عنه) وجد في خزائن الكتب كتاب (أهرن) فى الطب، فأمر بترجمته، فترجمه (ماسرجويه) ووضعه عمر بن عبدالعزيز فى المسجد ليفيد منه المسلمون، ويكاد الإجماع يكون تاماً على أن حركة الحضارة التى نمت وتطورت وترعرعت هى التى بدأها الخليفة العباسى الثانى أبو جعفر المنصور[٩]، ففى عهده زاد الاهتمام كثيراً بعلم التنجيم (النجوم أو الهيئة) وقيل فى ذلك إن العلوم ثلاثة : الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان.

ويرجع اهتمام المسلمين بعلم النجوم إلى ما أثير حوله من روايات عجيبة من حيث تأثير النجوم والكواكب فى مجرى الحياة وأمور الدنيا فى عالمنا هذا، وأنه يمكن الاستدلال بحركاتها على المستقبل. ولذلك اهتم أبو جعفر المنصور - ومعظم الخلفاء من بعده - اهتماماً بالغاً بالتنجيم، فكان له منجمون يلازمونه ويحسبون له الطالع، ولا يقوم بعمل إلا بعد مشورتهم. ومن ثم أمر أبو جعفر المنصور بترجمة كتب فى علم النجوم. فترجم أبو يحيى البطريق كتاب : «الأربع مقالات فى صناعة أحكام النجوم» لبطليموس الإسكندرانى، وكان بطليموس قد وضعه ذيلاً لكتابه المجسطى فى علم الفلك، كما ترجمت كتب أخرى من اللغة الهندية واليونانية فى أحكام النجوم فى تلك الفترة.

ومن الدلائل الظاهرة على اهتمام الخليفة أبى جعفر المنصور بهذا العلم أنه عندما زاره أحد علماء الهند سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٣م وكان معه كتاب فى علم النجوم من تأليف العالم الهندى الكبير (برهمكيت Prahmkapt) طلب المنصور من زائره إملاء مختصر لهذا الكتاب، ثم أمر بترجمته إلى العربية، واستخراج كتاب من مادته العلمية تتخذه العرب أصلاً فى حساب حركة الكواكب والأعمال الفلكية، وقد قام بهذا العمل إبراهيم الفزارى حفيد الصحابى سمرة بن جندب، وعرف هذا الكتاب باسم : «السندهند الكبير»[١٠]. ومما لا شك فيه أن

اهتمام أبى جعفر المنصور والعلماء من المسلمين بهذا العلم لأنه يرتبط ببعض أحكام الشريعة الإسلامية من حيث الحسابات الفلكية لتحديد أوقات الصلاة، وتحديد اتجاه القبلة للصلاة فى البلاد الإسلامية أو التى توجد بها جالية إسلامية كبيرة.

تطور اهتمام علماء المسلمين بعلم النجوم إلى اهتمامهم بعلم الهندسة، فكتب أبو جعفر المنصور إلى إمبراطور الدولة الرومية (بيزنطة) أن يبعث إليه بنسخ مما عنده من كتب الهندسة، فأجابه إلى طلبه وأرسل إليه ببعض هذه الكتب، ومن ضمنها كتاب الأصول لإقليدس. كما قام طبيب الخليفة المنصور الخاص المسمى (جورجيس) والذى كان رئيس مدرسة جنديسابور الطبية قبل ذلك، بترجمة بعض كتب الطب أثناء إقامته بالبلاط الخليفى (١٤٨-١٥٢هـ/ ٧٦٥-٧٦٩م) ويقال إن جورجيس هذا كان يعرف اللغات العربية واليونانية والفارسية والسريانية لأنه سريانى مسيحى.

وفى عهد الخليفة المأمون بلغت حركة النقل والترجمة ذروتها لأنه حرص على نقل العلوم اليونانية والسريانية إلى العربية، وبالغ فى تشجيع العلماء والمترجمين والمؤلفين(١١) لدرجة أنه أنشأ فى بغداد سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م (دار الحكمة أو دار العلم) وألحق بها عدداً كبيراً من النساخ والمترجمين المهرة، وملأها بأمهات الكتب المعروفة فى ذلك الوقت، وخصص لها عدداً كبيراً من أشهر علماء وقته، والحقيقة أن عهد الخليفة المأمون يعد من أزهى العصور فى تاريخ الحركة الحضارية فى الدولة الإسلامية حيث انتقلت من الترجمة ودراسة علوم القدماء إلى درجة جديدة فى سلم الحضارة الإنسانية هى درجة التجديد والابتكار والإبداع.

وقد لعب خلفاء الدولة الإسلامية فى كل العصور التاريخية تقريباً دوراً بارزاً ومهماً فى نشر العلوم وإتساع دائرة الحضارة الإسلامية بما كانوا يقدمونه للعماء، والدارسين من تشجيع مادى ومعنوى، لدرجة أن بعضهم كان يمنح المترجم وزن الكتاب المترجم ذهباً، كما كانت قصورهم مراكز ثقافية يلقى فيها الشعر والأدب، وتعزف فيها فنون الموسيقى، ويناقش فيها كل جديد فى العلوم، وعصر هارون الرشيد والمأمون من بعده خير شاهد على ذلك، لدرجة أن بعض المؤرخين أطلقوا على بغداد باريس الشرق.

ولم يكن إتساع دائرة الحضارة قاصراً على حاضرة الدولة (بغداد) ولكنه تعداها إلى الأقاليم (الولايات) ففى مصر اهتم أحمد بن طولون وخلفاؤه والأخشيديون بالعلم والثقافة

والأدب وشجعوا العلماء، وزينوا مجالس قصورهم بالنابهين من الشعراء والأدباء وبالمشهورين من العلماء حيث كانت تلقى المحاضرات وتناقش الدروس ويبدى الحاضرون رأيهم.

كذلك اهتم الفاطميون إهتماماً بالغاً بالعلوم والفنون والثقافة، وعنوا عناية فائقة بالعلماء، وقد ظهر اهتمام الفاطميين بالعلم والعلماء في تشييدهم الجامع الأزهر ودار الحكمة، ومشاركة الخلفاء والأمراء الفاطميين للعلماء في مناقشة ما يطرح من مسائل علمية والإسهام برأيهم فيها، وكانت هبات الخلفاء خير مشجع للباحثين والدارسين على الاجتهاد في المجالات العلمية المتعددة.

ومن أشهر الذين برزوا في نقل العلوم وترجمتها إلى العربية في العصر العباسي نذكر :

١ - عبدالله بن المقفع (ت ١٤٠هـ/ ٧٥٧م) وهو فارسي الأصل، أول من ترجم من الفارسية القديمة (پهلوي) عديداً من الكتب، كما ترجم من اليونانية كتباً أخرى ربما سبق نقلها إلى الفارسية، وله مؤلفات كثيرة في التاريخ والسير والأدب، نذكر منها : كتاب كليلة ودمنة، وآيين نامه (أي الشرائع)، ونردك والتاج في سيرة أنوشروان، والأدب الكبير، واليتيمة في طاعة السلطان وغير ذلك[١٢].

٢ - أبو زكرياء يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٢هـ/ ٨٥٧م) كان طبيباً ماهراً في أمراض العيون عاصر هرون الرشيد والمأمون وزمناً في عهد المتوكل على الله، ترجم العديد من كتب الطب اليوناني ونقلها إلى العربية، له مؤلفات قيمة منها (دغل العيون/ أي مرض العيون) ولا يزال هذا المؤلف مخطوطا[١٣]. والحقيقة أن طب العيون بلغ في القرنين الرابع والخامس الهجريين (١٠-١١م) مرتبة عالية تدعو إلى الدهشة والعجب، بل إلى الاعتزاز والفخر نظراً لما كتبه العرب المسلمون من مؤلفات في هذا الفرع.

٣ - أبو يعقوب حنين بن اسحق العبادي (ت ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م)، ولد في الحيرة سنة ١٩٤هـ/ ٨٠٩م، ودرس الطب في مدرسة جنديسابور بفارس على يد أبي زكرياء يوحنا بن ماسويه (ت٢٤٢هـ/ ٨٥٧م)، وارتحل إلى بلاد الروم وتعلم بها اللغة اليونانية، ثم عاد إلى العراق في عهد الخليفة العباسي المأمون، وترجم خمسة وتسعين كتاباً إلى اللغة السريانية التي كان يجيدها كما يجيد العربية واليونانية، كما ترجم إلى اللغة العربية تسعة وثلاثين كتاباً، إلى جانب مؤلفاته في الطب[١٤]. أسند المأمون إليه رئاسة دار الحكمة.

من أشهر تلاميذ حنين ابن أخته حبيش بن الحسن الأعسم، الذى ترجم عدداً كثيراً من كتب جالينوس الطبية، وكتب ديسقوريدس فى علم النبات وهو أهم كتاب فى هذا العلم اتخذه العرب أساساً لعلم العقاقير عندهم.

٤ - اسحق بن حنين بن اسحق العبادى النصرانى (ت٢٩٨هـ/ ٩١٠م) نال شهرة علمية واسعة مثل أبيه، وله عدة مؤلفات مهمة(١٥).

٥ - أبو الحسن ثابت بن قرة الحرانى (ت ٢٨٨هـ/ ٩٠١م) كان يجيد السريانية، واليونانية والعربية، وقد راجع وصحح كثيراً من الكتب التى ترجمت إلى العربية، بالإضافة إلى ما قام هو بترجمته، له مؤلفات فى الطب والفلك والرياضة والفلسفة، بلغت مؤلفاته بالعربية حوالى خمسين ومائة كتاب، وبالسريانية خمسة عشر كتابا(١٦).

والحقيقة أن النساطرة كانوا عاملاً مساعداً ومهماً للمسلمين فى نقل العلوم اليونانية القديمة إلى العربية وكانوا على جانب من الأخلاق والعلم والأمانة، ولذلك كافأهم الخلفاء والأمراء وكرموهم أحسين تكريم.

كذلك اهتم الفاطميون اهتماماً بالغاً بالعلوم والفنون والثقافة، وعنوا عناية فائقة بالعلماء، وقد ظهر اهتمام الفاطميين بالعلم والعلماء فى تشييدهم الجامع الأزهر ودار الحكمة، ومشاركة الخلفاء والأمراء الفاطميين للعلماء فى مناقشة ما يطرح من مسائل علمية والإسهام برأيهم فيها، وكانت هبات الخلفاء خير مشجع للباحثين والدارسين على الاجتهاد فى المجالات العلمية المتعددة.

ولم يتقصر هذا النشاط العلمى والثقافى على قصور الأمراء (حكام الأقاليم/ أو الولاة) بل انتقل إلى المساجد التى تحولت إلى ما يشبه الجامعات، فكانت تعج بجلسات العلم وحلقات الدروس، ففي مسجد أحمد بن طولون كانت الدروس منتظمة فى الفقه على المذاهب الأربعة وفى علم القراءات وعلم الطب والرياضيات. كما انتظمت دروس الطب فى الجامع الأزهر فى كل يوم من بعد صلاة الظهر.

وكان المسجد الجامع بالمدينة المنورة من أهم مراكز الإشعاع الفكرى والثقافى، وكان طلبة العلم يفدون إليه من أقطار العالم الإسلامى للتزود بالعلوم والآداب والفنون، وكذلك المسجد الأموى بدمشق، ومساجد شمال أفريقية (مثل مسجد القروين) وبعد ذلك مساجد الأندلس

التى كانت جميعها بمثابة مراكز إشعاع فكرى وحضارى لنشر العلوم الدينية والدنيوية، ومن هذه المراكز انتشرت مجالات الحضارة الإسلاميه وانتقلت إلى بلدان الغرب الأوربي بعد ذلك(١٧).

وقد ساعد على انتشار العلوم والثقافة فى المجالات العلمية المتعددة أن دين الإسلام يحث على طلب العلم، وقد أشارت السنة النبوية الشريفة إلى ذلك فى قول الرسول الكريم :«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، «العلماء ورثة الأنبياء»، «مداد العلماء خير عند الله من دم الشهداء»، «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة»(١٨)، وغير ذلك كثير فى طلب العلم.

وكان لانتشار اللغة العربية الذى صاحب انتشار الإسلام فى أرجاء فسيحة من المعمورة دوره الكبير وأثره الواضح فى نشر العلوم والثقافة الإسلامية، فقد استطاع علماء المسلمين ومفكريهم أن يجعلوا من هذه اللغة لغة العلم التى تسيدت على جميع اللغات وأصبحت هى وسيلة التعبير عن الفكر فى العلوم والآداب.

ومن علماء النحو المجيدين نذكر : أبا الأسود الدؤلى (٦٦هـ/ ٦٨٨م)(١٩) الذي كلفه على بن أبى طالب (رضى الله عنه) بوضع علامات لتيسير قراءة القرآن الكريم بطريقة سليمة وصحيحة عندما وقع بعض الأعاجم فى أخطاء نحوية عند قراءتهم لبعض آيات القرآن الكريم، ولذلك يعد أبو الأسود الدؤلى واضع علم النحو.

والخليل بن أحمد (١٧٥هـ/ ٧٩١م)(٢٠) هو الذى هذب ما كتبه أبو الأسود الدؤلى فوضع بذلك علم العروض الذى ضمنه كتابه الشهير (العين)، الذى يعد أول معجم وضع فى اللغة العربية وكان ذلك فى عهد هرون الرشيد.

وسيبويه (١٨٣هـ/ ٧٩٩م)(٢١) الذى أكمل ما كتبه سابقوه في علم النحو، ووضع كتاباً عرف بإسمه، وقد أصبح سيبويه إماماً لكل من كتب فى علم النحو فيمن جاءوا بعده، من أمثال : على بن حمزة الكسائى معلم الأمين والمأمون (١٨٩هـ/ ٨٠٥م)(٢٢) وأصله من الفرس، ذاع صيته فى مدرسة الكوفة، ووصلت منزلته فى بلاط الرشيد إلى منزلة الفقيه أبى يوسف صاحب كتاب الخراج(٢٣)، وكان الكسائى أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة

وفنون الأدب[٢٤] ومن تلاميذ الكسائى المشهورين الفراء «أبو زكريا يحى بن زياد». ثم جاء بعد هؤلاء : الجاحظ : أبو عثمان عمر بن يحيى (٢٥٥هـ/ ٨٦٩م) الذى ألف فى علم البلاغة وأصبح عمدة فيه وقد عرف هذا العلم باسم البيان والبديع، ومن كتب الجاحظ ذات الأهمية «كتاب الحيوان»، وكتاب «البيان والتبيين»، وكتاب «التبصر بالتجارة»، وكتاب «التاج فى أخلاق الملوك» وقد عرف عن الجاحظ حرية الفكر وميله إلى مذهب المعتزلة[٢٥].

وقد ترتب على فهم اللغة العربية ووضوح أساليبها وتعدد معانيها وانتشارها أن أصبحت لغة العلم فى عصر ازدهار الدولة الإسلامية، لدرجة أن حرص أصحاب ديانات سابقة على الإسلام على تعلمها وإجادتها، ونقلوا إليها كتبهم المقدسة مثل التوراة والإنجيل وغيرها، كما نقلوا إليها علوم الطب والفلسفة والحساب والهندسة، وهكذا أثبتت اللغة العربية قدرتها على استيعاب كل العلوم فى بوتقتها، والتعامل العلمى مع مجالاتها المتعددة.

واستطاع علماء المسلمين تقنين المنهج العلمى فى البحث وطبقوه فى دراساتهم على العلوم التجريبية، وعن طريق هؤلاء العلماء عرف العالم كله هذا المنهج التطبيقى.

علوم الطب

اكتشف علماء المسلمين نظريات جديدة فى مجالات علمية مثل الطب (ابن النفيس والدورة الدموية.. إلخ) والكيمياء والرياضة (الأعداد الحسابية والصفر... إلخ) والفلك والتعدين والجيولوجيا وعلم النبات وعلم الحيوان، كما وضع هؤلاء العلماء أسس مناهجهم العلمية وخلاصة تجاربهم الطويلة التى بنوها على المشاهدة والملاحظة، من هؤلاء العلماء نذكر :

ابن سينا، وابن البيطار، والخوارزمى، وابن الهيثم، وابن النفيس، والرازى، وجابر بن حيان، والقزوينى، والبيرونى، والدميرى وغيرهم كثيرون، ممن تركوا لنا مؤلفاتهم العلمية تنطق بما بذلوه من جهد فكرى. وتقدم للإنسانية تراثاً أصيلا يضىء لها طريق العلم والمعرفة، ويعين على مشقة اجتياز هذا الطريق[٢٦].

فإذا تناولنا علوم الطب نجد أن معظم الذين نقلوا علوم الطب إلى العربية فى العصر العباسى من الذين تعلموا فى مدرسة جنديسابور بفارس، وكانت لاتزال موجودة فى ذاك

الوقت، وإن كانت تلاشت بعد قيام دولة بنى العباس بوقت قصير، ومع ذلك لم يأخذ العرب علوم الطب عن الفرس، وإنا أخذوها من كتب اليونان مباشرة، وهى التى كانت تدرس فى هذه المدرسة وفى غيرها. ولم يمنع هذا أن يأخذ العرب عن الفرس شيئاً من علوم الطب وكذلك عن الهند ولكن كان قليلاً. وكان لدى العرب أطباء اتبعوا الطرق البدائية فى العلاج واعتمدوا على الكهانة، واستخدموا بعض النباتات الطبية فى العلاج، ومن أشهر أطباء العرب قبل الإسلام الحارث بن كلدة الثقفى.

وفى عصر صدر الإسلام عرف المسلمون الطب النبوى عن طريق الأحاديث النبوية الشريفة[٢٧] وفى عصر الدولة الأموية اهتم الخلفاء بالأطباء، وكان من أشهرهم (ابن آثال) طبيب معاوية الخاص، وكان حاذقاً عارفاً بتركيب الدواء. وفى عهد الوليد بن عبد الملك ابن مروان أقيم أول بيمارستان فى دمشق. وقد أمر الخليفة الوليد بحبس مرضى الجذام حتى لا تنتشر عدواه بين المسلمين، وقد أجرى عليهم أرزاقهم[٢٨].

وفى عصر الدولة العباسية اهتم الخلفاء بالطب والأطباء، وبرزت عائلة الطبيب بختيشوع الأب، وابنه جبريل، ثم بختيشوع بن جبريل الذين نالوا حظوة ومركزاً ممتازاً لدى هرون الرشيد ومن جاءوا بعده[٢٩].

ومن أشهر الأطباء المسلمين أبو بكر زكريا الرازى (ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م)[٣٠] ويعتبر شيخ الأطباء لأنه كان عالماً موسوعياً، له من المؤلفات ما يزيد عن المائتين، ولكن ضاع معظمها ولم يتبق منها إلا القليل، ومن أشهر مؤلفاته (الحاوى فى الطب) ويقع فى عشرين جزءاً، ولكن لم يتبق منه سوى عشرة أجزاء، موزعة على ثمانية دور للكتب فى العالم، وقد تعرض فيه بالدراسة إلى عديد من الأمراض، مثل : الصداع والأرق، والنسيان والفالج، والقروح والأورام، والسل والسرطان، والسكتة، والماخوليا، وآلام الأعصاب... إلخ ومن المؤكد أن الرازى مارس علم التشريح ووقف على خصائص أعضاء جسم الإنسان.

وقد ترجم كتاب الحاوى فى الطب للملك شارل الانجوى سنة ١٢٧٩م فى صقلية، كما نسخت منه كثير من النسخ، ثم طبع لأول مرة سنة ١٤٨٦م فى ميلانو وأعيدت طباعته مرات عديدة فى göttingen وفى غيرها.

ومن مؤلفاته كذلك كتابه (المنصورى) الذى كتبه بتكليف من الأمير منصور بن اسحق

حاكم خراسان، وكان دائم الإحسان إليه، والكتاب ضخم يقع فى عشرة أجزاء، تبدأ بمقدمة فى الطب، وفى شكل أعضاء الجسم، والأغذية والأدوية.. إلخ ويمتاز هذا الكتاب بدقة المعلومات، وقد أكمل تلاميذ الرازى الجزء المتبقى من هذا الكتاب، وتمت ترجمته إلى اللاتينية فى القرن ١٢م.

والرازى من أعظم معلمى الطب الإكلينيكى، ويقف على قدم المساواة مع أبقراط بإعتباره أحد مشخصى الأمراض المبتكرين، فمقالته «كتاب فى الجدرى والحصبة» التى ميز فيها بدقة متناهية بين المرضين وأظهر ما بينهما من فوارق، هى أول بحث علمى محكم فى الأمراض المعدية، وهى عمل فذ من حيث قوة الملاحظة والتحليل ودقة التشخيص للمرض. وقد ترجمت إلى اللاتينية مرات عديدة بعناوين متعددة منها (Liber de variolis et morbilis) كما طبعت فى اللغة الإنجليزية أربعين طبعة فيما بين ١٤٩٨، ١٨٦٦م(٣١).

والرازى أول من أدخل المركبات الكيماوية فى العلاج الطبى، ولذلك سماه چورج سارتون(٣٢) «الطبيب الكيميائى الأول». ويرجع إليه الفضل فى ابتكارات طرق جديدة فى جراحة العيون، وفى أمراض النساء والتوليد، وهو مبتكر خيوط الجراحة التى استخلصها من أمعاء الحيوانات. ولذلك عرف باسم (جالينوس العرب).

ولم يكن الرازى عالماً فى الطب فحسب بلك كان عالماً فى الكيمياء كذلك، فكان يعتقد مثل جابر بن حيان فى إمكان تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، وكان يقول : «أنا لا أسمى فيلسوفاً إلا من كان قد علم صنعة الكيمياء، لأنه قد استغنى عن التكسب من أوساخ الناس، وتنزه عما فى أيديهم ولم يحتج إليهم».

يعد الرازى أول من عالج علم الكيمياء وحرر كتاباته من كثير من الغموض والخرافات. من مصنفاته (سر الأسرار) فى علم الكيمياء، ويتضمن معرفة العقاقير، ومعرفة الآلات، ومعرفة التدابير (أى التركيب الكيماوى ويدخل معظمه فى صناعة الدواء).

ومن أئمة الأطباء وعلمائهم الشيخ الرئيس ابن سينا : أبو على عبدالله، تركى الأصل، ولد فى بخارى (ويقال فى بلخ) سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م، وتلقى علومه بها، (وتوفى سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) كان نابغة عصره فى علوم الطب، ومع ذلك كتب وصنف فى الفلسفة وعلم النبات، والمعادن. ويعد ابن سينا المعلم الثالث للإنسانية بعد أرسطو والفارابى، تناول ابن سينا

فيما كتبه معظم الموضوعات العلمية تقريباً، فقد ذكر Draper[٣٤] إحصائية بما كتبه نذكر منها : فائدة العلم والانتفاع به، قوانين الطبيعة، المشاهدات الفلكية، النظريات الرياضية، الصحة والعلاج، مختصر كتاب أقليدس، اللغة العربية وخصائصها، ثم يبدى (دريبر) إحساساً بالحسرة والألم عندما يتذكر الحالة السيئة التى كانت عليها أوروبا فى ذلك الوقت.

ومن أشهر مؤلفات ابن سينا (القانون فى الطب)، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وكان الأساس الذى اعتمدت عليه الجامعات الأوروبية فى تدريس الطب والصيدلة بداية من أواخر العصر الوسيط وحتى أوائل القرن الثامن عشر، يقول عنه (مييرهوف)[٣٥] : «هذا الكتاب تركيز لتراث المعارف الطبية اليونانية مضافاً إليها الزيادات العربية، ترجمه جيرار الكريمونى إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر، وتوجد منه نسخ خطية كثيرة، وتمت طباعته فى النصف الثانى من القرن العشرين مرات عديدة، بلغات أوروبية حديثة، وربما لم يدرس كتاب فى الطب على مر العصور كما درس كتاب ابن سينا (القانون فى الطب)، ولقد بلغ الطب الإسلامى عن طريق ابن سينا عميد الأطباء، وأمهرهم أوج عظمته».

لقد استغنى علماء الطب والمشتغلون بعلومه بكتاب ابن سينا (القانون) عن نظيره من الكتب الأخرى، فتركوا كتاب الرازى (الحاوى فى الطب)، وكتب جالينوس، وكتاب على بن العباس (كامل الصناعة فى الطب) الذى سيأتى ذكره، وظل (القانون فى الطب) هو هدف كل الدراسات الطبية وفى المقدمة، حتى القرن ١٦م[٣٦]. والحقيقة أن كتب ابن سينا فى الطب ظلت تدرس فى جامعات فرنسا وإيطاليا جميعها حتى أوائل القرن التاسع عشر[٣٧].

وترجع شهرة كتاب ابن سينا (القانون فى الطب)[٣٨] إلى تضمينه علم وظائف الأعضاء، وتشخيص الأمراض وكيفية علاجها، والدواء النافع لها، وقد انبهر علماء الطب فى أوروبا بما احتواه كتاب الشيخ الرئيس ابن سينا من معلومات قيمة ونافعة، وقاموا باستخدامها وطبقوها فى علاجهم على المرضى، وكان له تأثيره فى أوروبا، حتى ظل اسم ابن سينا "Avicenna" ومؤلفاته الطبية هى الشغل الشاغل والأهم لدارسى الطب فى جامعات أوروبا. ويكفى أن جامعة السربون تضع نسخة من كتاب (القانون فى الطب) فى إحدى قاعاتها العلمية وأطلقت عليها (قاعة ابن سينا) تكريماً لذكراه، وعرفاناً بفضله، وتقديراً لعلمه.

ومن مؤلفاته القيمة أيضاً كتاب (الشفاء)[٣٩] الذى ترجم إلى اللاتينية فى أوائل

القرن الثانى عشر الميلادى، وهو فى ثمانية عشر جزءاً، يتضمن علوم الرياضيات، والطبيعة، والدين، والاقتصاد، والموسيقى... وفى هذا الكتاب أنكر ابن سينا تماماً - ما شاع فى عصره وهو : إمكان تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات أوروبية حديثة.

أما على بن العباس (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) فكان واحداً من أهم أطباء العرب المسلمين الذين عرفهم الأوروبيون واعتمدوا على مؤلفاتهم فى تدريس علوم الطب بجامعاتهم، وكتابه (كامل الصناعة فى الطب) الذى عرف بالكتاب (الملكى) يجمع كل المعارف الطبية، ويتضمن عشرين (باباً) عشرة فى الطب النظرى، وعشرة فى الطب العملى (الإكلينيكى) من بينها (بابان أو كتابان) للأدوية. ترجمة قسطنطين الأفريقى (ليو) إلى اللاتينية ترجمة سيئة بعنوان : Liber regalis ونسبه إلى نفسه، ولكن إتيان الأنطاكى ترجمة سنة ١١٢٧م ترجمة صحيحة، وانتقد بعنف ما فعله ليو الأفريقى، وأسند الكتاب لمؤلفه الحقيقى، وقد طبع هذا الكتاب مرات عديدة بعد ذلك، فى فينا ١٤٩٢، وفى ليون بفرنسا ١٥٢٤، ولا تزال بعض النسخ من هذه الطبعة موجودة.

لم تخل أسبانيا المسلمة من عدد من الأطباء العرب المسلمين الذين كانت لهم شهرتهم فى الغرب الأوروبى من هؤلاء نذكر : أبو مروان عبدالله بن زهر، المشهور بابن زهر الأشبيلى الأندلسى (ت ٥٥٩هـ/ ١١٦٢م) فهو سليل عائلة مارست وتخصصت فى الطب، ولذلك نجد ابن زهر يعكف على دراسة الطب فقط، ولم يكتب فى سواه من العلوم كسابقيه أو معاصريه، يصفه البعض بأنه كان وحيد زمانه وأعظم وأنبغ من تخصص فى الطب من العرب واللاتين على حد سواء وأنه أعظم معلم فى الطب الإكلينيكى بعد الرازى.

من أهم مؤلفاته (التيسير فى المداواة والتدبير) ويتضمن طرق العلاج، وإتباع الأغذية المناسبة لكل داء، وقد كتبه بناء على رغبة صديقه ابن رشد، وقد تعرض ابن زهر فى دراساته المهمة إلى الأورام، والسل المعوى، والشلل البلعومى[٤٠]، ويدين له علم الجراحة بأنه أول من قدم فكرة عن جراحة الجهاز التنفسى، وأول من شخص انتقال العظام، والكسور[٤١]. صوب وأصلح آراء جالينوس فى علم التشريح، وبرهن على عدم صحتها من واقع ممارسته العملية. ترجمت مؤلفات ابن زهر إلى اللاتينية فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى، ثم طبعت فى لغات أوروبية حديثة.

وممن اشتهروا فى عصر الدولة العباسية كذلك ابن النفيس، وابن ميمون الإسرائيلى. ويعد ابن النفيس من أعلام الطب فى القرن السابع الهجرى/ ١٣م، وهو تلميذ الشيخ ابن سينا، وارتبطت شهرته باكتشافه الدورة الدموية الصغرى، وقد ترجم هذا البحث المستشرق الألمانى Meyerhof[٤٢]. وقد صنف ابن النفيس الكثير من الكتب منها، ما كتبه فى طب العيون، وما كتبه فى علم التغذية، وله فى ذلك نظرية فى العلاج تقوم على تنظيم الغذاء، مما أدى إلى سوء العلاقات بينه وبين المشتغلين بعلم الأدوية، لأنه امتنع عن وصف العقاقير والأدوية المركبة. ومما يذكر لابن النفيس أنه حفظ كتاب ابن سينا (القانون فى الطب) عن ظهر قلب، وأنه اختصر مخطوطاته الفلسفية، وأنه ملأ الحياة العلمية فى دمشق حيوية ونشاطاً. كما زار مصر وعمل بالبيمارستان، ومن وفائه لمصر وللبيمارستان أنه وهبه مكتبته العلمية، وأوقف بيته عليه بعد وفاته.

أما موسى بن ميمون الإسرائيلى (ت ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) فهو يهودى من بلاد الأندلس[٤٣]، جاء إلى مصر، والتحق بخدمة صلاح الدين الأيوبى، وكانت له شهرة كبيرة بعلوم الفلسفة والطب، ومن أشهر مؤلفاته فى الفلسفة كتاب: «دلالة الحائرين»[٤٤] الذى ترجم إلى اللاتينية باسم "Doctor Perplexorum" . وله كتابات متخصصة وبحوث متعمقة ورسائل فى مجالات الطب، وأهم مؤلفاته الطبية «فصول موسى فى الطب» وهو لا يزال مخطوطاً، وله كذلك كتاب: «السموم والتحرز من الأدوية القتالة». وقد اشتهر موسى بن ميمون عند الأوروبيين باسم "Maimonide". ومن اللافت للنظر أن موسى بن ميمون قام بتدريس الطب وممارسته فى مصر، وأن سلطان مصر صلاح الدين استخدمه، مما يدل بوضوح على تسامح دين الإسلام، وطيبة قلب المسلمين، وعدم التفرقة فى التعامل مع رعايا الدولة سواء كانوا من أهل الذمة أو من المصريين المسلمين.

والحقيقة أن النابهين والنابغين فى علوم الطب والفلسفة وغيرهما كثير، ولكل منهم شهرته وصيته فى عصور الدولة الإسلامية الزاهية، نذكر منهم على سبيل المثال عبداللطيف البغدادى، صاحب المؤلفات الكثيرة، والذى اشتغل بالطب وعلوم الدين، واسمه يدل على أصله أنه من بغداد، جاء إلى مصر ونهل من علمائها فى الأزهر الشريف، وقام بالتدريس فيه، واستقر بعض الوقت فى دمشق، من أهم مؤلفاته كتابه «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، وقد سجل فيه رؤيته ومشاهداته، التقى بعدد من الأطباء فى

مصر من أمثال ابن يونس وطبيب صلاح الدين ابن ميمون، وقد التقى البغدادى بصلاح الدين فى القدس حيث رحل إليه ليهنئه على انتصاره على الصليبيين. وقد قام البغدادى بالتدريس فى الجامع الأموى بدمشق حيث عينه صلاح الدين لهذه المهمة.

علم الكيمياء

لم يقتصر إبداع ونبوغ العلماء العرب المسلمين على الطب والفلسفة وعلم النجوم وغير ذلك، بل تعداه إلى علم الكيمياء حتى أصبحوا أساتذة هذا العلم فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب(٤٥). وتتلمذ على أيديهم كل من جاء بعدهم من العلماء سواء كانوا من المسلمين أو من الأوروبيين. وكان على رأس هؤلاء جميعا «جابر بن حيان»: وهو أبو عبدالله جابر بن حيان بن عبدالله الكوفى المعروف بالصوفى(٤٦)، ويقال إنه أبو موسى كذلك(٤٧).

لا يعرف أصله على وجه التحقيق، فمن قائل إنه من طوس، أو من طرسوس، أو أنه صابئ من حران، أو أنه من العجم، وقيل إنه من سوريا، أو من الهند، أو من قبيلة الأزد العربية.. وبغض النظر عما قيل، فما نراه إنه ابن البيئة العربية الإسلامية لا متازع، ذلك أن منبته وثقافته عربيان إسلاميان خالصان على تحقيق الجميع. تتلمذ جابر بن حيان على الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، وكان جابر متصلا بالبرامكة، وهذه حقيقة ثابتة فى كتبه، فقد ورد فى كتابه (الحاصل): «وقد سميته كتاب الحاصل وذلك أن سيدى جعفر بن محمد (أى ابن محمد الباقر) - صلوات الله عليه - قال لى: «فما الحاصل الآن بعد هذه الكتب فى الموازين وما المنفعة منها؟» ومما جاء فى كتابه: «الخواص الكبير، المقالة السادسة» «ولقد كنت يوماً من الأيام بعد ظهور أمرى بهذه العلوم وبخدمة سيدى يحى بن خالد»، وجاء فى المقالة العاشرة من نفس الكتاب قوله: «دعانى يوماً من الأيام فى شهر رمضان فى اليوم السابع منه جعفر بن يحيى، ويحيى معنا وخالد معنا أخو جعفر... إلخ».

له كثير من المؤلفات فى العلوم، يذكره الرازى (ق ٤هـ/ ١٠م) بقوله: قال استاذنا أبو موسى جابر بن حيان. من أهم ما تميز به جابر بن حيان أنه اعترف بوضوح وقرر بجلاء أهمية التجربة فى علم الكيمياء، ولم يسبقه أحد من قبل فى ذلك(٤٨).

يذكره الكندى (أبو يوسف يعقوب بن اسحق بن الصباح بن عمران بن قيس)(٤٩) (ق ٣هـ/ ٩م) والشيخ الرئيس ابن سينا (ق ٥هـ/ ١١م) وهما من كبار علماء العرب والمسلمين بقولهما استاذنا وكان روجر بيكون Rogers Bacon (ق ٧هـ/ ١٦م) يقول عنه (أستاذ الأساتذة)(٥٠) وكان العالم الإيطالى الشهير كاردان Cardan (ق ١٠هـ/ ١٦م) يتكلم عن جابر بن حيان باعتباره واحداً من كبار عباقرة الإنسانية، أما عالم الكيمياء الفرنسى برتيلو Berthelat فيقول عنه فى كتابه «تاريخ الكيمياء فى العصور الوسطى» إن اسمه ينزل فى تاريخ الكيمياء منزلة اسم ارسطوساليس فى تاريخ المنطق، ويعتبر برتيلو أن جابر هو أول من وضع لعلم الكيمياء قواعد تقترن باسمه فى تاريخ الدنيا.

من مؤلفاته الكثيرة نذكر : (كتاب الحدود) وهو عن تحديد المعانى الواردة فى البحث العلمى وكتاب (الراهب) وهو فى الصناعة - أى صناعة الكيمياء - وكتاب (صندوق الحكمة) وهو فى تحضير الأحماض الكيماوية، وكتاب (التراكيب) وقد ترجمه إلى اللاتينية سنة ١١٤٤م روبرت الشسترى، إلى جانب ما ترجم من كتبه الأخرى.

كان جابر بن حيان أسبق علماء عصره والسابقين عليه فى وضع المنهج العلمى الذى يقوم على المشاهدة والفرض والاستنباط، التى تؤدى إلى النتائج بعد التطبيق(٥١)، فهو إذن صاحب المنهج التجريبى فى العلوم. ولا شك أن جميع الأوروبيين الذين درسوا الكيمياء فى العصور الوسطى تأثروا به وتتلمذوا عليه وعلى كتبه التى ترجمت إلى اللاتينية، وظل ذلك سائداً ومتبعاً حتى القرن ١٨م فى عصر لافوازييه وهنرى كافندش (١٧٣١-١٨١٠) ويكفى أن عالماً كبيراً مثل بريستلى مكتشف الأوكسجين (١٧٣٣-١٨٠٤) قد اهتم بدراسة اللغة العربية لشغفه بالإطلاع على مؤلفات جابر بن حيان فى أصولها العربية(٥٢).

ومن المؤسف حقاً أن نفراً قليلاً من علماء الغرب الأوروبى أعماهم الحقد عن الحقيقة فحاولوا بالنفى والتشكيك فى بحوثهم وكتبهم أن جابر بن حيان هو مؤلف هذه الكتب فى علم الكيمياء - والتى ترجمت إلى اللاتينية والتى كانت مصدراً أساسياً لعلماء أوروبا فى العصور الوسطى ومن هؤلاء برتيلو الفرنسى Berthelot ولكن برز لهم نفر من المعتدلين من علماء أوروبا وأثبتوا فى بحوثهم أن ما قاله هؤلاء إنما هو زعم كاذب وكان من بين هؤلاء المعتدلين چورچ سارتون(٥٣)، وستيل.

ابن الهيثم : أبو على الحسن بن الهيثم (ت حوالى سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م) يعد الحسن ابن الهيثم أنبغ وأعظم علماء الطبيعة قاطبة فى القرون الوسطى، وواحد من أعظم علمائها فى كل العصور. ولد بالبصرة، ويرجح كثيرون أنه من أصل عربى، والمصادر العربية لم تعن بنشأته الأولى؛ رحل إلى الشام وأقام به زمناً ،وأقام عند أمير من أمراء الشام، فأدر عليه ذلك الأمير وأجرى عليه أموالاً كثيرة، فقال له الحسن : «يكفينى قوت يوم، وتكفينى جارية وخادم، فما زاد على قوت يومى إن أمسكته كنت خازنك، وإن أنفقته كنت قهرمانك[٥٤] ووكيلك، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين فمن الذى يشتغل بأمرى وعلمى، فما قبل بعد ذلك إلا نفقة احتاج إليها ولباسا متوسطا».

يقول بعض المؤرخين إن الحاكم بأمر الله (الخليفة الفاطمى) استدعاه إلى مصر (فى ق ٥هـ/ أوائل ق ١١م) ويرى البعض الآخر أن الحسن بن الهيثم جاء أولاً إلى مصر ثم سافر إلى الشام خوفاً من الخليفة الحاكم، ثم عاد إلى مصر بعد وفاته، والرأى الأول أقرب إلى الصواب[٥٥].

وفى مصر استقرت حياة ابن الهيثم العلمية حيث صنف معظم بحوثه ومؤلفاته، ولخص كثيراً من كتب أرسطوطاليس وشرحها، وكتب جالينوس فى الطب، وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها، إلا أنه لم يمارس مهنة الطب، كان فذاً فى علم البصريات وهو ولاشك منشئ علم الضوء. ولذلك سمى بطليموس العرب. اشتهر ابن الهيثم كذلك بعلم حركات النجوم والفلسفة، وله مؤلفات عظيمة فى علم الهندسة. لقبه البعض بالحكيم بطليموس الثانى، لمضارعته إياه فى العلوم الرياضية والمعقولات ولكثرة مؤلفاته التى لا تحصى، ذكره ابن أبى أصيبعة[٥٦] بقوله : «كان متفننا فى العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه».

أشاد به وبمؤلفاته العلمية جموع من علماء الغرب الأوروبى فى كتاباتهم وبحوثهم، من هؤلاء نذكر Suter فيما كتبه فى دائرة المعارف الإسلامية حيث يقول : «كان أحد أقطاب علماء الرياضة والطبيعة من العرب، وكان عالماً بالطب، وبسائر علوم الأوائل خصوصاً فلسفة أرسو». ويذكره چورج سارتون بقوله : «أكبر عالم طبيعى مسلم، ومن أكبر المشتغلين بعلم المناظر فى جميع الأزمان، وكان أيضاً فلكياً ورياضياً وطبيعياً وكتب شروحاً عدة على

مؤلفات أرسطو وجالينوس» وقد لخص الحسن بن الهيثم علم الفلسفة وأوجزه وجمعه فى ثلاثة علوم هى : الرياضيات والطبيعيات، والألوهيات، وكان يرى أن جميع الأمور الدنيوية والدينية هى من نتائج العلوم الفلسفية(٥٧).

وأساس الأخلاق عند ابن الهيثم إيثار الحق وطلب العلم، والحق عنده هو ما يدركه الفهم الفاضل عند الكثير من الناس، ولم يكن يعبأ بما يجمع عليه العوام، بل كان لا يلتفت لهم، لأنه كان مشغولاً دائما بالبحث عن الحقيقة أو معرفة الحق وطلب العلم وكان يقول : «... واستقر عندى أنه ليس ينال الناس من الدنيا شيئاً أجود ولا أشد قربة إلى الله من هذين الأمرين»(٥٨).

اعتمد ابن الهيثم فى بحوثه على الاستقراء، والقياس، والمشاهدة، والاعتبار أى أن التجربة والتطبيق العملى هما أساس بحوثه العلمية، وهذا ما يعرف بالمنهج التجريبى، وقد سبق ابن الهيثم بهذا المنهج العلمى روجر بيكون R. Bacon وسما بمنهجه هذا سمواً كبيراً عنه.

من أشهر مؤلفاته كتاب (المناظر) وفيه يعنى بتحليل الإدراك إلى عناصره المختلفة تحليلاً طريفاً، لم يكن هذا الكتاب معروفاً للباحثين إلا فى ترجمته اللاتينية حتى وقت قريب، حيث وجدت نسخة مخطوطة منه منذ سنوات قليلة. والمادة العلمية لهذا الكتاب تفوق نظيرها عند اليونان، وليس له نظير بين مؤلفاتهم جميعاً(٥٩) ولقيمة هذا الكتاب وأهميته أعيد طبعه فى لغته اللاتينية خمس مرات، ثم نقل إلى معظم اللغات الأوروبية الحديثة بعد ذلك وانتشر انتشاراً واسعاً فى العصور الوسطى، وقد اعتمد علماء البصريات من الأوروبيين كلية على كتاب (المناظر) وعلى رأسهم البولندى فيتلو وروجر بيكون Bacon .

لا يعرف من تلاميذ ابن الهيثم سوى الفيلسوف أبو الوفا مبشر بن فاتك من أكابر أمراء مصر(٦٠) والطبيب اسحق بن يونس الذى كتب تعليقاً على رأى لابن الهيثم فى كتاب ديوفنطس فى مسألة الجبر.

بلغ من تقدير الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله(٦١) لابن الهيثم أن ولاه بعض الدواوين، فتولاها خجلا ورهبة لا رغبة، ولكن صدره ضاق بذلك، ولم يجد سبيلاً للخلاص من فتنة الحكم وفتنة الحاكم إلا بإدعاء الجنون، واحتمل الحبس فى داره ومصادرة أمواله عدة سنين، وبعد موت الخليفة الحاكم بأمر الله عاد ابن الهيثم إلى عقله وطبيعته، واستقر فى قبة على

باب الجامع الأزهر وأقام بها متنسكاً، وأعيد إليه ماله الذى صادره الحاكم، واشتغل بالتصنيف والنسخ والتلخيص إلى أن مات سنة ٤٣٠هـ.

أبو منصور موفق (عاش فى القرن الخامس الهجرى/ ١١م). أول من استطاع أن يفرق بوضوح بين كربونات الصوديوم (النترون) وكربونات البوتاسيوم التى سميت قلى أو قلوى، وقد نقلت التسمية بنصها إلى اللغات الأوروبية alcali .

منصور الكاملى (عاش فى القرن الرابع الهجرى/ ١٣م) كان رئيس قسم الكيمياء فى معمل القاهرة، ألف كتاباً عن استخراج وتنقية ومعايرة الذهب، يقول عنه (هولميار) : «توضح محتويات هذا الكتاب أن الكيماويين العرب فى القرن الثالث عشر الميلادى، كانوا يعرفون جيداً عملية تصفية المعادن من الشوائب وفصل الذهب والفضة بواسطة حامض النتريك، واستخلاص الفضة من الذهب بواسطة خلط السبائك المختلطة منها بالزئبق، والتحليل الكيماوى الكمى، ثم إن أحسن المعلومات الكيماوية فى أوروبا فى منتصف القرن ١٦م لم تشتمل على أى تحسينات تذكر عن الوسائل التى شرحها منصور الكاملى»(٦٢).

علم الرياضيات

لم يقتصر دور علماء المسلمين على ما قدموه للحضارة الإنسانية من جديد فى العلوم والكيمياء والطب.. إلخ بل زادوا على ذلك ووضعوا أسس علم الرياضيات، وتوصلوا إلى نظام الترقيم العددى، وابتكروا الأعداد الحسابية والصفر الذى لعب دوراً هاماً وخطيراً فى المسائل الحسابية، وعلم الجبر. وهذه هى الأعداد العربية التى ابتكروها :

1 2 3 4 5 6 7 8 9 0

أما الأعداد التى نستخدمها اليوم فمنشؤها الهند، ويقال إنها مرتبة على أساس الزوايا، فالعدد (١) يقوم على زاوية واحدة، والعدد (٢) يقوم على زاويتين، والعدد (٣) يقوم على ثلاث زوايا وهكذا.

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ٠

أما الرومان فكانوا يستخدمون بعض الحروف الأبجدية التى تدل كتابتها على الرقم المطلوب، ولاتزال هذه الأرقام مستخدمة ولكن بقلة، وأكثر استخداماتها فى ترقيم حمولات

السفن التجارية، وكتابة تواريخ بعض الوثائق اللاتينية وأرقام تسجيلها.

I II III IV V VI VII VIII IX X

وأول من استخدم هذه الأعداد الحسابية الغربية وأوردها في مصنفاته هو : محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٢٢٦هـ/ ٨٤٠م) منشئ علم الجبر، وكتابه (الجبر والمقابلة)[٦٣] الذي ألفه بتكليف من الخليفة العباسي المأمون ترجم إلى اللاتينية، وظلت جامعات أوروبا وعلماؤها يعتمدون على مادته العلمية عدة قرون. وقد اضطر علماء الغرب الأوروبي إلى الاعتراف بأن الخوارزمي هو منشئ علم الحساب والجبر، وأنهم نقلوه عنه.

عاش الخوارزمي في عهد المأمون، وكان له من المؤلفات الكثير، التي شملت فروعاً عديدة من العلوم، ولكن أصولها العربية ضاعت للأسف الشديد، ولولا أن القدر حفظ لنا بعضها في ترجمته اللاتينية، ما عرفنا عنها وعن قيمتها العلمية شيئاً.

ومن المبرزين في علم الجبر (الرياضيات) كذلك أبو بكر محمد الكرخي (ت ٤١٠هـ/ ١٠١٩م) وكتابه (الفاخر)[٦٤] في الجبر والمقابلة، الذي أهداه للوزير فخر الملك البويهي، أصلح فيه بعض أخطاء الخوارزمي، وله كتاب آخر بعنوان : (الكافي في الحساب)[٦٥] وممن لهم سبق في علم (الرياضيات) كذلك البيروني : أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي.

(ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)[٦٦] صاحب العقلية الفذة التي أوصلته إلى معرفة حساب أطوال البلدان وإلى وضع معادلة لحساب نصف قطر الكرة الأرضية، وسجل ذلك في كتابه المشهور (الأسطرلاب)، وقد أطلق علماء الغرب الأوروبي على هذه المعادلة اسم (قاعدة البيروني) وهكذا نجد علماء المسلمين كانوا أسبق من علماء الغرب الأوروبي بمئات السنين في اكتشاف وابتكار نظريات حسابية وقواعد علمية، فإذا كان الأوروبيون يعتزون باكتشافات اسحق نيوتن الرياضية، فإن الحضارة الإسلامية تفخر وتفاخر بعلمائها من أمثال : الخوارزمي والكرخي والبيروني والفارابي وابن سينا وغيرهم الذين سبقوا نيوتن وغيره بقرون زمنية طويلة.

علم النبات والحيوان

أول من اشتغل من علماء المسلمين بعلم النبات ويعد بحق شيخهم هو أبو حنيفة أحمد ابن داود الدينوري : (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) الذي اهتم بهذا العلم اهتماماً كبيراً، وأولاه عناية

تامة، ولم يربط بينه وبين علم الصيدلة (العقاقير) ولذلك انفرد عن معاصريه وسابقيه بهذا التخصص الذى وضح فى كتابه الذى ضمه أسماء النباتات والتعريف بها ومعرفة العرب لها، ومتى وأين نبتت هذه النباتات، وما هو النوع دائم الخضرة منها وما هو غير ذلك.

- وابن البيطار : أبو محمد عبدالله بن أحمد المالقى (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، من أكبر المهتمين كذلك بعلم النبات، ولد ونشأ فى الأندلس، ومنها نزح إلى شمال أفريقيا ثم الشام ومصر، حيث التحق بخدمة بلاط صلاح الدين الأيوبى.

كان ابن البيطار يجرى دراسته على النباتات وكان يدقق فى تجاربه، ويفرق بين خصائص الأعشاب وخصائص النباتات، طغت شهرته الواسعة على جميع المشتغلين بعلم الصيدلة فى العصور الوسطى، له مؤلفات قيمة فى علم النباتات ومؤلفه الشهير (كتاب الأقرباذين) كتبه أثناء إقامته فى مصر[٦٧]، ومن أشهر تلاميذه ابن أبى أصيبعة. وقد أوضح ابن البيطار فى مقدمة كتابه الغرض الذى توخاه والمنهج الذى سلكه فى تأليفه.

- والقزوينى : أبو عبدالله زكريا بن محمد بن محمود الأنصارى (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) من علماء النباتات، وله مؤلف على جانب كبير من المعرفة والفائدة بعنوان : «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» وفيه يصف القزوينى كثيراً من أنواع النباتات والخضروات والفاكهة وكان اهتمامه منصباً على النباتات الطبية، وبلغت دقة الملاحظة عند القزوينى أنه وصف حركة النمو للأزهار وأوراق النباتات وأثر البيئة فى ذلك.

ونستطيع أن نضم الشيخ الرئيس ابن سينا إلى علماء النباتات، لأنه تناول فى كتابه (قانون الطب) أنواع هذه النباتات سواء كانت على هيئة أشجار أو أعشاب أو أزهار أو حتى على شكل فطريات، وقد بلغ عدد النباتات التى تناولها ابن سينا بالدراسة حوالى أربعمائة صنف.

ولم تقتصر عناية علماء المسلمين واهتمامهم بالنباتات، بل امتدت إلى الحيوان، فكتبوا عن الحيوانات مؤلفات متخصصة، ومن أشهر هؤلاء العلماء القزوينى - الذى سبق ذكره - والدميرى[*] صاحب كتاب «حياة الحيوان الكبرى»، والجاحظ «الحيوان» وابن سينا وغيرهم.

فالقزوينى يذكر فى كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» أقسام الحيوان فيقول:

منه ما يمشي، ومنه ما يطير، ومنه ما يسبح، كما تعرض إلى أشكال الحيوانات ووسيلتها فى تخزين الغذاء ومهارتها فى طريقة حفظه.

وكتاب الدميرى عبارة عن معجم رتب فيه أسماء الحيوانات طبقاً للحروف الأبجدية، وقد اعتمد الدميرى على مؤلفات ابن سينا، والقزوينى وأرسطو وكان أميناً فى كتابته حيث يستشهد بآرائهم ويذكر ذلك، ويعتبر كتاب الدميرى «حياة الحيوان الكبرى» من المصادر الأساسية فى دراسة علم الحيوان.

أما كتاب الجاحظ «الحيوان» فهو من أشهر المؤلفات العربية، وهو فى ٧ أقسام، وقد أشار الجاحظ فيه إلى الحيوان الفصيح المتكلم، والأعجم، وصاحب الزئير، أو الصهيل.. إلخ. كما تناول الجاحظ فى كتابة ملاحظاته عن سلوك الحيوان، ووصف تجاربه عليها.

ولاشك أن ما خلفه علماء المسلمين من تراث علمى أصيل اعتمد عليه الأوروبيون فى نهضتهم وفى حركة أحياء العلوم عندهم، فكانت مؤلفات علماء المسلمين هى الركائز والأسس التى قامت عليها حضارة الغرب الأوروبى.

وقد أعترف المعتدلون من المستشرقين الأوروبيين بفضل علماء المسلمين على نهضة أوروبا، نذكر من هؤلاء :

المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه فى كتابها شمس العرب تسطع على الغرب.

المستشرق كاجورى الذى يقول : إن كثيراً من الآراء والنظريات العلمية التى حسبناها من صنعنا إذ بالعرب سبقونا إليها، والواقع أن وجود ابن الهيثم والخازن والبيرونى وجابر بن حيان وابن سينا وغيرهم كان ضرورياً لظهور جاليليو، ونيوتن من علماء أوروبا(٦٨).

الفلسفة

إذا انتقلنا لعلم الفلسفة نلاحظ أنها ارتبطت إلى حد كبير بالأطباء والطب فكثير من أطباء المسلمين اشتغلوا بالفلسفة وكانوا فلاسفة إلى جانب كونهم أطباء. فإذا تناولنا الفارابى: وهو نصر بن محمد بن طرخان الفارابى(٦٩)، المعلم الثانى بعد أرسطو، كانت فلسفته مزيج من فلسفات أفلاطون وأرسطو والتصوف الإسلامى(٧٠)، وهو فيلسوف المسلمين الذى لا يشق غباره فى كثير من العلوم، ولاسيما فى علم المنطق، حيث تفوق وبرز على جميع علماء

المسلمين فيه، فشرح غوامضه، وكشف أسراره، ويسره للأفهام وجمع ما يحتاج إليه منه فى كتب صحيحة العبارة، لطيفة الإشارة»[٧١]. بلغت مؤلفاته فى مختلف مجالات العلوم أكثر من مائة كتاب، وهى مصنفات فريدة من نوعها، منها : «إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها» وهو أشبه بقاموس علمى على نمط الموسوعات العلمية، يقول فيه ابن صاعد الأندلسى «لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه». ومن مصنفاته أيضاً : «آراء أهل المدينة الفاضلة» وهو كتاب فريد فى موضوعه، وكذلك «السياسة المدنية» ويتناول فيه علم الاقتصاد السياسى، وبذلك يكون الفارابى قد سبق العلماء المحدثون الذين يزعمون أن هذا العلم من ابتكارهم، بمدة تزيد على ألف عام.

وإلى جانب علوم الفلسفة والحكمة والمنطق التى برز العلماء فيها، فقد برع الفارابى كذلك فى فن الموسيقى حتى أصبح لا يضاهيه فى هذا الفن أحد.

وترجع أصول الفارابى إلى العنصر التركى، ولد فى إقليم فاراب بالقرب من نهر جيحون «سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م»، ونشأ فى بغداد، ورحل إلى مصر، والشام، واتصل بسيف الدولة الحمدانى، وتوفى بدمشق «سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م»[٧٢].

وابن رشد، وهو من أعظم الذين شرحوا فلسفة أرسطو، وميز بين تعاليمه وتعاليم أفلاطون، كما نقد بل رفض كثيراً من آراء أرسطو لعدم إتفاقها مع القيم الدينية، وكان سابقوه ينظرون إلى أرسطو نظرة التقديس، من مصنفاته الهامة «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» وقد نشر هذا الكتاب فى مصر بعنوان «فلسفة ابن رشد» سنة ١٩١٣م[٧٣]. وتوجد لابن رشد شروح فلسفية كثيرة مترجمة إلى اللاتينية والعبرية، واللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الألمانية والفرنسية. توفى ابن رشد سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م، ويعرف عند الأوروبيين باسم "Averroès". من كتبه الشهيرة كذلك كتاب : «تهافت التهافت» الذى حاج فيه الإمام الغزالى، الذى كان فى عداوة لآراء الفلاسفة، وقد رد فى هذا الكتاب على ما كتبه الغزالى فى كتابه : «تهافت الفلاسفة» أى سقوطهم، و «مقاصد الفلاسفة»، ويبدو أن عداوة الإمام الغزالى للفلاسفة والفلسفة ترجع إلى كرهه للمذهب الشيعة وأتباعه الذين استخدموا الفلسفة فى عهده على نطاق واسع. ويعتبر الإمام الغزالى واضع أسس علوم السنة، وقد توفى الإمام الغزالى سنة ٥٠٥هـ/ ١١١٢م.

ولم يكن ظهور علماء للمسلمين قاصراً على الشرق الإسلامي، بل ظهر في بلاد المغرب، والأندلس كذلك نابهون ونابغون عظماء في الطب والفلسفة والعلوم والآداب وغير ذلك، من أمثلة هؤلاء نذكر : ابن باجه، وهو من سرقطه، ومن الذين شرحوا فلسفة أرسطو، وكتابه «تدبير المتوحد» مفقود، وإن كان ظهر منه شروح فلسفية باللغة العبرية، تمت طباعتها في تركيا «القسطنطينية ١٢٩٨هـ»[٧٤]، توفى ابن باجـه «٥٢٣هـ/ ١١٣٨م»، ويعرف عند الأوروبيين باسم "Avempace" .

وابن طفيل صاحب كتاب «حي بن يقظان»[٧٥]، وهو الكتاب الوحيد الذي بقى من مؤلفاته، ويعتبر من أفضل ما تفخر به الفلسفة الإسلامية، وإن كان هناك فلاسفة آخرون من الشرق تناولوا قصة حي بن يقظان هذا، إلا أن ابن طفيل جعل من مؤلفه هذا تراثاً من أعظم ما أنتجته فلسفة المسلمين في العصور الوسطى توفى ابن طفيل (٥٨١هـ/ ١١٨٥م).

وكانت قرطبة (حاضرة الدولة الأموية) تعج بالأنشطة العلمية التي لم تعرفها البلاد من قبل. فقد ساد فيها المذهب المالكي ويرجع الفضل في ذلك إلى زياد بن عبدالرحمن اللخمي المعروف بشبطون، ويحيى بن يحيى الليثي، ومع تسيد مذهب مالك فقد تسرب مذهب الشافعي إلى قرطبة بواسطة قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار وابنه محمد من بعده[٧٦].

ثم تسلل المذهب الظاهري إلى قرطبة بعد ذلك، وصاحبه أبو سليمان داود بن على الأصبهاني المعروف بالظاهري[٧٧].

وقد نبغ عدد كبير من علماء قرطبة في الطب والفلسفة والأدب، نذكر منهم : محمد بن عبدالله بن مسرة القرطبي (٢٦٩-٣١٩هـ/ ٨٨١-٩٣١م) وكان يسمى فيلسوف قرطبة الأول، وقد أحرقت كل مؤلفاته بأمر الخليفة عبدالرحمن الناصر خارج باب جامع قرطبة، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة، ويشير إلى بعض الملحدين.

كما ظهر أحمد بن إياس القرطبي في علم الطب في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط وأبو عبدالله محمد بن عبدون القدري، وحسداى بن شيروط اليهودي في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر، وأبو القاسم الزهراوي في عهد الحكم المستنصر، وكان الزهراوي معروفاً في أسبانيا المسيحية باسم Alsaharavius وقد ترجمت كتبه في الطب إلى اللاتينية سنة ١٤٧٩م[٧٨].

وقد ساعد على انتشار الناحية العلمية والأدبية بالأندلس أن أمراء وخلفاء بنى أمية كانوا يساعدون العلماء بالمال ليتمكنوا من كتابة مؤلفاتهم، بل كانوا يمدونهم أحياناً بما يحتاجون إليه من مراجع.

علم التاريخ

ارتبط علم التاريخ عند نشأته عند المسلمين بعلم الحديث، وقد بدأ على أساس من الرواية الشفهية التى تنتقل من جيل إلى جيل، ويرجع السبب فى ذلك إلى انتشار الأمية فى بلاد العرب قبل وقبيل ظهور الإسلام(٧٩) وفى بداية العصر الإسلامى، وإلى طبيعة هذا المجتمع القبلى وما كان سائداً فيه من الفخر والتفاخر بالأحساب والأنساب وذكر مثالب الآخرين. وإلى تعظيم ملكة الحفظ، لأن العرب فى أول أمرهم كانت تلحقهم أنفة من انتحال العلم لكونه من جملة الصنائع(٨٠). ولكن بمرور الزمن وخروج العرب من بلدانهم بسبب الفتوحات الإسلامية وتواجدهم فى بيئات غير صحراوية ضعفت ملكة الحفظ عندهم، وأصبحوا فى حاجة إلى التدوين.

وفيما يخص بلاد اليمن، فعلى الرغم من أنها كانت مركزاً لحضارات قديمة (مثل حضارة معين وحضارة سبأ) إلا أن ما وصل إلينا من أخبار كان كذلك عن طريق الرواية الشفهية ولا تخرج هذه الأخبار عن كونها أسماء لبعض ملوك اليمن فى العصر الجاهلى، وبعض القصص الذى لا يخلو من الخيال والخرافة. ومع ذلك فإن ما تناقلته الروايات وما وصل إلينا من أخبار العرب فى الفترة السابقة على الإسلام مباشرة أقرب إلى الواقع التاريخى من الروايات التى تختص بالفترات الزمنية السابقة عليها.

والحقيقة أن العرب لم تحاول تدوين ما يعرف بأيام العرب وأخبارهم فى عصور جاهليتهم إلا فى عصر الدولة الأموية، بعد أن ثبتت دعائم الدولة العربية الإسلامية واستقرت أركانها، ومن ثم أخذ العرب يعنون بذلك. ويرجع السبب فى عدم تدوين هذه الأخبار التى دخل فيها كثير من عناصر القصص قبل العصر الأموى إلى ثلاثة عوامل :

أولاً : نظر العرب بعد دخولهم فى الإسلام إلى عصر الجاهلية على أنه كان عصر انحطاط أخلاقى(٨١)، فلم يهتموا برواية أخبار هذا العصر الاهتمام الكافى. ثانياً : شغل العرب عن تدوين أخبارهم القديمة بأمور الدعوة الإسلامية فى حياة الرسول (ﷺ) كما شغلوا

بالفتوحات والتنظيمات الإدارية والاقتصادية والدفاع عن الدولة الإسلامية زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثم أطلت الفتنة الكبرى، وظهر الصراع بين أهل العراق والشام زمن على بن أبى طالب، وبين العصبية اليمنية والمضرية زمن مروان بن الحكم ومن جاءوا بعده. ثالثاً : كانت المواد التى يسجل العرب عليها أخبارهم سهلة الكسر قابلة للفناء[٨٢].

ومن أشهر الإخباريين العرب نذكر : النضر بن الحارث، ومخرمة بن نوفل، وعقيل بن أبى طالب، وعبيد بن شريه الجرهمى اليمنى، ووهب بن منبه اليمنى.

عبيد بن شريه الجرهمى اليمنى : أدرك النبى محمد ﷺ ولكنه لم يلتق به ولم يسمع منه شيئاً، رحل إلى دمشق والتحق ببلاط معاوية بن أبى سفيان حيث برز به[٨٣]، كان يجالس معاوية كل ليلة ويقص عليه شيئاً من أخبار العرب وأيامهم وكذلك أخبار العجم[٨٤]، كلفه معاوية بتأليف كتاب له، فوضع له «كتاب الملوك وأخبار الماضين»[٨٥] وضمنه كثيراً من أخبار العرب فى الجاهلية، وكثيراً من الشعر الذى وضع على لسان عاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة، كما يتضمن بعض أخبار بنى إسرائيل، والكتاب يغلب عليه طابع القصص الشعبى المتأثر بالإسرائيليات[٨٦].

أما وهب بن منبه اليمنى (١١٠هـ/ ٧٢٨م) فهو سليل أسرة فارسية استقرت فى اليمن قبل الإسلام وقد اشتهر وهب بمعرفته لأخبار اليهود والنصارى التى استقاها منهم فى اليمن، ومن أهم مؤلفات وهب بن منبه «كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وغير ذلك»[٨٧] وهو عن تاريخ اليمن قديماً. وقد حفظ ابن هشام لنا الكثير من أجزاء هذا الكتاب فى مؤلفه «كتاب التيجان وملوك حمير»[٨٨]، وفى مركز البرديات بجامعة هايدلبرج بألمانيا قطعة من كتاب من البردى عن المغازى تنسب إلى وهب بن منبه، تاريخ كتابتها يرجع إلى سنة ٢٢٨هـ. وفيها ذكر لبيعة العقبة الكبرى، واجتماع قريش فى دار الندوة وأخبار عن الهجرة. واحتفظ فى مكتبتى بصورة من هذه الكراسة وهى من ورق البردى[٨٩].

ومن المعلوم أن أقدم الكتب التاريخية التى تجمع بين علم الحديث والتاريخ هى كتب المغازى والسير، وطبيعى أن تكون نشأتها فى مدينة الرسول ﷺ بوصفها «دار السنة» حيث عايش الصحابة الرسول الكريم ووقفوا على كثير من حياته وسمعوا أحاديثه ورووها إلى التابعين.

والواقع أن الكتابة فى تاريخ المغازى والسير لم تنتشر من المدينة إلى غيرها من الأمصار إلا فى القرن الثانى للهجرة. ومن البدهى أن الكتابة في المغازى والسير تنقلنا لأول مرة إلى الكتابة التاريخية الصحيحة عند العرب(٩٠). ومن أقدم كتاب المغازى : عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٢هـ/ ٧١٠م)، من أوائل المؤرخين الذين دونوا السيرة النبوية الشريفة، وصلت إلينا بعض ما كتب فى مؤلفات ابن اسحق وابن هشام والواقدى، وابن سعد، وابن جرير الطبرى، فقد أخذوا جميعاً عنه؛ وكتابات عروة بن الزبير عن فترة صدر الإسلام حيث تتضمن السيرة الشريفة وتاريخ الراشدين.

أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ/ ٧٢٣م تقريباً) وقد درس الفقه والحديث وكتب صحفاً عن سيرة الرسول الكريم ﷺ تناول فيها سيرته وغزواته وجهاده. ويعتبر أبان بن عثمان أول من دون مجموعة خاصة بغزوات الرسول، وهو من رواد الكتابة التاريخية فى المدينة المنورة التى بدأت الدراسات التاريخية فيها(٩١).

ومن مؤرخى المدينة الأول والذين شهروا بكتابة السيرة كذلك شرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ/ ٧٤٠م) وعبدالله بن أبى بكر بن حزم (ت ١٣٥هـ/ ٧٥٣م) وعاصم بن عمر بن قتادة (ت ١٢٠هـ/ ٧١٧م). ويأتى على رأس هؤلاء جميعاً محمد بن شهاب بن مسلم الزهرى (ت ١٢٤هـ/ ٧٤١م) وهو قرشى من قبيلة زهرة، درس فى المدينة وتنقل طلباً للعلم بين الحجاز ودمشق، واتصل بخلفاء بنى أمية، واشتهر بسعة علمه، وبأنه جمع علم شيوخه فى المدينة، كان حافظاً قوى الذاكرة شغوفاً بجمع الأخبار، وكان يقول : «ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشرى ولا بذله بذلى»، وكان من عادته فى مجلس علمه أن يسأل الحاضرين جميعاً فيما يقول حتى يحرك نشاطهم الذهنى، وقد امتاز الزهرى بإقباله على تدوين الحديث والأخبار التى يجمعها بطريقة لم تكن معهودة أو مألوفة فى ذاك الوقت، ويبدو أنه كان مكلفاً من الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز، وهشام بن عبدالملك بذلك. عرف الزهرى بقوة أسانيده، وكان يدمج عدة روايات فى رواية تاريخية واحدة ويسلسلها، وبذلك تقدم الزهرى خطوة هامة نحو الكتابة التاريخية المتصلة(٩٢).

روى أحد تلاميذه أنه وجد فى مكتبة الأمويين بدمشق مجلدات كثيرة تحتوى على المادة العلمية التى جمعها الزهرى(٩٣). وتعتبر هذه المادة العلمية أساساً لمؤلفات كتبها فى

المغازى ثلاثة من تلاميذه[٩٤]، أحدهم : معمر بن راشد اليمانى البصرى (ت نحو ١٥٠هـ/ ٧٦٧م) الذى ترك لنا كتاباً فى علم الحديث وفى المغازى لايزال محفوظاً فى استنبول، وهو مكتوب على رق غزال، وقد نسخت هذه النسخة فى طليطلة سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م[٩٥]. أما أشهر تلاميذ الزهرى فهو محمد بن اسحق من أهل المدينة فارسى الأصل، كان مولى لعبدالله ابن قيس بن مخرمة بن عبدالمطلب[٩٦] (ت ١٥١هـ/ ٧٦٨م) رحل إلى العـراق، واتصل بالخليفة العباسى أبى جعفر المنصور الذى كلفه بتأليف كتاب فى المغازى، لم يصل إلينا كاملاً، وإنما نقله إلينا بشئ من التعديل والاختصار ابن هشام الحميرى، وأصبح هذا الكتاب مشهوراً بسيرة ابن هشام، (ت ٢١٨هـ. ٨٣٣م)، ولكن ابن هشام أشار فى مقدمته إلى التعديلات التى أجراها على كتاب ابن اسحق، ومع ذلك فإن قسطاً كبيراً مما حذفه ابن هشام قد وصل إلينا فيما نقله الطبرى (تاريخ)، وفيما دونه الأزرقى فى كتابه (أخبار مكة)[٩٧]، وقد اهتم المستشرقون بسيرة ابن اسحق وقاموا بترجمتها إلى لغاتهم منذ القرن التاسع عشر.

ويمكن القول بأن القرن الثانى للهجرة شهد نشاطاً فكرياً واضحاً فيما يتعلق بكتابة السير والمغازى، وترجع أهمية هذه الفترة لكونها تمثل نماذج من الكتابة التاريخية عند المسلمين ومن أبرز مؤرخى هذه الفترة موسى بن عقبة مولى الزبير بن العوام، ثم تبعه فى هذا العلم عدد وفير من الكتاب، من أهمهم الواقدى وابن سعد.

محمد بن عمر الواقدى (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) يعد أعظم من جاءوا بعد ابن اسحق فى كتابة المغازى، وهو من المدينة المنورة، اتصل بالخلفاء العباسيين وعين قاضياً للرصافة فى العراق فى خلافة المأمون، وانكب على دراسة المعارف التى سادت فى عصره، ونسخ ما استطاع الوصول إليه من المخطوطات، وقد أشار صاحب الفهرست، وصاحب معجم الأدباء إلى الكثير من مؤلفات الواقدى فى علوم القرآن الكريم، والحديث الشريف، والفقه والتاريخ. ومن بين مؤلفاته فى علم التاريخ : «التاريخ الكبير» من غزوات الرسول حتى خلافة هرون الرشيد، وقد استند الطبرى عليه فيما كتبه حتى سنة ١٧٩هـ، «كتاب الطبقات»، «السيرة» وعدد من الرسائل فى أخبار مكة وبيعة السقيفة، وسيرة أبى بكر الصديق وحروب الردة، ووقعة الجمل، وقعة صفين، فتوح الشام وهو والمخطوط محفوظ بالمتحف البريطانى، وقد نشر الكتاب في لندن[٩٨] وفتوح العراق، وضرب السكة من دنانير ودراهم، ومن المؤسف حقاً أن هذه المؤلفات لم يصل لنا منها إلا مقتطفات دونها المتأخرون من الكتاب فى مؤلفاتهم. والكتاب الوحيد

الذى وصل إلينا من مؤلفات الواقدى هو «كتاب المغازى» وقد نشر المستشرق Von Kremer قسماً منه فى كلكتا بالهند سنة ١٨٥٦م عن مخطوط غير كامل وجده فى دمشق، ولكن نسخة أخرى مخطوطة كاملة من هذا المؤلف ضمن محتويات المتحف البريطانى بلندن(٩٩). ومع كل ما يحيط بمؤلفات الواقدى من تقدير، إلا أنه يوصف بالتشيع، وإن كان البعض يقول عنه أنه من المتشيعين المعتدلين(١٠٠).

محمد بن سعد بن منيع الزهرى (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) ولد فى البصرة، ثم رحل إلى المدينة لتلقى العلم فيها، ومنها ذهب إلى بغداد واتصل بالواقدى، الذى اتخذ ابن سعد كاتباً له، ولذلك عرف بكاتب الواقدى وبتلميذه. وقد التقى ابن سعد بكبار شيوخ الحديث فى عصره سواء من قابلهم فى المدينة أو فى غيرها(١٠١). كتب ابن سعد مؤلفاً بعنوان «الطبقات الكبرى» وهو من المصادر الأساسية فى تاريخ المسلمين. ومن الجدير بالذكر أن ابن النديم لا يذكر فى (الفهرست) من كتب ابن سعد غير كتاب «أخبار النبى» ويبدو أن ابن سعد كتب هذه السيرة أولاً، ثم دون مؤلفه «الطبقات الكبرى» ثم قام ابن معروف بجمع الكتابين فى كتاب واحد «حوالى سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢» وبذلك أصبحت السيرة الشريفة تشغل الجزء الأول من هذا الكتاب، ثم يلى ذلك تراجم الصحابة والتابعين(١٠٢).

انتقل كثير من مؤرخى المدينة المنورة إلى عاصمة الدولة العباسية فى بغداد، بعد أن مهدوا الطريق لكتابات غير التى اشتغلوا بها من قبل، وبذلك بدأ المؤرخون فى العصر العباسى يكتبون فى التاريخ العام، ويسجلون أخبار الأمم والبلاد، وتأثروا فى ذلك بكتب التاريخ الفارسية، التى ترجمت إلى العربية مثل كتاب «سير ملوك العجم» الذى ترجمه ابن المقفع (ت ١٤٠هـ/ ٧٥٧م).

ويعد ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينورى (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) أقدم كتاب التاريخ العام، ولد بالكوفة، ونسب إلى مدينة الدينور لأنه تولى القضاء بها، كان عالماً فى النحو واللغة والعلوم الدينية والأدب. من مؤلفاته «كتاب المعارف» وكتاب «الإمامة والسياسة» وكتاب «عيون الأخبار». وقد توفى ابن قتيبة فى بغداد.

أحمد بن أبى يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبى (ت حوالى سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) وهو من معاصرى ابن قتيبة، كان جده من موالى الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، كان

اليعقوبى رحالة وجغرافياً إلى جانب كونه مؤرخاً. من مؤلفاته «كتاب البلدان» وهو أقدم كتب المدن والجغرافيا التى وصلتنا، «تاريخ اليعقوبى» وهو فى جزئين، الأول تاريخ عام قديم، والثانى تاريخ المسلمين مرتباً بعصور الخلفاء حتى عصر المعتمد على الله سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م. واشتهر اليعقوب بميوله للعلويين.

أبو حنيفة الدينورى : من أهل الدينور، كان من علماء اللغة والنبات والهندسة والحساب إلى جانب كونه مؤرخاً مشهوراً. من مؤلفاته : «الأخبار الطوال» ويبدأ من آدم عليه السلام حتى آخر أيام الخليفة العباسى المعتصم بالله وثورة بابك الخرمى وحروبه. اختلف فى تاريخ وفاته، يذكره البعض سنة ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م بينما يذكره آخرون سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م.

أما أشهر المؤرخين المسلمين وشيخهم بدون منازع فهو الطبرى ويليه المسعودى محمد بن جرير الطبرى : (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) فى بغداد، وولد فى طبرستان جنوب بحر قزوين، رحل إلى مصر والشام والعراق طلباً للعلم، ذاعت شهرة الطبرى بسبب تفسيره للقرآن الكريم (جامع البيان عن تأويل آى القرآن)(١٠٣) وبكتابه «تاريخ الرسل والملوك» والمشهور بتاريخ الطبرى، وقد أحصى المحقق للطبرى ستاً وعشرين مؤلفاً فى صنوف العلم المختلفة.

وكتابه فى التاريخ يعد أكمل وأوفى عمل تاريخى بين مصنفات العرب، أقامه على منهج مرسوم، بلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والأمانة، أكمل ما قام به المؤرخون قبله، كاليعقوبى والبلاذرى والواقدى وابن سعد، ومهد السبيل لمن جاء بعده كالمسعودى، وابن مسكويه، وابن الأثير، وابن خلدون، فهؤلاء وغيرهم اعتمدوا على ما كتبه فى «تاريخ الرسل والملوك»، ويقال إن كتابه فى التفسير وكتابه فى التاريخ بلغ كل منهما ثلاثين ألف ورقة، ولكنه اختصرهما إلى الحجم الحالى (التفسير ثلاثون جزءاً، والتاريخ عشرة أجزاء)(١٠٤).

والطريقة التى سار عليها شيخنا الطبرى فى تأليف كتابه هى طريقة المحدثين فيذكر الحوادث عن طريق الرواية، ويذكر السند، ولا يبدى فيما دونه رأياً ولا نقداً، وقد سلك ذلك فى معظم الكتاب، وفيما عدا ذلك كان ينقل من كتب سابقيه فيصرح أحياناً باسم الكتاب، أو ينقل عن المؤلفين بدون تحديد للكتاب الذى نقل عنه أحياناً أخرى. ولذلك وجه بعض المؤرخين إلى الطبرى النقد فى هذا المنهج الذى اتبعه. وهناك من يلتمس للطبرى العذر لأنه هو نفسه محدث قبل أن يكون مؤرخاً، ثم إنه أبرأ ذمته وصرح فى مقدمة تاريخه على أن اعتماده فى

منهج هذا الكتاب هو ما سمعه أو نقله من الروايات إلى أن قال : « ... فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة ولا معنى فى الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وإنما أتى فى بعض ناقليه إلينا ، وإنما أنا أديت ذلك على نحو ما أدى إلينا ».

ومن المميزات القيمة لتاريخ الطبرى أنه حفظ لنا كتابات كثيرة من مصادر تاريخية سابقة عليه، ولولا ما نقله الطبرى منها ما علمنا عنها ولا عن مؤلفيها شيئاً. من أمثلة ذلك ما نقله من كتابات أبى مخنف لوط بن يحيى بن سعيد الأزدي (ت ١٥٧هـ) ، وهى كثيرة فى تاريخه، وأبو مخنف هذا من العلويين، ولذلك تنعكس ميوله الشيعية فى كتاباته واهتمامه بالعلويين والخوارج، ومن ثم ينبغى على طلبة الدراسات التاريخية أن يكونوا على حذر عند تناول رواياته فى كتاب الطبرى.

وعلى الرغم مما قيل أو يقلل، فإن كتاب تاريخ الرسل والملوك، سيظل بما اشتمل عليه من الروايات الأصيلة، والنصوص النادرة، وأسلوبه المتين، أشمل كتاب للتاريخ عند العرب.

أما المسعودي : أبو الحسن على بن الحسين بن على فهو من ذرية الصحابى الجليل عبدالله بن مسعود ، نشأ فى بغداد ، ثم جاء إلى مصر وتوفى بها سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م. اتبع منهجاً جديداً فى كتابة التاريخ، فلم يتبع طريقة تسجيل الأحداث التاريخية مرتبة حسب السنوات الهجرية (طريقة الحوليات) بل جمعها تحت رءوس موضوعات، وقد سار على نهجه بعض المؤرخين مثل ابن خلدون. رحل المسعودى كثيراً طلباً للعلم، وأمضى الجزء الأخير من حياته مستقراً فى مصر وسوريا ، حيث ألف كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وهو كتاب يشتمل على علم التاريخ وعلم الجغرافيا ، وقد تناول المسعودى فيه إلى جانب من تاريخ الهند والفرس والروم واليهود ، وجمع فيه معلومات طريفة وقيمة وذات فائدة علمية.

وقد صنف المسعودى كتاباً آخر بعنوان «التنبيه والإشراف» ضمنه رأيه فى فلسفة التاريخ وفلسفة الحياة، وآراء الفلاسفة فى العلاقات الكائنة بين الحيوان والنبات والجماد. كما ضمنه جانباً عن تاريخ القدماء ، وتاريخ المسلمين وجغرافية المدن والبلدان. وكان لكتاباته أثر كبير وصدى واضح ولذلك سماه المؤلفون «هيرودوت العرب»(١٠٥).

ومن أوائل المؤرخين وأشهرهم بمصر والذين اهتموا بالكتابات التاريخية والخطط إلى

جانب اشتغالهم بالعلوم الدينية نذكر :

عبدالرحمن بن عبدالحكم القرشى المصرى، (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) كان راوياً للحديث، ثم شغف بالقصص والأخبار، وكلف بالتاريخ[١٠٦]، من مصنفاته فى علم التاريخ كتاب (فتوح مصر)، وابن عبدالحكم يعد أول من أرخ لخطط مصر، فقد تناولها فى فصل خاص فى كتابه، ثم أخذ المؤرخون من بعده يعملون على إنماء هذا التراث حتى بلغ ذروته على يد المقريزى.

أبو عمر محمد بن يوسف الكندى (٣٥٠هـ/ ٩٦١م) عنى بدراسة العلوم الدينية وبخاصة علم الحديث، ثم انصرف إلى علم التاريخ والكتابة فيه، فألف مجموعة من الكتب، من أهمها : كتاب «ولاة مصر» وكتاب «قضاة مصر» كما كتب فى خطط مصر، وقد اعتمد المقريزى على ما كتبه الكندى وابن عبدالحكم عند تأليف كتابه : «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف بخطط المقريزى.

الحسن بن إبراهيم ابن زولاق (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) ممن شهروا بكتابة التاريخ الإسلامى فى مصر، كما عنى بخطط مصر متبعاً من سبقوه من المؤرخين، من تصانيفه : كتاب «فضائل مصر» وكتاب «قضاة مصر» وهو ذيل لكتاب «قضاة مصر» الذى كتبه الكندى من قبل، ومن كتبه أيضاً : كتاب «سيرة محمد بن طغج الأخشيد» وكتاب «أخبار سيبويه المصرى»، وقد اشتمل هذا الكتاب على كثير من نواحى الحياة الاجتماعية فى عهد الدولة الأخشيدية[١٠٧].

ومن المؤرخين المسلمين المشهورين كذلك مسكويه (أو ابن مسكويه) (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) كان أميناً لمكتبة ركن الدولة الفضل بن العميد، ثم دخل فى خدمة عضد الدولة ابن بويه، وكان يجيد اللغة الفارسية القديمة المسماه باللغة البهلوية إلى جانب إجادته للغة العربية. وكتابه «تجارب الأمم»[١٠٨] من المصادر التى يثق المؤرخون بمحتوياته فى كثير من الموضوعات، فقد اعتمد ابن مسكويه على ابن جرير الطبرى إلى حد كبير فى الأخبار التى لم يعايشها[١٠٩]، كما أنه كان على صلة بالشخصيات المهمة والكبيرة فى عصره مما جعله يستقى المعلومات من مصادرها الموثوق بها. ولم تقتصر شهرة ابن مسكويه على علم التاريخ ولكنه كان كذلك فيلسوفاً وطبيباً، وخبيراً بأخبار الحروب وأحوال السياسة مما مكنه من أن يكون صادقاً فى كتاباته، معتدلاً فى أحكامه.

ومن هؤلاء المشهورين كذلك المسبحى (ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م) والماوردى (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) والقضاعى (٤٥٥هـ/ ١٠٦٢م) والخطيب البغدادى (٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) وأبو الفضل البيهقى (ت ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م)، وابن القلانسى (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) وعلى بن عساكر (٥٧٣هـ/ ١١٧٦م) وفرج بن الجوزى (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، وعز الدين بن الأثير (ت ٦٢٠هـ/ ١٢٣٣م) وسبط ابن الجوزى (ت ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) والقفطى (ت ٦٤٦هـ/ ١٠٤٨م) وأبو شامه (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) والمكين ابن العميد (٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م) وابن خلكان (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) وابن سعيد المغربى (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) وجمال الدين بن واصل (٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) وأبو الفداء (٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) والنويرى (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) وشيخ الإسلام الذهبى (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) وابن أيبك (٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) والصفدى (٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) وابن الفرات الحنفى (٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م) وابن خلدون (٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) والقلقشندى (٨٢١هـ/ ١٤١٨م) والمقريزى (٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) وابن حجر العسقلانى (٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) وابن تغرى بردى (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) وابن إياس (ق ٩هـ/ ١٥م) ثم يأتى بعد هؤلاء السخاوى (٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) والسيوطى (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) والمقرى (١٠٤١هـ/ ١٦٣٣م) وحاجى خليفة (١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م)(١١٠).

والحقيقة أن الكتابات التاريخية أخذت تتضح أسسها وقواعدها مع كتابات مؤرخى القرن السادس الهجرى (١٢م) وأصبح علم التاريخ فى عداد العلوم أو الفنون ذات الأصول والقواعد الراسخة. فقد ظهرت كتابات تاريخية خالية من التعقيد اللغوى، مثل كتابات عز الدين بن الأثير، وابن الجوزى، وابن عساكر، ثم نما هذا التطور فى الكتابات التاريخية مع كتاب القرن السابع الهجرى حتى بلغ ذروته فى القرن التاسع الهجرى (١٥م) حيث وضع المؤرخون المسلمون أسس وقواعد للكتابة التاريخية، وبذلك أصبح من الممكن تحديد معالم الكتابات التاريخية المتعددة.

فقد كتب بعض المؤرخين مصنفاتهم حسب السنين ومن ثم ظهرت الحوليات، وأرخ البعض حسب الموضوعات فظهرت الدراسات المتخصصة فى النظم والقوانين والأحكام والملل والنحل والنميات والحسبة والخراج. كما صنفوا التراجم فظهرت معاجم الأدباء، وكتب الوفيات، وكتب الأعلام، وقد برع فى هذا التصنيف ياقوت الحموى، وابن خلكان، وابن القوطى، وابن شاكر الكتبى، وشيخ الإسلام الذهبى وابن حجر العسقلانى، والسخاوى.

ومصنفات التاريخ تشمل نوعين، نوع يسمى التاريخ العام Universal History والنوع الآخر يسمى التاريخ المحلى Local History، ويمثل الأول منهجاً تميزت به كتابات التاريخ الإسلامى حيث يبدأ المؤرخ بكتابة تاريخ الخليقة منذ بدايتها وينتهى حيث ينتهى به الأجل.

وأما الثانى فيعطى نزعة محلية قومية، بحيث يهتم المؤرخ بتاريخ دولة أو إقليم أو مدينة، وقد ألف عدد كبير من المؤرخين المسلمين فى هذا النوع من التاريخ، فظهرت كتابات تاريخية كثيرة عن المدن الإسلامية الكبرى مثل : تاريخ مكة، تاريخ المدينة، تاريخ بيت المقدس، تاريخ فاس، تاريخ القيروان، تاريخ دمشق، تاريخ حلب، تاريخ الأسكندرية، تاريخ بخارى. ومن المؤرخين من عنى بتاريخ الإقليم أو المنطقة ككل مثل تاريخ مصر أو القاهرة، تاريخ الشام، تاريخ الجزيرة (العراق)، ومنهم من كتب سيرة ذاتية لزعيم من زعماء المسلمين مثل : سيرة أحمد بن طولون، سيرة البطل صلاح الدين الأيوبى، وغيرهما.

وقد سار المؤرخون المحدثون على هذا المنهاج وتأثروا به فى كتاباتهم، وقد انتقل هذا المنهاج إلى مؤرخى أوروبا عن طريق الأندلس وصقلية والمعابر الأخرى التى عن طريقها انتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوروبا[١١١]، وكذلك نجد أن الأوروبيين عندما بدأوا يكتبون تاريخهم دونوه على نظام الحوليات التى تتشابه مع الحوليات العربية.

علم الجغرافيا

يرجع اهتمام العرب بالجغرافيا منذ قبل الإسلام لارتباطها بحياتهم التجارية وأسفارهم، فكان عليهم أن يعلموا شيئاً عن حركة النجوم ومسير الكواكب، ومتابعة تغيرات الطقس والمناخ[١١٢]، ومصادر هبوب الرياح، وأوصافها، كما كانوا يهتمون بتحركات السحب لمعرفة نزول المطر الذى يعتمدون عليه فى السقيا والمرعى[١١٣]. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى : (وعلامات وبالنجم هو يهتدون)[١١٤] وقد بدأ العرب المسلمون يكتبون فى الجغرافيا فى نفس الوقت الذى بدأوا فيه بالكتابة فى علم التاريخ. فالذين كتبوا فى تاريخ العرب والمسلمين هم أنفسهم الذين كتبوا فى الجغرافية. لأن التاريخ والجغرافيا فى نظر العرب فرعين متلازمين من شجرة المعارف العامة التى يطلقون عليها اسم (الأدب) بصفة عامة[١١٥]. ومن الأمثلة على ذلك هشام بن محمد الكلبى الذى صنف كتباً فى البلدان وفى

قسمة الأرضين وفى الأنهار وفى الأقاليم إلى جانب ما صنفه من كتب التاريخ. وكذلك أبو سعيد عبدالملك بن قريب الأصمعى (ت ٢١٧هـ/ ٨٣٢م) الذى ألف كتباً فى النبات والشجر، وفى الأنواء وفى وصف جزيرة العرب، وفى مياه الأرض، وإن كان ما كتبه هؤلاء الأولون قاصراً فى معظمه على جزيرة العرب.

وقد ظهر اهتمام المسلمين بهذا العلم فيما يعرف بتقويم البلدان، حيث وصفوا المدن والبلدان، والطرق المؤدية إليها، والشعاب الخارجة منها، وذكروا حاصلاتها ومناخها ومميزاتها وسلبياتها، كل ذلك قبل أن يتأثروا بعلوم اليونان. ولعل من أهم الأسباب التى دفعت المسلمين إلى العناية بتقويم البلدان هى :

١ - معرفة البلاد التى فتحها المسلمون زمن الراشدين والأمويين حتى يتمكنوا من تنظيم جباية الجزية وضريبة الخراج.

٢ - كثرة ترحال المسلمين من شبه الجزيرة العربية إلى بلدان إسلامية متعددة فى العالم الإسلامى طلباً للعلم، وجمعاً للحديث الشريف، وتدويناً للأدب ومفردات اللغة من أهل البادية.

٣ - اشتغال الكثير من أهل الجزيرة العربية فى وظائف مالية وإدارية بالدواوين التى أنشئت فى المدن والبلدان الإسلامية على غرار دواوين المدينة التى أنشأها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).

٤ - حاجة أهل البلاد التى دخلها الإسلام إلى معرفة الطرق والمسالك المؤدية إلى مكة والمدينة لتأدية فريضة الحج، والقيام بزيارة قبر الرسول الكريم ﷺ.

٥ - كانت للعرب منذ قبل الإسلام رحلتان عظيمتان للتجارة، إحداهما شتاء نحو اليمن والأخرى صيفاً نحو الشام، وقد بقيت هاتان الرحلتان بعد ظهور الإسلام وجاء ذكرهما فى القرآن الكريم «سورة قريش».

ولذلك تعددت كتبهم ومصنفاتهم فى هذا العلم، ولاتزال هذه المؤلفات التى كتبها الجغرافيون المسلمون هى ركيزة وأساس علم الجغرافيا عند علماء الأوروبيين، ومن أهم ما تتميز به هذه المؤلفات الجغرافية دقة التحرى، ومطابقة الوصف، والأمانة العلمية، الأمر الذى أدهش علماء الغرب الأوروبى.

والحقيقة أن الجغرافيين المسلمين درسوا ما كتبه الجغرافيون القدامى وأفادوا مما كتبوه، وصححوا ما ورد في كتاباتهم من أخطاء، ثم أضافوا إليها وطوروا فيها، ومن أهم كتب الجغرافيين القدامى ما كتبه الجغرافي المصري السكندري بطليموس القلوذى مثل : «المدخل إلى علم الجغرافيا »، و«الجامع فى الفلك» وقد ترجم الكتاب الأول إلى العربية الحجاج يوسف ابن مطر[١١٦] بعنوان : «المجسطى» وتعنى الكتاب الأعظم. ثم صقلت هذه الترجمة وأعيدت كتاباتها عدة مرات، منها ترجمة حنين بن اسحاق ثم ترجمة ثابت بن قرة الحرانى[١١٧] (٢٨٨هـ/ ٩٠١م) وترجمة يعقوب بن اسحق الكندى[١١٨]، وينتسب يعقوب هذا إلى ملوك كنده، وكان عالماً بالطب والفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك.

وقد نسج محمد بن موسى الخوارزمى (٢٢٦هـ/ ٨٤٠م) على منوال بطليموس السكندرى، فبعد ترجمته لكتاب بطليموس، قام هو بتأليف كتاب فى الجغرافيا سماه «صورة الأرض» أصبح أساساً لمؤلفات جغرافية تالية، وقد ألحق الخوارزمى بكتابه هذا خريطة رسمها بمساعدة تسعة وستين عالماً بتكليف من الخليفة العباسى المأمون (١٩٩-٢١٨هـ/ ٨١٤-٨٣٣م) الذى أمر برسم خريطة للعالم تظهر فيها القارات والبحار والصحارى والبلدان وأماكن السكنى.. إلخ وقد عرفت بالصورة المأمونية[١١٩] وقد تميزت هذه الخريطة بالتفوق على كل الخرائط التى رسمها من قبل ماريتوس، وبطليموس وغيرهما، وقد لونت هذه الخريطة بالأصباغ.

وجدير بالذكر أن الخوارزمى ذاع صيته العلمى وعم ذكره الآفاق ليس كعالم جغرافى، ولكن كعالم فى الرياضيات، وقد ذكره چورج سارتون فى كتابه «المدخل إلى تاريخ العلم»[١٢٠] بأنه أكبر عالم فى الرياضيات ظهر عبر كل العصور، كما وصفه علماء كثيرون بصفات التقدير. ومع أن الجغرافيين المسلمين عرفوا ما تناوله بطليموس السكندرى فى كتاباته عن الجغرافيا منذ القرن الثالث الهجرى/ ٩ الميلادى فإن أوروبا وعلماءها لم تعرف عن كتابات بطليموس (المجسطى) إلا عن طريق العرب عندما ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية فى القرن ١٢ الميلادى/ ٦ الهجرى بواسطة Grardo of Cremona (جراردو القرمونى) سنة ١١٧٥م. وبذلك يكون العرب قد حفظوا تراث اليونانيين ومعارفهم، فبعد أن درسوها، وصححوا ما بها من أخطاء علمية، أضافوا إليها الكثير مما لا عهد لليونانيين ولا لغيرهم به، ومن هنا فإن الغرب الأوروبى وعلماءهم مدينون للعرب المسلمين فى معرفة كثير من علم

الجغرافيا عند اليونان بما نقلوه عن العرب ومن كتبهم. وقد عرف الخوارزمى للأوروبيين باسم Algorithmus ولذلك ينسب إليه علم الرياضيات (اللوغاريتمات Legerithme ومعظم كتبه بالعربية ضاعت، ولكن ترجماتها باللاتينية موجودة.

ومن الجغرافيين المسلمين المشهورين نذكر، اليعقوبى : أحمد بن يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) فهو إلى جانب كونه مؤرخاً له مؤلفات أصيلة فى الجغرافيا مثل كتاب «البلدان»، وابن خرداذبه : أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله الخرسانى (٣٠٠هـ/ ٩١٢م) وكتابه «المسالك والممالك» ويشتمل هذا الكتاب على بيانات وإحصاءات وافية عن الخراج ومسالك البلاد والمسافات بينها، وقد انتفع بمعلوماته ابن الفقيه الهمذانى، وابن حوقل والمقدسى.

والهمدانى : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) وكتابه «صفة جزيرة العرب» قام بتحقيقه ونشره داڤيد مولر فى ليدن سنة ١٨٨٤، ثم طبع فى القاهرة سنة ١٩٥٣ وفى الرياض سنة ١٩٧٤ وابن الفقيه الهمذانى : أبو بكر أحمد ابن محمد، وكتابه «مختصر كتاب البلدان» طبع فى ليدن سنة ١٨٨٥ بإشراف دى خويه، ويضم الكتاب وصفاً للأرض والبحار فى الصين والهند وبلاد العرب، وتوفى ابن الفقيه أواخر القرن الثالث الهجرى/ ١٠م. وابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على النصيبى (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) وله كتاب «صورة الأرض» وهو نفس عنوان كتاب الخوارزمى، والمقدسى : أبو عبدالله محمد بن أحمد (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) وكتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» وقد وصفه المستشرق الروسى بارتولد Barthold بأنه أعظم الجغرافيين فى العالم على مر العصور. والبكرى : عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسى (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) وكتابه «المسالك والممالك» وهو نفس عنوان كتاب ابن خرداذبه، وله أيضاً «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع». والإدريسى : أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)(١٢١) وكتابه «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، وقد كتبه بتكليف من روجر الثانى ملك النورمان فى صقلية، حيث التحق الإدريسى ببلاطه. وياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبدالله (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) وكتابه : «معجم البلدان»، وقد امتهن ياقوت التجارة ليحقق له كثرة الأسفار والترحال ولكى يكتب عن البلدان والمدن والبحار والجبال. ومعجمه موسوعة كبيرة فى خمسة مجلدات. طبع فى بيروت أخيراً سنة ١٩٦٧. والقزوينى : زكريا بن محمد بن محمود

(٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) وكتابه «آثار البلاد وأخبار العباد» له عدة طبعات آخرها طبعة بيروت سنة ١٩٦٩، وغير هؤلاء كثيرون ممن أثروا الحياة العلمية فى جوانب متعددة وكان لهم أثرهم الواضح فى تطور الحضارة الإسلامية وتأثيرها بعد ذلك على حضارة الغرب الأوروبى.

ولا يفوتنا أن نذكر ما دونه الرحالة المسلمون من وصف يتضمن كثيراً من علم الجغرافيا للبلاد التى زاروها والمسالك التى طرقوها، ومن هؤلاء نذكر : سليمان التاجر السيرافى الذى رحل بقصد التجارة إلى بلاد الهند والصين، حوالى أواسط القرن ٣هـ/ ٩م ودون مشاهداته ووصف البلاد التى زارها فى كتابه : (أخبار الهند والصين) وقد سمى الكتاب خطأ باسم (سلسلة التواريخ) عندما طبع سنة ١٨١١م على يد المستشرق الفرنسى Langlés حيث توجد بالمكتبة الوطنية بباريس نسخة منقولة عن النسخة الأصلية برقم ٢٢٨١، وقد أعيد تحقيق الكتاب وطبعه بعد ذلك عدة مرات.

وابن فضلان كذلك، وقد أرسله الخليفة العباسى المقتدر بالله سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م إلى بلاد البلغار (إقليم الفولجا) ضمن البعثة التى أرسل بها إلى ملك البلغار بعدما أسلم وطلب من الخليفة أن يرسل إليه من يفقه المسلمين من أهل هذه البلاد فى دينهم ويعلمهم تعاليم الإسلام.. إلخ. وقد كتب ابن فضلان مشاهداته عن رحلته هذه وترك لنا ما دونه عن عادات وتقاليد وسلوك الخزر والروس والبلغار وقام المستشرق الألمانى Frähn بنشر رحلة ابن فضلان لأول مرة فى مدينة Petersburg بطرسبورج بروسيا سنة ١٨٢٣م ثم أعيد طبع الكتاب مع ترجمات أوروبية بعد ذلك.

والرحالة ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى (٦١٤هـ/ ١٢١٧م) مما وصلنا من كتبه «تذكرة الأخبار عن إتفاقات الأسفار» المعروف بالرحلة، وله عدة طبعات آخرها طبعة القاهرة ١٩٥٨، وابن بطوطة : شمس الدين أبو عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتى (٧٩٩هـ/ ١٣٦٩م) وهناك من يقول إن وفاته كانت سنة ٧٧٠هـ، وكتابه «تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهو الآخر معروف بالرحلة.

وناصر خسرو، من فارس قام برحلات وأسفار عديدة وطويلة فزار بلاد الهند وتركستان وبلاد العرب بالإضافة إلى جميع نواحى ومدن إيران، زار مصر فى عصر الفاطميين فيما بين سنتى ٤٣٩، ٤٤١هـ/ ١٠٤٧-١٠٥٠م، وأعجب بها ومدحها، وتأثر بالمذهب الإسماعيلى

وأصبح من دعاته، بعد أن ترك المذهب السني، وعندما عاد إلى خراسان أخذ يدعو إلى المذهب الإسماعيلي الشيعي فطارده السلاجقة حكام البلاد وأجبروه على الفرار إلى بلاد ما وراء النهر حيث توفى هناك سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م، كتابه «سفر نامه» له قيمته العلمية فى حضارة المشرق الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى، ترجم من الفارسية إلى الفرنسية لأول مرة بواسطة شارل شفر Charles Schefer وطبع فى باريس سنة ١٨٨١ ثم ترجمه د./ يحيى الخشاب إلى العربية وطبع فى مصر سنة ١٩٥٤.

وقد تحدث الجغرافيون المسلمون والرحالة فيما دونوه عن الجغرافيا الاقتصادية، وعن الإنتاج الزراعى، والثروات المعدنية، وسجلوا الحياة الاجتماعية لسكان المدن والبلدان التى زاروها، وقدموا الإحصائيات لتساعد الحكام المسلمين فى جمع الخراج وجباية الجزية.

ومن الغريب أن الأوروبيين لم يعرفوا بلدان أفريقيا إلا عن طريق كتابات العرب المسلمين وظلوا يعتمدون على هذه الكتابات التى كانت مرجعهم الوحيد حتى القرن التاسع عشر الميلادى. ومن الكتابات التى اعتمدت أوروبا عليها ما كتبه الجغرافى الأفريقى الحسن بن محمد الوزان الذى عاش فى أوروبا وعرف باسم ليو الأفريقى Leo Africanns ودون كتاباً بعنوان «وصف أفريقية» ترجمه بعد ذلك إلى الإيطالية وأهداه للبابا ليو العاشر(١٢٢). ويرى البعض أن ليو الأفريقى ليس عربياً، ولكن فى ندوة دولية أقامتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فى الرياض (فى أواخر السبعينيات تقريباً) ثبت من خلال البحوث أنه عربى أفريقى(١٢٣).

وبالنسبة لرسم الخرائط الجغرافية فقد مارس الجغرافيون المسلمون هذا الفرع من علوم الجغرافيا معتمدين بدون شك على كتابات اليونان والرومان ورسومهم، وبصفة خاصة على كتاب (تسطيح الكرة)(١٢٤) أى رسم الكرة الأرضية على الورق لمؤلفه بطليموس الأسكندرى (٩٠هـ/ ١٦٨م) آخر جغرافى قديم قدم لعلماء عصره ومن جاءوا بعده خرائط يعتد بها. ومن الثابت أن المسلمين لم يقلدوا ما وجدوه من رسومات جغرافية تقليداً أعمى كما يقولون ولكنهم أضافوا إلى هذه الخرائط وصححوا ما كان فيها من أخطاء، وساعدهم على ذلك إتساع الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً (حدود الصين، الأندلس وأجزاء من فرنسا) مما جعل خرائطهم تتميز بطابع علمى غير متوفر فى خرائط الأقدمين، مما أكسبها صفة وطابعاً إسلامياً صرفاً.

فقد ظهرت فى خرائط المسلمين لأول مرة مميزات سطح الأرض من حيث الجبال والمنخفضات والأنهار والغابات وهذه لم تكن معروفة ولا موجودة فى خرائط بطليموس، التى احتفظت بها بيزنطة حتى القرن ١٥م(١٢٥).

حقيقة أن الجغرافيين المسلمين الأول قد تأثروا إلى حد كبير بما رسم بطليموس فى خرائطه، ويتضح ذلك جيداً من الخرائط التى استخرجها العالم الموسوعى (فى الرياضيات والفلك والجغرافيا) محمد بن موسى الخوارزمى من كتاب بطليموس (الجغرافيا) حوالى سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م، ولكن هذه الخرائط وغيرها تطورت فى رسمها بعد قرن من الزمان على يد الأصطخرى سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م، وعلى يد ابن حوقل سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م(١٢٦)، وقد وصل هذا التطور والرقى فى رسم الخرائط عند المسلمين وعند ملوكهم وحكامهم درجة عالية فى الدولة الفاطمية، فقد ذكر المقريزى(١٢٧) أن الخليفة المعز لدين الله (٣٤٦-٣٦٥هـ/ ٩٥٢-٩٧٥م) أمر برسم خريطة ملونة من الحجم الكبير، تكلفت ٢٢,٠٠٠ درهم، وهى عبارة عن مقطع من الحرير الأزرق، غريب الصنعة، منسوج بخيوط من الذهب، وخيوط ملونة من الحرير، فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها، وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر، وكتبت أسماء المدن والبقاع بالذهب أو الفضة أو الحرير، وكتب عليها : «ما أمر به المعز لدين الله شوقاً إلى حرم الله، وإشهاراً لمعالم رسوله فى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة».

ولم يقف هذا التطور وهذا الرقى فى رسم الخرائط عند العصر الفاطمى، ولكنه وصل إلى درجة أخرى من الكمال والجلال على يد الشريف الإدريسى الحمودى (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)(١٢٨) الذى التحق ببلاط روجر الثانى ملك صقلية (فى بالرمو العاصمة) ورسم ٨٢ خريطة تعتبر من أدق ما عرفه العالم من رسم الخرائط، ولم يقتصر الإدريسى فى رسم خرائطه على بلدان العالم الإسلامى، وإنما رسم خرائط لبلاد العالم وعلى وجه الخصوص بلدان أوروبا، وقد أهدى الإدريسى إلى روجر الثانى كتابه فى الجغرافيا المعنون : «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» وقد ظلت خرائط الإدريسى قروناً طويلة هى المرجع لكل علماء الجغرافيا فى الشرق والغرب.

حواشى الفصل التاسع

(١) المقدمة، ص٣٦٣-٣٦٤.

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى، ج٢، ص٢٥٧.

(٣) راجع حاجى خليفة : كشف الظنون، ص٢٣.

(٤) المسعودى : التنبيه والإشراف، ص١١٨، ١٥٧.

(٥) القفطى : تاريخ الحكماء، تحقيق ليبر، ط. لايبزيج، ص٣١١، وعن مدينة حران راجع ياقوت : المعجم، ج٣ ص٢٤١ وما بعدها.

(٦) ياقوت : نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٧) وفيات الأعيان، «ترجمة خالد بن يزيد».

(٨) تاريخ الحكماء، «ترجمة خالد».

(٩) أحمد الشامى : الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ص٦١ وما بعدها.

(١٠) جلال مظهر : حضارة الإسلام، ص٢٤٧.

(١١) Meyerhof : Transmission of science to Arabs; isl. Cult., Vol. VI, London, 1930.

(١٢) ابن النديم : الفهرست، ص١١٨ وكذلك أوليرى : علوم اليونان وسبل نقلها إلى العربية، ص٢٢٩.

(١٣) وكذلك ابن أبى أصيبعة : مرجع سابق، ج١، ص١٧٥، Meyerhof und Preüfer : Die Augenheilkunde des Juhanna Ibn Masawaih. Der Islam, B. VI, 1915, p. 217-256.

(١٤) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء، ج١ ص١٨٤ وكذلك EJ. B. II, Hunain, P 598.

(١٥) ابن صاعد : كتاب طبقات الأمم، ص٣٧، ابن أبى أصيبعة : مرجع سابق، ج١ ص٢٠٠.

(١٦) أوليرى : مسالك الثقافة، ترجمة تمام حسان، ص٢٥٧.

(١٧) أحمد الشامى : تأثر الحضارة الأوربية بحضارة المشرق الإسلامى، ندوة جامعة إسكندرية سنة ١٩٩٤.

(١٨) الإمام الغزالى : إحياء علوم الدين، الحلبى بمصر، ج١، ص٥-١٢.

(١٩) ابن خلكان : وفيات، ج١، ص٤٥٤، وكذلك Ency. of Isl. (art Nahw).

(٢٠) أبو حاتم الرازى : الزينة فى المصطلحات الإسلامية العربية، ج١، ص١٨ وما بعدها.

(٢١) ابن خلكان : وفيات، ج١، ص٣٠٧.

(٢٢) المرجع السابق، ج٢، ص١٠٣، وكذلك EI. II, (art kisa'i) 1096.

(٢٣) ياقوت : معجم الأدباء، ج٥، ص١٨٨.

(٢٤) ابن خلكان : نفسه، ج٢، ص٢٢٨.

(٢٥) ابن خلدون : المقدمة، ص٤٥٧ وما بعدها، وخليل مردم، الجاحظ، دمشق ١٩٣٠.

(٢٦) النبراوى : تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ١٨٢-١٨٣.

(٢٧) راجع صحيح البخارى، وصحيح مسلم فى هذا الجانب.

(٢٨) الطبرى : تاريخ، ج٦، ص٤٣٧.

(٢٩) أحمد الشامى : الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ص١٢٣، ومن آثار بختيشوع الأب مؤلفه (كتاب التذكرة فى الطب).

(٣٠) تختلف المراجع فى تحديد السنة التى توفى فيها الرازى وتنحصر فيما بين ٣١٤-٣٢١هـ/ ٩٢٦-٩٣٣م راجع التجانى الماحى : مقدمة فى تاريخ الطب العربى، ص٧٦ معتمداً على القفطى، وراجع كذلك D. Campdell : Arabian Medicine, Vol. I, p. 66 .

(٣١) W. Durant : The story of civilization, Vol. IV, P. 247 .

(٣٢) G. Sarton : Intruduction to the history of science, Vol. II, Part I .

(٣٣) الشهرستانى : الملل والنحل، ص٣٤٨، وكذلك E.J. "Ibn Sinà" B. II, P. 444 ff. .

(٣٤) J. Draper : op. cit., Vol. I, p. 411 .

(٣٥) M. Meyerhaf : op cit. p. 330 .

(٣٦) G. Sarton : op. cit. Vol. II, T. 1. p. 910 .

(٣٧) G. Le Bon : La civilisation des Arabes, p. 528.

(٣٨) طبع فى القاهرة فى ثلاثة أجزاء سنة ١٨٧٧ وفيه خلاصة طب اليونان والفرس والهند والعرب.

(٣٩) طبع هذا الكتاب فى القاهرة سنة ١٩١٣، ثم أعيد طبعه مرات، وله ترجمة بالألمانية بواسطة : Horten: Avicenna, Das Buch der Genesung der Sele, Léipzig, 1907-1909 .

(٤٠) W. Durant : The story, of civilization, Vol. IV, p. 330 .

(٤١) L. Sédillot : Histoire général des Arabes, Vol. II, p. 79 .

(٤٢) Meyerhof : Ibn an-Nafis und seine theorie des lungenkreislaufs, Berlin, Quellen und Studien zur geschichte der Naturel und Medizine, B. IV, 1935, S. 37.

(٤٣) ولفنسون : موسى بن ميمون - حياته ومصنفاته، القاهرة سنة ١٩٣٦، ودائرة المعارف الإسلامية (بالإنجليزية -- مادة Ibn Maimun، مج٢ ص٤٢٤-٤٢٥).

(٤٤) نشر هذا الكتاب بواسطة Munk بعنوان : Guide des Egarés. 3 Vol., Paris 1856-1866 .

(٤٥) Meyerhof; Chap. on Science and medic. p. 314 .

(٤٦) ابن النديم : الفهرست (ترجمة جابر بن حيان) وكذلك Ency. of Islam, art Gaber Ibn Hàyyàn وأيضاً زكى نجيب محمود : جابر بن حيان، ص١٢ وما بعدها.

(٤٧) إسماعيل مظهر : تاريخ الفكر العربى، ص٨٣.

(٤٨) Russel, Richard : The Works of Geber, see Intruduction by Holmyard E.J.; p. 9 .

(٤٩) مصطفى عبدالرازق : خمسة من أعلام الفكر الإسلامى، دار الكتاب العربى، ص٩.

(٥٠) Draper J. : A History of the intellectual Development of Europe Vol. I, p. 409 .

(٥١) زكى نجيب محمود : جابر بن حيان، ص ٦٢-٧٦.

(٥٢) فيليب كين وصموبل نيكسون : عمالقة العلم، ترجمة جلال مظهر، ص٦٠.

(٥٣) Sarton; G. : Intruduction to the history of science, Vol. III Part 1, p. 165 & Steel, R.: Practical Chemistry in the XII th. Century, Rasis de duminibus et Salibus, Vol. XII .

(٥٤) البيهقى : تتمة صيوان الحكمة، ترجمة ابن الهيثم ولفظ قهرمان فارسى معرب ومعناه أمين الملك.

(٥٥) انفرد الشهرزورى : نزهة الأرواح، بالرواية الثانية ولم يذكرها غيره.

(٥٦) طبقات الحكما.، ترجمة ابن الهيثم.

(٥٧) مصطفى عبدالرازق : خمسة من أعلام الفكر الإسلامى، ص١٠٣.

(٥٨) ابن أبى أصيبعة : مرجع سابق (ترجمة ابن الهيثم).

(٥٩) Singer, Charl: A short history of scientfic Ideas, p. 153 .

(٦٠) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام، ترجمة د. أبو ريدة، ص... .

(٦١) تولى الحاكم خلافة مصر سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م، وتوفى سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م.

(٦٢) Holmyard, E.J.: Maker of Chemistry, p. 77-ff. .

(٦٣) قام بتحقيق هذا الكتاب ونشره د. مصطفى مشرفة، د. محمد مرسى، وطبع فى القاهرة سنة ١٩٣٧.
وقد سبق أن ترجم إلى الإنجليزية بواسطة Rosen بعنوان : The Algebra of Mohammed ben Musa, London 1831، كما ترجم إلى عدة لغات أوروبية أخرى.

(٦٤) Karl Brockelmann; op. cit. p. 219 .

(٦٥) E.J.: "art al-karkhi" B. II, p. 810 وأنظر كذلك : Hochheim : Kaifi fi L-Hisab, Halle - - Wissbaden, 1870 - 1880 .

(٦٦) الفهرست، لابن النديم (أبو الريحان البيرونى).

(٦٧) الأب شحاته التنراتى : تاريخ الصيدلة والعقاقير، ص ١٧٠ وما بعدها.

(*) هو كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى بن عيسى المصرى الشافعى (٨٠٨هـ).

(٦٨) النبراوى : مرجع سابق، ص١٩٨.

(٦٩) ابن صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ص٥٣ وما بعدها.

(٧٠) حاجى خليفة : كشف الظنون، ج١ ص١٤٤.

(٧١) ابن صاعد الأندلسى : المرجع السابق، ص٨٤.

(٧٢) ابن صاعد الأندلسى : المرجع السابق، ص٥٣ وما بعدها.

(٧٣) راجع دائرة المعارف الإسلامية (مادة ابن رشد).

(٧٤) يذكر عبدالمنعم ماجد أن شرحاً باللغة العبرية عمله أبي بكر بن الصائغ (٨هـ/ ١٤م) نشره المستشرق النمساوى اليهودى (Herzog) فى برلين سنة ١٨٩٦ بعنوان : "Die Abhandlungen des Abu Bakr Ibn al-Sàig" وأن متحف الدولة فى برلين يمتلك ٢٤ رسالة من ابن باجة فى الفلسفة والطب... راجع : تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٢١٧ هـ٦.

(٧٥) ترجم هذا الكتاب إلى معظم اللغات الأوربية بدءاً من القرن ١٧م وحتى أواسط القرن ٢٠ راجع دائرة المعارف الإسلامية بالإنجليزية، ج٢، ص٤٥٠ (مادة ابن طفيل).

(٧٦) توفى قاسم سنة ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م. (٧٧) المقرى : نفح، ج٢، ص٢٢٨.

(٧٨) سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى أسبانيا، ص٣٩٢.

(٧٩) كان عدد الذين يعرفون الكتابة فى الحجاز عند بداية ظهور الإسلام ٣٧ شخصاً.

(٨٠) ابن خلدون : المقدمة، ص٤٥١ وما بعدها، ماجد : مرجع سابق، ص٢٠٣، جب : دراسات فى حضارة الإسلام، ص١٤٤.

(٨١) فرانس روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلى، بغداد سنة ١٩٦٣، ص٣٠.

(٨٢) سالم : التاريخ والمؤرخون العرب، ص٤٢.

(٨٣) ابن قتيبة : المعارف، ص١٨١. (٨٤) المسعودى : مروج الذهب، ج٢، ص٤٠.

(٨٥) ابن هشام : السيرة النبوية، ق١ ص٥، وكذلك M. Dunlop; Arab civilization to A.D. 1500, p. 70 والنبراوى : تاريخ النظم، ص٢٠٠.

(٨٦) جواد على : العرب قبل الإسلام، ج١ ص٤٤، الدورى : نشأة علم التاريخ، ص٢٦.

(٨٧) ياقوت : معجم الأدباء، ج٧، ص٢٣٣. (٨٨) جوزيف هوروفتس : المغازى الأول ومؤلفوها.

(٨٩) الدورى ومعروف : موجز تاريخ الحضارة العربية، ص٢٦٠، بغداد سنة ١٩٥٢. وقد قمت بتصوير هذا الجزء من هذا الكتاب أثناء دراستى بهذه الجامعة فى الستينات واحتفظ به فى مكتبتى الخاصة، وسبق أن قدمت تقريراً علمياً عن هذه الكراسة وعن كراسة أخرى تتعلق بتاريخ سليمان (عم) وأشرت إلى ذلك فى بحوثى الطمية. (المؤلف).

(٩٠) سيده كاشف : مصادر التاريخ، ص٢٦.

(٩١) شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون، ج١ ص١٥٠.

(٩٢) الدورى : بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت ١٩٦٠، ص٢٤، ٩٤.

(٩٣) ابن سعد : الطبقات، ج٢ ص١٣٦؛ سيده كاشف : مصادر التاريخ، ص٢٨-٢٩.

(٩٤) صالح أحمد العلى : محاضرات فى تاريخ العرب، ج١ ص٢١٧ وما بعدها، بغداد سنة ١٩٥٥.

(٩٥) الدورى ومعروف : مرجع سابق، ص٢٦١.

(٩٦) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ : ص٥٢٦، سالم : التاريخ والمؤرخون، ص٦١.

(٩٧) سيده كاشف : مرجع سابق، ص٣٠ معجمدة على : زكى محمد حسن : دراسات فى الموازنة بين المؤرخين فى ديار الإسلام والمؤرخين الأوروبيين فى العصور الوسطى، ص١٠. ومن الجدير بالذكر أن د./ محمد حميد الله قد عثر على جزء من مؤلف ابن اسحق فى شمال أفريقية (تونس) فى الستينات من هذا القرن وتم نشره بعد تحقيقه (المؤلف).

(٩٨) طبع هذا الكتاب فى مصر سنة ١٣٦٨هـ بعنوان (فتوح الشام) فى جزئين يتضمنان فتح الشام ومصر والعراق. سالم : التاريخ والمؤرخون، ص٦٥.

(٩٩) جوزيف هوروفتس : المغازى الأولى ومؤلفوها، ص١١٩ وما بعدها.

(١٠٠) سيده كاشف : مرجع سابق، ص٣١، ولكن عدداً من المؤرخين المتأخرين رموا الواقدى بالضعف، وجرحوا أخباره وكتاباته.

(١٠١) نذكر من هؤلاء : سفيان بن عيينة، ومحمد بن سعدان الضرير، ووكيع بن الجراح وهم من الرجال الذين يعتمد عليهم فى رواية الحديث ولا يتطرق الشك إلى عدالتهم. راجع ابن سعد : الطبقات، ج١ ص٧.

(١٠٢) جوزيف هوروفتس : مرجع سابق، ص١٢٧.

(١٠٣) راجع المقدمة التى كتبها محمد أبو الفضل إبراهيم عن حياة مؤرخنا الطبرى فى الجزء الأول من (تاريخ الرسل والملوك) ط٤ سنة ١٩٧٩، ص ٥-٣٢.

(١٠٤) راجع ياقوت : معجم الأدباء، ج١٨، ص٦٨، والبغدادى : تاريخ بغداد، ج٢ ص١٦٣ وحاجى خليفة: كشف الظنون، ص٢٩٧، ويصل حجم كل كتاب إلى ثلاثة آلاف ورقة.

(١٠٥) راجع : مقدمة كتاب مروج الذهب، والتنبيه والإشراف، وكذلك ابن النديم : الفهرست وحاجى خليفة : كشف الظنون، ج١ ص٢١٢ وما بعدها، وسيده كاشف : مرجع سابق، ص٣٦.

(١٠٦) محمد كامل حسين : أدبنا لعربى فى عصر الولاة، ص٨٠؛ سرور : تاريخ الحضارة، ص٢٢٤.

(١٠٧) ياقوت : معجم الأدباء، ج٧ ص٢٢٥ وما بعدها، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام، ج٣ ص٥٨٤.

(١٠٨) طبع الجزء الأول منه فى ليدن، وقام المستشرق Margoliouth بترجمته إلى الإنجليزية وطبعه فى إكسفورد سنة ١٩٢١، ثم طبع ونشر بعد ذلك فى عدة طبعات.

(١٠٩) يرى الدكتور زكى محمد حسن (دراسات فى الموازنة، ص١٤ وما بعدها) أن مسكويه نقل كثيراً من كتاب التاج الذى ألفه الوزير إبراهيم الصابى - كاتب عز الدولة بختيار - عن الدولة البويهية فى كتابه (تجارب الأمم).

(١١٠) ماجد : تاريخ الحضارة ص٢٠٩ وما بعدها.

(١١١) أحمد الشامى : تأثير الحضارة الإسلامية بحضارة الشرق الإسلامى، بحث منشور، مؤتمر حوض البحر المتوسط سنة ١٩٩٤.

(١١٢) نفيس أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافيا، ترجمة فتحى عثمان، (الألف كتاب) العدد ٢٧٢، ص٢٥.

(١١٣) الألوسى : بلوغ الأرب، ج٣ ص٣٥٨. (١١٤) سورة النحل/ ١٦.

(١١٥) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس، ص١٩٩-٢٢٠.

(١١٦) عاش ابن مطر فيما بين عامى ١٧٠-٢٢٠هـ/ ٧٨٦-٨٣٥م، راجع النهراوى : ص٢٠٥ مع ملاحظة وجود خطأ مطبعى فى التاريخ الميلادى بالمقال.

(١١٧) ثابت بن قرة من صابئة حران، انتقل إلى بغداد واتصل بالخليفة العباسى المعتضد، فألحقه بخدمته مع مجموعة المنجمين، وقد مهر ثابت كذلك فى علم الطب والفلسفة، وقد قام ثابت باختصار كتاب بطليموس وتبسيطه ليكون فى متناول أفهام طلبة العلم. راجع كذلك ص١٠٣.

(١١٨) راجع أوليرى : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص٢٣٧ وما بعدها، سالم : التاريخ والمؤرخون العرب، ص١٨٥، وقد تمت الترجمة قبل سنة ٢٤٩هـ/ ٨٦٠م راجع سيده كاشف : مرجع سابق، ص٣٩.

(١١٩) المسعودى : التنبيه، ص ٢٧.

(١٢٠) Sarton, G.; Introduction to the HIstory of science, Balitmore 1946 .

(١٢١) عند ابن خلدون أنه توفى سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(١٢٢) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى، ص٤٥١ وما بعدها، ترجمة صلاح الدين عثمان، القاهرة، ١٩٦٢، النهراوى : الحضارة، ص٢٠٩.

(١٢٣) قامت جامعة الإمام محمد بن مسعود بترجمة هذا الكتاب إلى العربية وطبعته ووزعته على المشتركين فى هذه الندوة وأحتفظ بنسخة من الكتاب. (المؤلف).

(١٢٤) حاجى خليفة : كشف الظنون، ج١ ص٢٨٣.

(١٢٥) يوجد فى مكتبة جامعة القاهرة نسخة باللغة العربية مترجمة من اللاتينية لكتاب بطليموس (الجغرافيا وخرائطه الملحقة به) ولا يعرف من الذى ترجمه ولا فى أى عام تمت هذه الترجمة. راجع ماجد : مرجع سابق، ص ٢٣٧ هـ٢.

(١٢٦) راجع مسالك الممالك للأصطخرى، ط. دى خويه، ليدن سنة ١٨٧٠، ص٤٣، وقد طبعت هذه الخرائط بواسطة (ميلر Müller) بعنوان : "Atlas der islam. Länd. stuut, 1920" .

(١٢٧) الخطط، ج٢ ص٢٦٧ وما بعدها.

(١٢٨) راجع ص١٨٠ من هذا الكتاب وراجع كذلك Müller: mappae Arabicae : (Idrisi Atlas) . stuttgart. 1927, & Ency. Isl. (art al Idrisi) II, p. 479

الفصل العاشر
تأثر الحضارة الأوربية بالحضارة الإسلامية

لعبت الحضارة الشرقية الإسلامية دوراً بارزاً وهاماً فى حضارة الغرب الأوروبى، وكانت من أهم وأبرز الدعائم التى قامت عليها حضارة أوروبا، ولست أبالغ فى الحديث إذا قلت إن البحوث العلمية التى بدأت منذ أكثر من قرن من الزمان - سواء فى المشرق الإسلامى أو فى الغرب الأوروبى - والتى لاتزال مستمرة حتى يومنا هذا، تؤكد بكل الصدق أن لحضارة العرب والإسلام فضل كبير، وتأثير عريض على الحضارة الأوروبية منذ بدايتها فى عصر النهضة، واستمر هذا التأثير - مع كل تطورات وتقدم الحضارة الغربية الأوروبية - حتى وقت قريب جداً.

فقد انتقلت الحضارة المشرقية الإسلامية إلى بلدان الغرب الأوروبى عن طريق معابر متعددة تتمثل فى المدن والبلدان التى فتحها العرب المسلمون واستوطنوها واستقروا بها «خاصة تلك البلدان الواقعة فى حوض البحر المتوسط والوثيقة الصلة والاتصالات بالدول الأوروبية». فانتشرت الحضارات بها نتيجة لعوامل وأسباب كثيرة، ومن أمثلة هذه البلدان «قبرص، وكريت، وصقلية[١] وكورسيكا وسردينيا «جزر البحر المتوسط» بالإضافة إلى مدن الشواطئ الغربية لإيطاليا بأكملها، وكذلك شبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) وما لعبته من دور رئيسى وبارز فى إحياء الحضارة المشرقية بها حتى أصبحت فى عصر الأمويين الجدد بدءاً من عبدالرحمن الداخل (١٣٨هـ/ ٧٥٦م)[٢] مركز إشعاع حضارى فى كل مجالات العلوم والمعرفة والفنون ترسل شعاع هذه العلوم ونورها إلى المدن الأوروبية القريبة منها، ثم انتقلت من هذه المدن إلى مدن أخرى وهكذا.

كذلك كان للحجاج المسيحيين القادمين من بلدان أوروبا دورهم فى نقل كثير من جوانب الحضارة المشرقية إلى بلادهم[٣] خاصة إذا علمنا أن أعداداً لا تحصى من هؤلاء الحجاج الأوروبيين كانوا يتصلون بالتجار العرب المسلمين وبالحجاج المسيحيين القادمين من شمال الأندلس، وقد أدى هذا الإحتكاك إلى نقل الحضارة المشرقية الإسلامية إلى الغرب الأوروبى، ومن الأدلة على ذلك وجود العملات الإسلامية فى أماكن مختلفة من أوروبا، ووجود كلمات

عربية الأصل لاتزال موجودة فى اللغات الأوروبية ففى اللغة الأسبانية يوجد أكثر من ثلاثين ألف كلمة عربية الأصل، وفى الألمانية أكثر من ألفى كلمة وهكذا وكثير من هذه الكلمات ذات صلة بالتجارة مثل :

Cheque شيك وهى مأخوذة من كلمة (صك) العربية.

Magasin وهى مأخوذة من كلمة (مخازن) العربية.

Chiffon شيفون وهى مأخوذة من كلمة (شفاف) العربية.

Ricamo ركامو وهى مأخوذة من كلمة (رقم) العربية[٤].

كما كان لليهود «تجاراً وأطباء ومتعلمين» دورهم فى حمل ثقافة وعلوم المشرق إلى بلدان أوروبا، لاسيما وأن كثيراً منهم اشترك فى أعمال الترجمة بمدينة «طليطلة» فنقلوا عن اللغة العربية غير قليل من القصص والأساطير والملاحم.

كما ساهم سيل الفرسان والتجار ورجال الدين المتدفقين سنوياً من أوروبا على أسبانيا فى نقل أسس الحضارة الأندلسية وهى حضارة عربية إسلامية مشرقية[٥] فى أصلها نقلها حكام أسبانيا المسلمون من الشرق.

كذلك لعبت الحروب الصليبية دورها الخطير فى نقل حضارة المشرق الإسلامى إلى دول الغرب الأوروبى، خصوصاً بعدما تكونت الإمارات الصليبية الأربع، وتأثر مستوطنوها من الأوروبيين الصليبيين بحضارة العرب المسلمين نتيجة الاختلاط والمعايشة، فتأثروا بالعادات والتقاليد والنظم المشرقية وطبقوها فى مستوطناتهم أو إماراتهم الصليبية ثم نقلوها معهم إلى بلدانهم فى أوروبا حيث تمت وانتشرت هناك[٦]، وهذا أمر مسلم به من جانب المؤرخين الأوروبيين المعتدلين ومن المؤرخين المسلمين، لأنه من الطبيعى وقد عاش الصليبيون فى الشام قرابة قرنين من الزمان (من ١٠٩٧-١٢٩١م) أن يتأثروا بما يحيط بهم من نظم إدارية، ومعاملات اقتصادية، وعادات وتقاليد اجتماعية، فعملوا على اتخاذها فى حياتهم بإماراتهم فى الشام لأنها كانت أفضل وأرقى بكثير من مثيلاتها فى بلدان أوروبا التى جاءوا منها، خلال فترة العصور الوسطى جميعها[٧]. وإ كان ذلك لم يتم إلا بعد حوالى (٧٠ سنة) من معايشة الصليبيين للعرب والمسلمين سكان البلاد الأصليين ومن معهم من رعايا مسيحيين شرقيين، فقد أبقى الصليبيون على منصب المحتسب وهو من النظم العربية الإسلامية، وأصبح من ضمن الوظائف فى المملكة اللاتينية، كما استعملوا معظم النظم العربية الإسلامية

التى كانت موجودة فى الشام قبل مجيئهم حتى الأساليب الحربية المعروفة عند المسلمين مارسوها وجعلوها ضمن نظام الجندية عندهم فاستخدموا النار ليلاً لتعيين وتحديد مواقعهم، كما استخدموا الحمام الزاجل نهاراً لنقل الأخبار السريعة منهم وإليهم(٨).

كما كان للتجار الإيطاليين دورهم فى نقل حضارة المشرق الإسلامى إلى بلدان أوروبا، فقد زاول هؤلاء التجار نشاطهم التجارى فى الأسواق التى حصلوا عليها فى المدن الساحلية والموانئ مثل : اللاذقية، عكا، يافا، وأرسوف، صور، وبيروت، وطرابلس وغيرها.

فقد قام بعضهم بتصدير نوع من أخشاب الغابات يسمى خشب العرعر الذى لا يتطرق إليه الفساد(٩) إلى أوروبا لعدم وجود هذا النوع من الأخشاب بها.

كذلك عرف هؤلاء التجار زراعة قصب السكر فى الشام وتعلموا صناعته وشيدوا مصانع لإنتاجه فى صور، وعكا وغيرها.. وقد ساعدهم وجود هذه الأسواق فى ثغور الشام وسهل عليهم تصدير هذه المنتجات إلى الغرب الأوروبى، بالإضافة إلى ما كان يصل إلى أسواق الشام من تجارات وبضائع الشرق الأقصى(١٠).

كما اهتم اليهود فى المدن التى احتلها الصليبيون فى الشام وخاصة فى صور، وأنطاكيا، ويافا، وعكا بتصنيع الزجاج وتصديره إلى بلدان أوروبا، ولإعفاء هذه المصنوعات الزجاجية من الرسوم الجمركية عقدوا معاهدة مع جنوا سنة ١٢٢٣م لذلك، ومن الغريب أن بعضاً من التجار المغاربة كانوا يتعاملون تجارياً مع التجار اليهود ومع غيرهم من الصليبيين(١١) ومن الطبيعى أن يفيد الصليبيون من حضارة المغرب، كما يفيد المغاربة من حضارة المشرق عن طريق التبادل التجارى ونقل المظاهر الحضارية من هنا وهناك.

وكان لاحتكاك الصليبيين ومعايشتهم للسكان الأصليين فى بلاد الشام أثره الكبير فى تحسين سلوكهم وتهذيب أخلاقهم على الرغم من قسوة ووحشية الكثير منهم(١٢) فأخذوا يتحولون فى حياتهم المدنية إلى مشرقيين(١٣). فعاشوا على النمط الشرقى فى بيوتهم وفى مآكلهم وفى ملبسهم، فسكنوا البيوت الفسيحة ذات الأفنية الواسعة تحيط بها الغرف والقاعات كما لبسوا الثياب الشرقية الفضفاضة السابغة ذات الأكمام الواسعة والألوان الزاهية والموشاة بخيوط من الذهب أو من الفضة.. وتحلى نساؤهم بالمجوهرات الشامية والمصرية واستعملن المساحيق والخضاب لزينتهن(١٤).

كل ذلك تعلمه الصليبيون ومارسوه فى حياتهم بالمشرق، ثم نقلوه إلى بلادهم فى أوروبا عند سفرهم وترحالهم للزيارة أو التجارة أو عن طريق الحجاج المسيحيين أو عند خروجهم من منطقة الشرق الأدنى على يد البطل صلاح الدين الأيوبى (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)(١٥).

حتى الأسرى المسلمين فى الحروب كانوا عاملاً لنقل الحضارة العربية الإسلامية للأمراء المسيحيين سواء كانوا فى بلاد الشام أو فى شمال أسبانيا، حيث كان هؤلاء الأمراء على صلة دائمة ببلدان أوروبا سياسية وتجارياً، وعن طريق هؤلاء الأسرى المسلمين وجدت الحضارة المشرقية الإسلامية طريقها إلى الغرب الأوروبى(١٦). ولم يقتصر نقل هذه الحضارة على الأسرى المسلمين بل شاركهم فيها كذلك الأسرى الأوروبيون الذين عادوا عبر الأندلس إلى بلادهم بعد أن عاشوا فى مراكز الثقافة الإسلامية بالأندلس ردحاً من الزمن (قرطبة وسرقسطة وغيرها). كما قام تجار ليون وجنوا والبندقية ونورمبرج بدور الوسيط فى نقل الحضارة المشرقية من مدن الأندلس إلى المدن الأوروبية. ومع ما أدته هذه المعابر من دور بارز وكبير فى نقل حضارة الشرق الإسلامى إلى الغرب الأوروبى إلا أن ما قامت به مدن الأندلس فى هذا المضمار يعتبر - فى رأينا - أكبر بكثير من غيرها، وسوف نعرض بشئ من الإيجاز ما وصلت إليه الأندلس فى عصر حكامها المسلمين، وخاصة منذ دخول عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) إليها (١٣٨هـ/ ٧٥٦م) وما بلغته حضارتها من تقدم وتطور كبير، حتى أصبحت مقصد الأوروبيين على وجه الخصوص ينهلون من علومها ويتعلمون على أيدى علمائها، وينقلون ثقافتها وحضارتها على مر العصور التاريخية. تلك الحضارة التى قيل عنها إنها كانت أجمل وأعظم من أن تقارن بغيرها، لأنها لم تكن قائمة على أسس فارسية أو إغريقية، بل كانت حضارة عربية إسلامية خالصة أكثر من الحضارة العربية الإسلامية فى أى مكان آخر(١٧). ويعبر المقرى(١٨) وغيره من المؤرخين عن ذلك فيقول: «... ولما صارت الأندلس لبنى أمية وتوارثوا ملكها، وانقاد إليهم كل أبى، وأطاعهم كل عصى، عظمت الدولة فى الأندلس، وكبرت الهمم، وترتبت الأحوال».

تأثر الحياة فى أسبانيا بالفتح الإسلامى

كان الفتح العربى الإسلامى لأسبانيا بداية عصر جديد، حيث بدأ تطور كبير فى حياة شعوبها وفى نظمها العامة، أى أنها دخلت فى طور حضارى لم تعرفه من قبل. فأسبانيا كانت

ترزح حتى مجئ الفاتحين المسلمين تحت وطأة العسف والجور وشظف العيش واستغلال طبقة النبلاء لشعبها، وكان هؤلاء النبلاء (الحكام) يفرضون على هذا الشعب بتعدد طبقاته رسوم الرق والعبودية، ويستبيحون منه كل الحريات والمحرمات.

فلما جاء الإسلام قضى على هذه الأمور كلها، وأرسى قواعد الأخوة والحرية والعدالة والمساواة بين الناس جميعاً، فأعطى كل ذى حق حقه، وبذلك تمكن الفاتحون المسلمون - على الرغم من إنشغالهم بتوطيد أنفسهم فى أول الأمر - من تنظيم إدارة البلاد التى فتحوها فى أسبانيا، وأن يشيعوا فى شبه الجزيرة الأيبيرية كلها روحاً جديدة من الأمل والتطلع إلى حياة ومستقبل أفضل، فنشطت الزراعة، ونهضت الصناعة، وراجت التجارة بعد ركودها، وأخذت نسمات الرخاء والرفاه تهب على شعوب أسبانيا بسبب النظم التى ساروا عليها ونوجزها فيما يلى:

** فرض المسلمون الضرائب على أسس من العدل والاعتدال والمساواة، بعد أن كانت قائمة على الجشع وهوى الحكام، فأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم.

** ترك المسلمون لشعب أسبانيا حرية العمل بقوانينهم واتباع تقاليدهم والخضوع لقضائهم وقضاتهم وفى كثير من الأحوال اختاروا حكاماً من بينهم يشرفون على شئون هذه النظم الجديدة وتنفيذها.

** ترك المسلمون الفاتحون للأسبان حرية اعتناق عقائدهم، لأن القاعدة الأساسية فى الدعوة إلى الإسلام (لا إكراه فى الدين) ومن هنا كانت سياسة المسلمين مبنية على التسامح الكامل وحرية إختيار العقائد الدينية للأفراد.

** طبق الفاتحون المسلمون نظام الجزية على أهل الذمة، وكانت مبلغاً زهيداً يستطيع الفرد أداؤه فى سهولة ويسر، وهو بمثابة إسهام من أهل الذمة فى بعض تكاليف الجيش الإسلامى المنوط به توفير الحرية والأمان والاستقرار لكل فرد من أفراد الشعب الأسبانى.

ونستشهد على صحة ما ذكرناه بما سجله رجل دين مسيحى فى قرطبة سنة ٧٥٤م (١٣٦هـ) وهو إيزيدور الباجى وعنه نقل المستشرق الأسبانى[١٩] Reinhart Dozy حيث يقول: «... إن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح، فلم يرهقوا أحداً فى شئون الدين، ولم تكن الحكومة تجبر النصارى على الدخول فى الإسلام الذى يقدس حرية الإنسان فى اختيار

العقائد والديانات، لأن الإسلام قام على قاعدة لا إكراه فى الدين[٢٠] ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج، وانقضى القرن الثامن الميلادى كله فى سكينة، وقلما نبتت فيه ثورة، ولم يبد رجال الدين فى العصور الأولى كثيراً من التذمر ومما يذكره[٢١] Dozy كذلك قوله : «... إن الإسلام كان أكثر تعضيداً لتحرير الرقيق من النصرانية كما فهمها أحبار المملكة القوطية، وقد تحسنت أحوال رقيق الأرض فأصبحوا من الزراع تقريباً، وتمتعوا بشئ من الاستقلال والحرية».

ومما يذكره[٢٢] Lane-Poole قوله : «.... أنشأ العرب حكومة قرطبة التى كانت أعجوبة العصور الوسطى، بينما كانت أوروبا تتخبط فى ظلمات الجهل، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية».

ويقول المستشرق الأسبانى[٢٣] P. Gayangos : «... لقد سطعت فى الأندلس أول أشعة لهذه المدنية التى نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية، وفى مدارس قرطبة وطليطلة العربية جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الإنطفاء، وحفظت بعناية. وإلى حكمة العرب وذكائهم ونشاطهم يرجع الفضل فى كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها».

ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ ميخائيل سكوت[٢٤] M. Scott حيث يقول : «... فلما استقرت الجماعات المستعمرة (يقصد المسلمين الفاتحين) وفتحت الثغور لتجارة المشرق، وأقيمت المساجد، أدرك القوط فداحة الخطب الذى نزل بهم، ولكن اعتدال حكامهم الجدد خفف من ألم الهزيمة.

وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس، وكان يسمح للورع المتعصب - يقصد المسيحى - أن يزاول شعائره دون تدخل، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة، والأحبار يزاولون شئونهم فى سلام. أما أقوال الكتاب النصارى التى ينسبون فيها للعرب أفظع المسالب فهى محض مبالغة أو افتراء».

وحتى أشد العلماء الأسبان تحاملاً على الإسلام والمسلمين[٢٥] لم يستطع إنكار ما نعم به المجتمع الأسبانى فى ظل حكم العرب المسلمين، وقد تابع هذه الآراء الصريحة أعداد غير قليلة من المستشرقين والمفكرين والمؤرخين سواء من الأسبان أو من غيرهم من

الأوروبيين[٢٦]. ويكفى ما ذكره المؤرخ الإنجليزى جيبون Gibbon عن إمتداد ملك العرب المسلمين فى أسبانيا وانتشار نظمهم وحضارتهم حيث يقول : « ... وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار، وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى إسكتلندا، فليس نهر الراين بأمنع من نهر النيل أو الفرات، ولعل أسطولاً عربياً كان يصل إلى مصب التايمز دون معركة بحرية، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد أكسفورد، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة»[٢٧].

ولكى نقف على مدى صحة ما قاله هؤلاء المؤرخون والمفكرون من عرب مسلمين ومستشرقين غربيين، ينبغى لنا أن نلقى نظرة سريعة على قيام الحضارة فى الأندلس، لنعرف ما إذا كانت هذه الحضارة منقولة عن حضارة المشرق الإسلامى أم أنها حضارة جاءت من الغرب الأوروبى. ولنبدأ من فترة حكم الأمير عبدالرحمن بن معاوية (الداخل ١٣٨هـ/ ٧٥٦م) الذى نجح فى تثبيت دعائم الحكم، لأنه قضى على الثورات الداخلية، وأنهى العصبية القبلية. ثم أقام تنظيماً للجهاز الحكومى فى الأندلس على غرار ما كان موجوداً فى الدولة العربية بالمشرق الإسلامى، كما أنه نهج سياسة الاعتدال والحكمة والمهادنة مع رعاياه النصارى المستعربين، وأعطاهم عهد أمان بكل ما يطمئنهم ويهدئ خاطرهم[٢٨]، ويؤكد ذلك ما ذكره مؤرخ الأندلس ابن حيان ومن نقل عنه عند كلامه عن عبدالرحمن الداخل حيث يقول : « ... إنه دون الدواوين، ورفع الأواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجند الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عزته»[٢٩]. كذلك قام عبدالرحمن الثانى بإنشاء دار السكة لتسهيل التعامل فى التجارات، وقد أخذت هذه الدار فى تحسين ضرب العملات وإتقانها منذ سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٤م[٣٠].

ففى مجال الزراعة :

جلب الأمير عبدالرحمن الداخل من الشام (المشرق الإسلامى) أنواعاً جيدة من ثمار الفاكهة ومن الحبوب والبذور التى لم تكن معروفة فى أسبانيا، وغرسها فى منية الرصافة التى بناها فى شمال قرطبة، ومن أهم هذه الثمار الرمان السفرى[٣١] ومصدره رصافة الشام، وكانت أول شجرة نخيل تغرس فى الأندلس هى التى غرسها عبدالرحمن الداخل فى حديقة قصره الذى شيده على نمط قصور أجداده الأمويين فى الشام[٣٢]. وأصبحت تلك الشجرة أماً لكل

أشجار النخيل فى أوروبا، وقد ترجم الأمير عبدالرحمن الداخل عن أحاسيسه فى الغربة بقصيدة شعرية تحدث بها إلى هذه الشجرة نقتطف منها هذين البيتين :

تبـدت لنا وسط الرصـافـة نخلة   تنا ءت بأرض الغـرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى   وطول ابتـعـادى عن بنىّ وعـن أهلى

وقد تابعه أمراء الأندلس من بعده ووجهوا عنايتهم لهذه الزراعات، كما زرع القطن لأول مرة فى أسبانيا بعد أن جلب من سوريا وخراسان، وتم تصنيع هذا القطن وغيره من المواد الأولية على الطريقة العربية فى مدن شمال الأندلس أولاً، ولم يمض قرن من الزمان حتى انتشرت صناعة المنسوجات القطنية والمخملية فى كثير من المدن الأوروبية[٣٣] بعد ذلك، وقد ترتب على ازدهار الزراعة وتقدمها فى الأندلس أن انتعشت التجارة، التى لم تكن معروفة من قبل فى هذه البلاد، وازداد النشاط التجارى وتبادل التجارات بين سواحل الأندلس الشرقية، وشواطئ أفريقيا لاسيما المغرب الأقصى والأوسط (مراكش والجزائر).

كما برزت مظاهر الرفاه والترف في حياة الأمراء والخلفاء والطبقة الثرية فى المجتمع الأسبانى، وأصبحت الأندلس سوقاً تتسابق إليه بضائع الترف المشرقية النفيسة، والأشياء النادرة الغريبة من بغداد وغيرها، لدرجة أن المنهوبات النفيسة من قصر الخلافة فى بغداد[٣٤] مثل : عقد زبيدة (زوج الرشيد) المشهور والمعروف باسم (الشفاء) وغيره من حلى وجواهر لم تجد لها سوقاً تباع فيها غير الأندلس[٣٥].

وفى مجال الصناعة :

أنشأ عبدالرحمن الناصر (الثالث) فى المرية (داراً لصناعة السفن) والآلات اللازمة لها، بحيث أصبحت المرية قاعدة أساسية للأسطول الأندلسى[٣٦] وقد بلغ عدد قطع الأسطول سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٩م أكثر من أربعمائة سفينة حربية، كما بلغ عدد السفن التجارية أعداداً كثيرة، لأن معظم تجارة المرية كانت مع بلدان المشرق، فمراكب التجارة تأتى إليها من جميع مدن الشام ومن الأسكندرية[٣٧].

وقد أخذ الأوروبيون عن العرب مباشرة الإبرة المغناطيسية (البوصلة) فى القرن الثالث عشر الميلادى، نقلها بطرس فون ماريكور Petrus von Maricourt واستعملها الأوروبيون فى الملاحة[٣٨]. كذلك نقل الأوروبيون عن عرب الأندلس القذائف النارية (الطوربيد) التى

توصل الكيميائيون العرب إلى صناعتها في القرن الثاني عشر الميلادي، وأمدوا بها الصينيين في معركة بين كنج Bien King وكان أول من استعمل هذه القذائف في أوروبا لأهداف عسكرية هم عرب الأندلس في القرن ١٤م، وتستند المستشرقة الألمانية زجريد هونكه Sigrid Hunke في ذلك على رسومات لصاروخ دافع وطوربيد مزود بمادة متفجرة من كتاب الحرب لحسن الرماح وهو من النصف الثاني للقرن الثالث عشر الميلادي(٣٩). كما لايزال الكثير من الإصطلاحات البحرية العربية يستخدم في السفن الأوروبية في البحار مثل Arsenal (دار الصناعة) و Admiral (أمير البحر) و Kalfaten (قلفاط) وغيرها كثير.

ومن أمثلة الصناعة كذلك نذكر صناعة الخزف، فقد عثر الأثريون في قصر الحمراء تحت قبو في حصن قمارش في القرن السادس عشر الميلادي على قازة كاملة لاتزال باقية إلى الآن في متحف الحمراء بالقرب من القصر، وتقوم زخارفها على الأرابيسك النباتية والدوائر المتشابكة، ويتخللها شريط من الكتابة الزخرفية.. وكل ذلك باللون الذهبي ذي البريق المعدني.

وقد أثبت النقاش بين علماء الآثار ومؤرخي الفنون أن هذه القازة من النوع الذي ابتكره الفنان المسلم (في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) في العراق، ثم جاء إلى الأندلس من الشرق مباشرة أو عن طريق بلاد المغرب. وتعلم أهل الأندلس صناعته(٤٠) ثم انتقل إلى بقية دول أوروبا وعرف باسم البرلو Albarelo المأخوذ من الكلمة العربية البرنية التي كانت تطلق على القدور الصغيرة التي تصدر إلى أوروبا من الأندلس حاملة في جوفها النباتات الطبية(٤١).

كما اشتهر نوع آخر من الخزف عرف باسم خزف مدينة الزهراء أو خزف مدينة البيرة، وقد وجدت منه عدة نماذج بين أطلال هاتين المدينتين ويرى البعض(٤٢) أن أصل صناعة الخزف بالطريقة التي وجدوها على هذه النماذج مصدره بيزنطة، ولكنه تطور وانفرد بميزاته في الأندلس منذ القرن الخامس الهجري/ ١١م.

ومن الصناعات كذلك صناعة (المنسوجات الحريرية في المرية)، وكانت أكثر منتجاتها شهرة في عالم العصور الوسطى، وقد نقلت صناعة الحرير إلى أسبانيا عن طريق جماعات من اللاجئين الإغريق، ولكنها نمت وتقدمت وارتقت رقياً كبيراً في العصر الإسلامي(٤٣) حتى

أصبحت المرية أهم مراكز صناعة الحرير والديباج فى الأندلس(٤٤) واحتلت ما كان لقرطبة من شهرة فى هذا المجال.

وكان الديباج المشهور يأتى إلى قرطبة من بغداد، وهى مركز إزدهار صناعة الحرير فى العصور الوسطى، وهناك وثائق عديدة عن أسبانيا النصرانية وردت بها أسماء أقمشة شامية وبيزنطية من أفخر الأنواع جاءت من المشرق الإسلامى إلى أسبانيا.

وقد عرفت الدول الملاصقة لأسبانيا استعمال هذه الأنواع الفاخرة من الأقمشة فى أول الأمر(٤٥) ثم أخذت فى تقليد صناعتها الشرقية، ثم خطت بها خطوات متقدمة حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن ومما يؤيد القول بانتشار الحضارة المشرقية الإسلامية فى جميع أنحاء أسبانيا أن أمراء أسبانيا المسيحيين ارتدوا الملابس الشرقية وعليها زخارف وأشكال هندسية من دوائر ونجوم وخطوط متقاطعة يتخللها زخارف نباتية وتزدان بالكتابة العربية المنقوشة بشكل زخرفى، وتوجد قطعة من ثوب الأمير الأسبانى فيليب بن فرديناند الثالث ملك أسبانيا تمثل هذا النوع من الأقمشة(٤٦).

ومن أبلغ آثار الحضارة الإسلامية التى أثرت فى حضارة أوروبا تأثيراً ثقافياً وعلمياً واجتماعياً هى دخول صناعة الورق إليها(٤٧) من الأندلس بعدما تعلمها مسلمو الأندلس من المشرق الإسلامى، وأقاموا مراكز لصناعة الورق فى كل من شاطبة Jativa وطليطلة(٤٨) ثم انتقلت صناعته إلى إيطاليا فى القرن الثالث عشر الميلاد، وبعدها إلى فرنسا ثم إلى ألمانيا، وتعلمها الإنجليز فى القرن السادس عشر(٤٩)، ولولا صناعة الورق ما تطورت الحياة الثقافية والعلمية فى أوروبا إلى هذا الحد المذهل الذى نراه ونعيشه الآن.

وحتى فن تجليد الكتب تعلمه الأوروبيون من المسلمين فى الأندلس وساروا على نهجه فى تغليف كتبهم(٥٠).

أما فن البناء (العمارة) :

فقد اهتم الأمراء المسلمون به، وشجعوا على الإبداع فيه، فالسمح بن مالك الخولانى (١٠٠-١٠٢هـ/ ٧١٩-٧٢١م) قام ببناء القنطرة التى تربط ربض شقنده بمدينة قرطبة وكانت هذه القنطرة قد تهدمت قبل ذلك(٥١). وقد أدى ذلك إلى رفع قرطبة إلى مصاف الحواضر الكبرى. ولما تولى عبدالرحمن الداخل واستقرت له الأمور أعاد بناء سور قرطبة الكبير سنة

١٤٥هـ/ ٧٦٦م. واستمر العمل فيه بضع سنين[٥٢] واهتم بعاصمة الدولة الأموية الجديدة فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة مثل قصر الرصافة[٥٣] الذي أحاطه بحدائق غناء زاهرة.

كما بدأ بتشييد المسجد الجامع بقرطبة حوالى سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م وأقامه فى موضع كنيسة قوطية قديمة ومهدمة، اشتراها بمائة ألف دينار[٥٤]، وجلب إليه الأعمدة العظيمة من الرخام المنقوش بماء الذهب واللازورد، ولكنه توفى قبل إتمام بنائه فأتمه ابنه هشام ثم زاد فيه من بعده أمراء بنى أمية فى الأندلس حتى غدا أعظم مساجدها، وقد بلغ ما أنفقه عليه عبدالرحمن الداخل وحده زهاء مائة ألف دينار أخرى[٥٥].

ويعد جامع قرطبة من الوجهة الفنية أعظم وأروع أمثلة العمارة الإسلامية والمسيحية فى العصور الوسطى، ويذكر أحد المؤرخين اللاتين (فى القرن الرابع عشر الميلادى) أن أمهر أرباب الحرف متفقون فى الرأى على أن منبر مسجد قرطبة بأسبانيا، ومنبر مسجد الكتبية[٥٦] فى مراكش، هما من أبدع المنابر على الإطلاق.

والإدريسى[٥٧] يقرر ذلك فى قوله : (إن منبر المسجد الجامع فى قرطبة لا نظير له فى العالم) وقد صنع فى عهد الحكم الثانى، ويوصف بأنه نموذج لا يبارى فى صنع الأثاث الرفيع المطعم بالعاج والخشب الرقيق.

كما يعد هذا المسجد الجامع من الوجهة العلمية أكبر جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية واللغة، ويفد إليها طلبة العلم من المسلمين والمسيحيين على السواء للدرس والتحصيل[٥٨] كما بنيت العديد من المساجد فى قرطبة بلغ تعدادها فى بعض المصادر العربية ما بين ١٦٠٠ و ٣٨٠٠ مسجد[٥٩]، ولكن لم يبق منها اليوم سوى ثلاث مآذن هى أبراج كنائس سان خوان وسانتا كلارا وسانت باجو، ومن المرجح أن هذه المساجد ترجع إلى عصر[٦٠] عبدالرحمن الأوسط ويذكر المتخصصون فى علم الهندسة المعمارية أن الطريقة التى تم بها بناء مسجد قرطبة مكنت من إقامة بناء ضخم على أعمدة رشيقة (رفيعة نسبيا) مع الاستفادة إلى أقصى حد من المساحة الداخلية، وتحقيق رؤية المصلين للإمام بوضوح وهو يؤمهم فى الصلاة[٦١] كما يذكرون أن طريقة البناء بعقود مزدوجة متراكبة أضفى على مسجد قرطبة جمالاً أصيلا، وطابعاً فريداً فى عمارة العصور الوسطى لا نجدها فى أى مسجد آخر.

ونتيجة لهذا الإبداع الفنى فى فنون العمارة الإسلامية بأسبانيا، استخدم المعماريون الأسبان طريقة العقود التى على شكل حدوة الفرس فى العمارة القوطية بأسبانيا منذ ذلك التاريخ.

وفى عهد الأمير عبدالرحمن الثانى شيدت مساجد أخرى فى المدينة وجيان وغيرهما[٦٢] كما تمت توسعة (قصر الإمارة)، وزيدت عليه أجنحة جديدة بناها لنفسه ولأبنائه، وشرفات مزججة ليتطلع إلى منظر قرطبة الجميل وهو واقف خلف هذا الزجاج، كما عرفت ضواحى العاصمة والقرى القريبة بناء القصور بها للأمراء، وقد بنيت على طراز قصر الإمارة إلا أنها كانت أصغر فى الحجم، ويعتبر ذلك سابقة لم تعرف من قبل فى تاريخ الأندلس أو فى تاريخ أوروبا كلها، ولذلك فلسنا مبالغين إذا قلنا إن العرب المسلمين فى الأندلس كانوا أسبق من إيطاليا فى إبداع وفنون تشييد البناء بحوالى خمسة قرون على الأقل، ودليلنا على ذلك أنه عندما تمت توسعة مسجد قرطبة العظيم فى آخر عهد عبدالرحمن الناصر (الثالث) (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م) واكتملت زخرفة القبلة وبعض الحوائط الداخلية بالفسيفساء لم يكن الغرب الأوروبى يعرف شيئاً عن هذا الفن المعمارى[٦٣]، لاسيما وأن المسلمين فى الأندلس استعملوا الأحجار الصخرية فى بناء أسوار مدينة المرية[٦٤].

ونتيجة لهذا التطور الحضارى الكبير فى الأندلس زاد عدد السكان فى قرطبة فى أزهى عصورها (عصر عبدالرحمن الناصر) حتى بلغ نصف مليون نسمة حسب إحصاءات بعض المستشرقين الأسبان[٦٥]. كما زادت أبنية الحمامات العامة للشعب، وكذا الحانات والدور[٦٦]. ولا ننسى فى هذا المقام قصر الحمراء (الهمبرا) بتكوينه الرشيق، وأبعاده الموزونة، وجدرانه المنمقة، وغرفه الفسيحة الرائعة، وقبابه الفخمة العالية، ومياهه الصافية الجارية، وجناته ذات القطوف الدانية[٦٧]، فإنه دليل حى على ما بلغه فن البناء والزخرفة وهندسة المعمار فى الأندلس، حتى أن مهندساً إنجليزياً يدعى يوحنا Johns ظل حوالى ثمان سنوات (من ١٨٣٤م) عاكفاً على دراسة ما فى هذا القصر من فنون إسلامية عظيمة[٦٨].

ومن الأشياء التى أخذها الأوروبيون عن فن البناء الإسلامى طريقة (الأقواس المدببة العالية) فقد انتقل هذا الفن المعمارى الإسلامى إلى أوروبا عن طريق سامراء (مقر الخلافة) ومن جامع أحمد بن طولون فى مصر إلى صقلية أولاً، ومنها فى عهد الفاطميين ثم فى عهد

النورمان إلى بيزا وإلى كنيسة «ديزيديريوس Desiderius Church» بمونت كاسينو، كما ساهم فى نشر هذه الفنون الحضارية كهنة أسبانيا وخاصة رئيس الدير «هوجو الكلونى Hugo von Klony»[٦٩] ولم تقتصر هذه الأقواس العالية المدببة فى الغرب الأوروبى على مجرد كونها أداة تزيين كما كانت عند العرب المسلمين، بل صارت فى بيزا وكلونى ومونت كاسينو فكرة أساسية فى البناء، وأصبحت هى الأساس الأصيل للفن القوطى[٧٠] وهذا يؤكد أن الطراز القوطى فى فنون العمارة والذى انتشر فى أوروبا كلها هو طراز مشرقى عربى الأصل تماما[٧١].

بل الأكثر من ذلك أن جوانب متعددة فى الحياة العامة تأثرت بمؤثرات مشرقية إسلامية عن طريق عرب الأندلس، ففى بداية النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى (سنة ٩٥٠م) كانت شوارع قرطبة تزدان بثمانين ألف متجر، وتضاء ليلاً بمصابيح مثبتة على حيطان المنازل وتباشر فيها أعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التى تجرها الثيران، بينما لم تعرف باريس (مدينة النور والعلم) إضاءة شوارعها، ورصف طرقاتها وتنظيفها إلا سنة ١١٨٥م، بينما بقيت مدينة كولن Köln كذلك فى ظلامها الدامس حتى ٢٨ مارس ١٨١٩م، وعندما أخذت المدينة فى إضاءة شوارعها وتنظيفها انطلقت جريدة المدينة Köln Zeitung تصف ذلك بأنه «شر مستطير من البشر يهدد الظلام الإلهى» وهكذا نجد أن الجوانب الحضارية حتى فى الحياة العامة انتقلت من الأندلس بعد الفتح العربى الإسلامى لها، إلى بعض مدن أوروبا تباعاً فيما بين القرنين العاشر والثانى عشر الميلادى، وعندما انتقلت جوانب من هذه الحضارة إلى باريس زحفت منها إلى بقية المدن الأوروبية حتى عمت أوروبا كلها.

وهكذا نجد تأثير الحضارة العربية الإسلامية فى حضارة الغرب الأوروبى شملت نواحى الحياة كلها، وكان ذلك عن طريق المعابر التى دخلت منها هذه الحضارة إلى البلدان الأوروبية وعن طريق ما نقله الأوربيون عن حضارة الأندلس الإسلامية، وهى فى أصلها حضارة عربية إسلامية شرقية - كما أسلفنا - لأنه عندما بلغت الأندلس درجة من الرفاه الاقتصادى والإمكانات المادية اقتبست الكثير من عادات المشرق الإسلامى، فتحسنت صورة الملبس وطرق المأكل، ووسائل الزينة خاصة فى قرطبة[*]، وحظيت قصور الأمراء والقواد وطبقة أصحاب الأموال بالجوارى والمغنين والموسيقيين مثل زرياب[٧٢] وهو من أصحاب الصوت الطروب وصاحب مدرسة شهيرة فى الموسيقى والغناء فى ذلك العصر، كان تلميذ إسحق الموصلى مغنى

هرون الرشيد. وكان زرياب إلى جانب صوته الذهبى فى الغناء ضليعاً فى سير الخلفاء وأحوال الملوك ونوادر العلماء. وقد أدخل تعديلاً على آلة العود وجعلها ثلث حجم الآلة المستعملة فى أيامه، كما أضاف إليه وتراً خامساً. كما كان له منهاج خاص لتعليم الموسيقى والغناء للمبتدئين(٧٣). وقد تعلم الناس فى الأندلس من زرياب الأناقة فى الملبس وتنويعها على حسب فصول السنة.

وحتى الآلات الموسيقية التى يعرفها العالم الآن فإن معظمها يرجع أصوله إلى العرب وقد وردت هذه الآلات إلى الغرب الأوروبى محكمة الصنع عبر أسبانيا تحمل معها أسماءها مثل العود، والماندولينا، والبندورا، والربابة، والرباك، والناى الصغير، والناى الخشبى ذو المبسم، والنفير (الترومبيت Trompete)، والبوق Horn، والطبلة والصنوج، هذا وقد صنع الفارابى - وكان من علماء الموسيقى كذلك - القانون فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى).

وكان للموسيقى العربية (الشرقية) الفضل الكبير على عدد ليس بالقليل من الموسيقيين الأوروبيين حيث ألهمتهم أفضل ما قدموه من قطع موسيقية، نذكر منهم جوند يسالفوس Gundisalvus، يوحنا أجيديوس Johannes Aegidius، روبرت كيلوردلى Robert Kilwardly، رامون صل Ramon Sull، روجر بيكون Roger Bacon، آدم الفولدى Adam Von Fulda، وقد بقى ما كتبه الفارابى وابن سينا مرجعاً للموسيقيين الأوروبيين حتى القرن السابع عشر الميلادى(٧٤).

وفى مجال الثقافة والعلوم :

كان تأثير الحضارة المشرقية الإسلامية على الغرب الأوروبى واضحاً وبارزاً. ففى بادئ الأمر اعتمدت الحركة العلمية فى الأندلس على علوم الإغريق وجهود علماء بغداد خاصة وعلماء المشرق الإسلامى عامة، ولكن ذلك لم يدم طويلاً. فلم تلبث الأندلس أن استقلت فكرياً، ولمعت فى سمائها أسماء كبيرة لعلماء فطاحل من أمثال ابن رشد، وابن طفيل، الذى ترجمت كتبه إلى كثير من اللغات الأوروبية، وابن ماجه، وابن البيطار، وعباس بن فرناس، ولسان الدين الخطيب، وابن خلدون، وابن عربى وغيرهم (كما ذكرنا ذلك فى فصول سابقة).

فالحكم الثانى زخر بلاطه بالعلماء والأدباء مسلمين ومسيحيين، وكان من ضمن هؤلاء

الأسقف جودمار الجيرونى Godmar von Gerona الذى ألف كتاباً باللغة العربية عن تاريخ الفرنجة، كما ألف الأسقف ربيع بن سعيد كتاباً عن العلوم الطبيعية بالعربية كذلك، فترجمه إلى اللاتينية جرهارد الكريمونى Gerhard von Cremona(٧٥). ولم يكن ربيع بن سعيد هذا إلا أسقف قرطبة «ركيداً موئدوس» الذى بعثه عبدالرحمن الثالث سنة ٩٥٥م مندوباً عنه للقيصر أوتو الأكبر Otto the great(٧٦). وهكذا نجد أن مؤرخى الغرب الأوروبى تتلمذوا على مؤرخى المشرق الإسلامى وأخذوا ينقلون عنهم ما دونوه عن فتوحات العرب المسلمين لجزر البحر المتوسط وفتح أسبانيا. والدليل على ذلك ما نقله بعض مؤرخى الغرب الأوروبى عن الشريف الإدريسى(٧٧) بشأن السفن التى أحرقها طارق بن زياد بعد عبوره المضيق، علماً بأن معظم كتب التاريخ التى دونها المؤرخون المسلمون أغفلت هذه الرواية.

ومن الواضح أن أمراء وحكام الغرب الأوروبى لم يعرفوا قيمة اقتناء مكتبات فى قصورهم أو دواوينهم إلا من العرب المسلمين حكام الأندلس. فقد أنشأ الأمير محمد بن عبدالرحمن الثانى نواة مكتبة فى قصره، فغدت هذه المكتبة فى عهد الأمير الحكم الثانى (أى بعد قرن من الزمان) من أكبر مكتبات العالم فى ذاك العصر.

ولم يكن هذا هو كل ما قدمه العرب المسلمون إلى الغرب الأوروبى فحسب، بل قدموا لهم وللإنسانية كلها أسس علم الطب والصيدلة. فقد ترجمت كتب ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) القانون فى الطب، الشفاء، الإشارات والتنبيهات.. إلى اللاتينية فى إيطاليا أولاً ثم إلى اللغات الأوروبية جميعها بعد ذلك. ففى سنة ١٤٧٣م (فبراير) ظهر كتاب القانون فى الطب فى ميلانو باللاتينية، ثم طبع مرة ثانية بعد عامين، وقام بالتعليق والشرح على هذا الكتاب إيطالى وضع له عنواناً «روح ابن سينا Anima Avicennas» ثم طبعت كتب الحاوى للرازى، والكليات لابن رشد، وايساجوجى لحنين بن إسحق وغيرهم. وقد ظلت كتب ابن سينا الطبية وكتب الرازى عماد الدراسة فى كليات الطب بجامعات أوروبا قروناً عديدة(٧٨).

ومما يقوله المعتدلون فى أوروبا نذكر قول المستشرق الألمانى أجريبا فون نيتسهايم Agribba von Nitzheim:

(إن كتب ابن سينا والرازى وابن رشد استقبلت بنفس الثقة التى استقبلت بها كتب أبو قراط وجالينوس. ونالت كتب الطب العربى حظوة قصوى عند الناس لدرجة أنه إذا ما

حاول أمرؤ ممارسة الطب دون الاستناد إليها، أتهم - على أهون سبيل - بالعمل على الإضرار بالمصلحة العامة(٧٩). وكان من نتيجة اعتماد المشتغلين بالطب على هذه الكتب أن طبعاتها وصلت فى سنة ١٥٠٠م ستة عشرة طبعة لقانون الرازى، مقابل طبعة واحدة لكتاب جالينوس فى جزئين. ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه حتى أواخر القرن العاشر الميلادى لم يعرف المشتغلون بعلم الطب والصيدلة فى مدارس أوروبا ما هو مدون من عقاقير طبية فى مخطوطات أبو قراط وجالينوس، ولم يفهموا ما دونه ديوسكوريدس Dioskurides من شرح وإضافة لهذه العقاقير. وقد أرسل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع كتاب ديوسكوريدس هذا سنة ٩٤٨م إلى الأمير عبدالرحمن الثالث فى الأندلس ليغريه به على الإنضمام إليه فى الحرب ضد الخليفة العباسى فى بغداد، ولم يجد عبدالرحمن فى الأندلس من يشرح له هذا الكتاب ويحل أحاجيه وألغازه، فأرسل إلى الإمبراطور الذى بعث إليه الراهب نيقولاس سنة ٩٥١م، وقد تعاون هذا الراهب مع الأطباء العرب فى قرطبة حتى ترجموا هذا الكتاب إلى العربية، لأن الأطباء في الأندلس كانوا على علم بعلوم العقاقير وشئونها منذ زمن بعيد، فطبيب الخليفة هشام الثانى واسمه سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل وضع كتاباً بعنوان (مقالة فى ذكر الأدوية التى لم يذكرها ديوسكوريدس فى كتابه مما يستعمل فى صناعة الطب وينتفع به وما لا يستعمل لكيلا يغفل ذكره)(٨٠).

وقد دفع شغف بعض الأطباء الأوروبيين بمعرفة أسرار علوم العرب فى الطب أن تعلموا العربية، نذكر منهم الطبيب الألمانى الشهير أندرياس فيتزاليوس Anderias Wizalius وكان يلقب أبو علم التشريح، وأبو الطب الغربى على الإطلاق، وكان هدفه أن يترجم بنفسه كتب الرازى إلى لغة لاتينية صحيحة. وقد طبع كتاب (الحاوى) خمس مرات باللاتينية فيما بين عامى ١٤٨٦ و١٥٤٢م.

كما قدم ابن سينا أدوية جالينوس المعقدة فى إطار سهل غير مضر، وذكر فى كتابه (القانون) ما ينيف على سبعمائة وستين عقاراً دخلت كلها فى علم النبات وعلم الصيدلة فى الجامعات الأوروبية، وظل الكثير منها بأسمائها العربية فى اللغات الأوروبية مثل العنبر والزعفران والكافور وغيرها(٨١). ومن المدهش حقاً أن مكتبة كلية الطب فى باريس لم يكن بها فى القرن الرابع عشر الميلادى سوى مؤلف واحد لعربى كبير هو كتاب الحاوى للرازى Rhases(٨٢). وقد احتوى هذا الكتاب الطبى كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتى سنة

٩٢٥م وظل المرجع الأساسى فى جامعات أوروبا لمدة تزيد على أربعمائة سنة بعد ذلك التاريخ (أى إلى حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى) دون أن يزاحمه مزاحم أو تؤثر فيه أو فى مكانته مخطوطة من المخطوطات الهزيلة التى دأب فى صياغتها كهنة الأديرة قاطبة. ونظراً للقيمة العلمية الكبيرة لهذا الكتاب فلم يسمح للملك لويس الحادى عشر باستعارته إلا بعد أن دفع تأميناً من الذهب والفضة حتى يتمكن أطباؤه الخصوصيون من الإطلاع عليه ونسخ صورة منه يرجعون إليها عند معالجة الأسرة المالكة(٨٣).

أما مدارس الطب فى مونبلية فقد حاكت بشغف كبير الجامعات العربية، وحافظت على حبها للتجارب على نمط التراث العربى الأصيل دون أن تقع فى أخطاء علمية تؤذيها أو تضر بهـا، والدليل على ذلك أن أرنولد الفيـلاتو فى Arnoldus Villanueva الأسبانى (١٢٣٥-١٣١١م)(٨٤) قد حالفه التوفيق بفضل احتكاكه المباشر بأطباء العرب، واعتكافه الطويل على آثار الفكر العربى، إلى مضاهاة كل معاصريه علماً ومعرفة.

ويقرر المعتدلون من المستشرقين حقيقة انتقال علم الصيدلة من العرب إلى الغربيين الأوروبيين. مثل قول بعضهم :

(وعن العرب أيضاً أخذنا طريقة الأقراباذين التى يقوم الصيدلى على أساسها بتحضير الأدوية). ومن المسلم به أن البلاد الأوروبية قد غمرها دفق من العقاقير العربية عن طريق البندقية، وصقلية، وتدفقت كذلك كتب كثيرة فى علم الأدوية والأقراباذين بواسطة رجال من أمثال قسطنطين الأفريقى(٨٥) وصلت حتى بلاد الراين حيث سطع تأثيرها فى الآفاق، فقلدها المقلدون وأفاد منها المبتكرون.

وإذا كنا نرى أن ما يقوله المعتدلون من المستشرقين حقيقة واقعة من حيث تأثير حضارة المشرق الإسلامى فى حضارة الغرب الأوربى، وأنها الأساس الذى بنى عليه الأوربيون حضارتهم، فإننا نؤيد ذلك القول بذكر أعظم خمسة من العلماء الأوروبيين فى العصور الوسطى تتلمذوا على كتب العرب المسلمين فى علوم الطبيعة وهم :

١ - الفرنسى فنسن دى بوفيه Vincent de Beauvais توفى سنة ١٢٦٤م.

٢ - الأسبانى رميوندلالوس Raimundus Lallus ١٢٣٢-١٣١٦م.

٣ - الأسبانى أرنولد الفيلانوفى Arnoldus Villanueva ١٢٣٥-١٣١١م.

٤ - النبيل الألمانى ألبرت بولشتادت (البرتو الكبير) ١١٩٣-١٢٨٠م.

Albert Von Bollstadt "Alberto the Great"

٥ - الإنجليزى روجر بيكون Roger Bacon ١٢١٤-١٢٩٢م.

فهؤلاء جميعاً درسوا علوم العرب فى جامعة باريس فبهرتهم، فسعوا إلى التحقق من هذه العلوم وكانت نتائج دراساتهم تأكيد ما وصل إليه العرب المسلمون من نتائج من قبل.

ولم ينته هذا التأثير المشرقى الإسلامى بإنتهاء العصور الوسطى، بل ظل قوياً فى علوم أوربا إلى القرن التاسع عشر، ففى سنة ١٧٥٨م صدرت أجزاء من كتاب ابن البيطار(٨٦) الجامع فى الأدوية المفردة.

وفى سنة ١٨٣٠ استعملت مصادر عربية فى تصنيف الأقراباذين الأوربى.

وفى سنة ١٨٣٢م صدرت فى طبعة جديدة مخطوطة فارسية قديمة بقلم : مختار الأرمنى تتعلق بعلم الصيدلة كذلك.

هذه عجالة سريعة عن تأثر الحضارة الأوروبية بحضارة المشرق الإسلامى اجتماعياً وثقافياً، أسهم بها مع زملائى من المشتغلين بعلم التاريخ الإسلامى والحضارة لتوضيح حقيقة ثابتة حاول البعض إنكارها أو إلقاء ظلال قاتمة عليها، ولكن الحقيقة لابد وأن تتضح وضوح شعاع الشمس فى وسط النهار، ويكفى أن عدداً غير قليل من علماء أوربا ممن ذكرناهم أقروا بهذه الحقيقة العلمية بكل صراحة ووضوح.

حواشي الفصل العاشر

(١) دخل العرب صقلية حوالي سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٣م ومكثوا بها قرابة قرنين ونصف، كانوا فيها سادة للجزيرة وكانت عاصمتها بالرمو Palermo، وقد أدخل العرب الفاتحون كثيراً من المزروعات وثمار الفاكهة والنخيل إليها، وكانت قصورها تعج بالشعراء والمغنين والفلاسفة والأطباء وعلماء الرياضة والطبيعة. راجع ابن حوقل: (أبو القاسم محمد) كتاب صورة الأرض بيروت (د).

(٢) مجهول : أخبار مجموعة، ص٧٩.

(٣) أحمد الشامي (دكتور) : العلاقات بين الشرق والغرب، ط ثالثة، ١٩٩٣، ص٨٨.

(٤) محمد عبدالعزيز مرزوق (دكتور) : الفنون الزخرفية الإسلامية، بيروت (د) ص٢٢٦.

(٥) زجريد هونكه (دكتورة) : شمس العرب تسطع على الغرب، بيروت، ١٩٦٩، ٥٣٢.

(٦) أحمد الشامي : العلاقات، ص٢٦٧ وما بعدها.

(٧) فيليب حتى (دكتور) : محنة الشرق للغرب، ص١٤٢ وكذلك : Lammens, Henri : La Syrie du Nord, P. 236.

(٨) Runciman, Steven; Die Kreuzzüge, B.2. München, 1955, S. 294. أحمد الشامي : العلاقات، ص٢٧١ وما بعدها.

(٩) Rey, E.G.: Les Colonies Franques de Syrie aux XIIet XIII Vol. I, P. 45.

(١٠) فيليب حتى : تاريخ العرب، (٣ أجزاء) بيروت، ١٩٤٩-١٩٥١، ص٢١٢.

(١١) ابن جبير : الرحلة، بيروت، ١٩٦٧، ٢٧٤، ٢٨٠.

(١٢) راجع ما وسم به كل من جروسيه، وجوستاف لوبون الصليبيين من سوء الأخلاق والعادات Grousset, R.: Histoire des Croisades et du Roy Francais de Jerusalem, paris, 1934, pp. 123-209.

(١٣) فيليب حتى : محنة الشرق، ص١٤٧.

(١٤) ابن جبير : الرحلة، ص٢٨٨.

(١٥) أحمد الشامي : صلاح الدين والصليبيون، النهضة العربية، القاهرة ١٩٩١، ص١٣٦.

(١٦) زجريد هونكه : مرجع سابق، ص٥٣١.

(١٧) زجريد هونكه : مرجع سابق، ص٤٧٤.

(١٨) المقري التلمساني : شهاب الدين أحمد - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (٧ أجزاء) تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨، ج١، ص١٩٨.

(١٩) Dozy, R.: Histoire des Musulmans d'Espagne, Vol. II, p. 40 & pp. 277-278 . وكذلك محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام فى الأندلس، ج١، ق١، ص٦٣.

(٢٠) بسبب رفع الجزية عمن أسلم، فيقل دخل بيت المال ولا يجد الحاكم ما ينفق منه على المنطقة التى يتولى أمرها.

(٢١) Dozy, R.: op. cit., p. 278 ff.

(٢٢) Lane Poole, Stanley: The Moors in Spain, London, 1897, Ch. 1 .

(٢٣) History of the Mohammedan Dynasties in Spain, Vol. I, pp. 7-8 .

(٢٤) History of the Inguisition in Spain, Vol. I. p. 356 .

(٢٥) Simonet, Francisco Javier: Historia des los Mozarabes de Espana, Vol. I. p. 106 .

(٢٦) Altamira, R.Y. Crevea: Historia de Espana y de la Civilization Espanola t. I. P. 217 & Almagre, U.Y. Cardenas: La Cultura Arabigo-Sevillana, p. 10.

(٢٧) Gibbon, Edward: The history of the decline and fall of the roman Empire .

(٢٨) ورد هذا النص كاملاً عند ابن الخطيب فى كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، ج١، القاهرة. وقد أورده فى كتاب (دولة الإسلام فى الأندلس) ج١، ق١، ص١٩٩.

(٢٩) المقرى التلمسانى : نفح الطيب، ج١، ص١٥٥.

(٣٠) Codera, F.Y. Zidin: Numismatic, Arabigo - Espanola, p. 65 . وكذلك ابن بسام (أبو الحسن على) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القاهرة، ١٩٤٥، ص٤١.

(٣١) ينسب إلى سفر بن عبدالكلابى أحد قواد عبدالرحمن الداخل الذى زرعه فى كورة (ريا) ومنها انتشرت زراعته فى كل أنحاء الأندلس، ثم فى أوروبا. المقرى التلمسانى : نفح الطيب، ج٣، ص١٤-١٥ وكذلك أحمد بدر (دكتور) : الأندلس وحضارتها، ج١، ص١٤٠.

(٣٢) ابن الأبار (أبو عبدالله محمد القضاعى) : كتاب الحلة السيراء، القاهرة، ١٩٦٣، ص٣٥ وكذلك المقرى التلمسانى : المرجع السابق، ج٢، ص١٥، ٨٤ .

(٣٣) زجريد هونكه : مرجع سابق، ص ٤٠-٤١.

(٣٤) حدث ذلك أيام الفتنة بين الأخوين الأمين والمأمون فى بغداد (١٩٥-١٩٦هـ/ ٨١١-٨١٢م) راجع أحمد الشامى : الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ص١٣٨-١٤٠.

(٣٥) ابن الخطيب (لسان الدين) : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، بيروت ١٩٥٦، ص٢٠.

(٣٦) Gosse, Philip : Los Piratas del Norte, pp. 107-111 .

(٣٧) الحميرى (أبو عبدالله محمد) : الروض المعطار.. نشره ليفى بروفنسال، ص١٨٤.

(٣٨) زجريد هونكه : مرجع سابق، ص٤٨.

(٣٩) زجريد هونكه : نفس المرجع السابق، ص ٥٠-٥٢.

(٤٠) راجع المناقشات المستفيضة فى كتاب المستشرق الفرنسى (ميجون) عن الفن الإسلامى ;Migeon Manuel d'Art Musulman (Art Plastiques et industries) vol. I. pp. 247-248 & islamische Kleinkunst, Berlin, 1925

(٤١) محمد عبدالعزيز مرزوق : الفنون الزخرفية، ص٦٨ هـ٤، ص٢٢٦ وارجع كذلك إلى ما كتبه الأثرى البريطانى كريستى فى كتاب تراث الإسلام : ج٢ ص٩٩ (ترجمة زكى محمد حسن).

(٤٢) كولان، ج.س. : الأندلس، ص١٧٩-١٨٠.

(٤٣) Heyd, W.: Histoire du Commerce du Lavant du Moyen-Age, t. 11. p. 694.

(٤٤) ياقوت الحمرى : معجم البلدان، ج٥، ص١١٩.

(٤٥) بالباس، ل. توريس: الأندلس، ص١٣٨.

(٤٦) توفى سنة ١٢٧٤م (٦٤٧هـ) ودفن فى قرية صغيرة فى مقاطعة بلنسية، مرزوق: الفنون الزخرفية، ص١٣١.

(٤٧) من المعلوم أن العرب لم تخترع الورق، ولكنهم تعلموا صناعته من أسرى الحرب الصينيين الذين جلبوهم إلى مدينة سمرقند، ومنها انتقلت صناعته إلى عواصم العالم الإسلامى ثم وصلت الأندلس ومنها إلى أوروبا. مرزوق: الفنون الزخرفية، ص ٢٢٧، هـ١ .

(٤٨) Vernet, Juan : Los Musulmanes Espanples, p. 107.

(٤٩) مرزوق : مرجع سابق، ص ٢٢٧.

(٥٠) Kühnel, E.: Maurische kunst, Berlin, 1924. p. 1.

(٥١) مجهول : أخبار مجموعة، ص٢٤.

(٥٢) المقرى : نفح الطيب، ج٢، ١٧، ١٩، ١٦١، وابن خلدون : تاريخ، ج٤، ص١٢٣.

(٥٣) المقرى : نفسه، ج٢، ص٨٤، سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص٢٠٧.

(٥٤) يبلغ قيمتها حوالى ثلاثة ملايين دولار أمريكى حالياً، باعتبار الدينار ٤/١ ٢ جم ذهب.

(٥٥) المقرى : نفح الطيب، ج١، ١٥٥، وابن عذارى المراكشى : البيان المغرب، ج٢، ص٦٠.

(٥٦) صنع هذا المنبر فى قرطبة ما بين عامى ٥٢٤-٥٣٨هـ/ ١١٣٩-١١٤٢م. وهو مكسو بزخرفة رقيقة تتكون من أشكال هندسية متشابكة فى ألواح مطعمة.

(٥٧) الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق.

(٥٨) يبدو لى أن هناك بعض المبالغة فى العدد (٣٨٠٠) لهذه المساجد.

(٥٩) راجع الوصف القيم لهذا المسجد عند الحميرى: الروض المعطار، ص١٥٣ والمقرى: نفس المرجع السابق ونفس الصفحة وكذلك السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس، ص١٥٣-١٥٤.

(٦٠) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب، ٤٦٠ وكذلك سالم : المرجع السابق، ص ٣١.

(٦١) كولان : الأندلس، ١٥٣-١٥٤.

(٦٢) الحميرى : الروض المعطار، ص٢٩، ٧١.

(٦٣) كولان : المرجع السابق، ص١٦٠.

(٦٤) سالم : تاريخ مدينة المرية، ص١٣٩ معتمداً على العذرى الدلائى : كتاب توضيح الأخبار وتنويع الآثار، ص٨٦.

(٦٥) Balbas, Leopold Torres.: Extensíon y demografia de les Ciudades hispano Musulmanas, Studin Islámicá, vol. III. P. 53 & Dozy: Histoire des Musulmanas d'Espagne, ed Levi Provençal, Leyde, 1932.

(٦٦) راجع ما ذكره السيد عبد العزيز سالم (تاريخ المسلمين) ص٢٩٦ عن عدد هذه الحمامات والحانات والدور.

(٦٧) مرزوق : الفنون الزخرفية، ص ٤٥.

(٦٨) أحمد الشامى : الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٩١، ص١٤٥ (ط: ثامنة).

(٦٩) تقع كلونى جنوبى البرانس على الطريق المؤدى إلى مقبرة سانتياجو فى الجزء المسيحى من أسبانيا، زجريد هونكه : مرجع سابق، ص٤٨٢.

(٧٠) زجريد هونكه : نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٧١) للوقوف على تفاصيل مهمة من التأثير الإسلامى فى فنون أوروبا راجع ما كتبته السيدة دفنشير بالفرنسية وكذلك ما كتبه أحمد فكرى فى الكتابين التاليين :

– Devenshire: Quelques influnces islamiques sue les Arts de Eurepe, Le Caire, 1929.

– Fikry, Ahmed: L'Art roman du Payes et les influnces islamiques, Paris, 1934.

(٧٢) هو أبو الحسن على بن نافع الشهير بزرياب.

(*) خير الله طلفاح : حضارة العرب فى الأندلس، ج٦، ص ١٣٠-١٣١.

(٧٣) المقرى : نفح الطيب، ج١، ص١٣٦، ج٤، ص١١٨-١٢٨.

(٧٤) زجريد هونكه : مرجع سابق، ص٤٩٢.

(٧٥) قام جير هارد الكريمونى بترجمة إلى اللاتينية لشرح ابن رضوان (أبو الحسن على ابن رضوان بن على ابن جعفر المصرى ٩٩٨-١٠٦١م) طبيب الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، على كتاب جالينوس فى كتابه المسمى (شرح الصناعة الصغيرة لجالينوس).

(٧٦) زجريد هونكه : مرجع سابق، ص٥٠١.

(٧٧) نزهة المشتاق، ص١٧٨.

(٧٨) زجريد هونكه : نفس المرجع، ص١٠٨.

(٧٩) زجريد هونكه : نفس المرجع، ص٢١٣.

(٨٠) زجريد هونكه : نفس المرجع، ص ٣٢٢.

(٨١) زجريد هونكه : المرجع نفسه، ص٣٢١.

(٨٢) كان الرازى أول من استحضر حامض الكبريتيك الهام، وأول من استخرج الكحول من المواد السكرية والنشوية المخمرة، وهو أول من دفع الكيمياء لخدمة الطب فحقق فتحاً علمياً آخر. وقد سار على نهجه فيما بعد عدد من علماء الأوروبيين مثل باراسلزوس Paracelsus .

(٨٣) زجريد هونكه : المرجع السابق، ص٢٤٣.

(٨٤) أحد المستشرقين الذين أتقنوا العربية، وقد اهتم بدراسة الفكر والعقلية العربية، ومن المستشرقين الحاليين نذكر A. Schall; A. Dietricn; H. Gottschalk .

(٨٥) أحد المسلمين التونسيين، تعلم فى بغداد ثم عاد إلى تونس ولكنه تنصر وهرب إلى إيطاليا حيث مات بها راهباً سنة ١٠٨٧م، وكان أول من نقل إلى اللاتينية مؤلفات العرب الطبية دون أن يذكر أسماء مؤلفيها الحقيقيين ناسباً إياها لنفسه.

(٨٦) ابن البيطار : أعظم عباقرة العرب فى علم النبات، ضم كتابه (الجامع فى الأدوية المفردة) شرحاً لألف وأربعمائة نوع من النباتات الطبية، من حيث ذكر أسمائها وطرق استعمالها والبديل لها. وقد اعتمد فى كتابه هذا على دراسة وتمحيص مائة وخمسين كتاباً فى النباتات وفى علوم الطب كتبها سابقوه.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

١ – القرآن الكريم.

٢ – كتب الحديث الشريف :

- البخارى : أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى.
- الجامع الصحيح (٩ أجزاء فى ٣ مجلدات) ط. مصر ١٣٤٨هـ.
- مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى.
- صحيح مسلم بشرح النواوى (٩ مجلدات) بيروت ١٩٧٢.

٣ – ابن الآبار : أبو عبيد الله محمد بن عبدالله بن أبى بكر القضاعى

كتاب الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس (جزءان) القاهرة، ط. أولى ١٩٦٣م.

٤ – ابن أبى أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (جزءان) فى مجلد، المطبعة الوهابية، القاهرة (بيروت).

٥ – ابن أبى الربيع : شهاب الدين أحمد بن محمد

كتاب سلوك المالك فى تدبير الممالك، المعارف، مصر ١٣٢٩هـ.

٦ – ابن البيطار : ضياء الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد الأندلسى

الجامع لمفردات الأدوية والأغذية (٤ مجلدات) ط. بولاق ١٢٩١هـ.

٧ – ابن الأثير : عز الدين محمد بن عبدالكريم الشيبانى

- الكامل فى التاريخ (١٢ مجلدا) صادر، بيروت ١٩٦٦م.
- التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة (بدون).

٨ – ابن بسام : أبو الحسن على الشنترينى

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القاهرة ١٩٤٥م.

٩ - ابن تيمية : تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله الحرانى

- نظرية العقد أو (كتاب العقود) مطبعة أنصار السنة المحمدية، القاهرة ١٩٤٩م.
- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، مجلد ٣٣.
- الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية.

١٠- ابن جبير : محمد بن أحمد الكنانى الأندلسى

رحلة ابن جبير، صادر، بيروت ١٩٦٤م.

١١- ابن جلجل : أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى

طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة سنة ١٩٥٥.

١٢- ابن الجوزى : أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن على

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، حيدر أباد الدكن، ١٩٣٩م.

١٣- ابن حجر العسقلانى: أحمد بن على بن محمد بن على بن أحمد الشافعى شهاب الدين

فتح البارى بشرح صحيح البخارى (وبهامشه الجامع الصحيح للبخارى)، ط. بولاق سنة ١٣٠٠هـ.

١٤- ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى، الفصل فى الملل والأهواء والنحل (جزءان فى مجلد) وبهامشه الملل أو النحل للشهرستانى. المطبعة الأدبية، القاهرة سنة ١٣١٧هـ.

١٥- ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على النصيبى

كتاب صورة الأرض. ط. بيروت، ١٩٦٣م.

١٦- ابن حيان : أبو مروان بن حيان القرطبى

المقتبس فى أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبدالرحمن الحجى، بيروت ١٩٦٥م.

١٧- ابن الخطيب : لسان الدين

- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، بيروت سنة ١٩٦٥م.
- كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة، القاهرة ١٩٠١م.

١٨- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد
- المقدمة، تحقيق على عبدالواحد وافى، القاهرة ١٩٥٧م.
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر (٧ مجلدات) بيروت ١٩٧١م.

١٩- ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت سنة ١٩٦١م.

٢٠- ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدم العلائى
الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بولاق سنة ١٣١٠م.

٢١- ابن رسته : أبو على أحمد بن عمر. الأعلاق النفسية
تحقيق دى خويه، ليدن ١٨٩١م.

٢٢- ابن سعد : أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهرى كاتب الواقدى
كتاب الطبقات الكبرى (٨ أجزاء)، بيروت ١٩٥٨-١٩٦٠.

٢٣- ابن سعيد المغربى : على بن موسى
المغرب فى حلى المغرب (مجلدات) المعارف، القاهرة سنة ١٩٦٤.

٢٤- ابن سلام : أبو عبيد القاسم بن سلام الهروى البغدادى
كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، دار الفكر، القاهرة سنة ١٩٨١م.

٢٥- ابن شداد : عز الدين أبو عبدالله محمد بن على بن إبراهيم
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة ١٩٦٣.

٢٦- ابن الصابئ : أبو الحسن هلال بن الحسن بن إبراهيم
تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء، بيروت سنة ١٩٠٤.

٢٧- ابن صاعد الأندلسى : صاعد بن أحمد
كتاب طبقات الأمم، السعادة مصر (بدون).

٢٨- ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية. ط. ثانية، المعارف، القاهرة ١٩٣٨م.

٢٩- ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسى
كتاب العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، والأبيارى، التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٦م.

٣٠- ابن العبرى : جريجور توس أبو الفرج بن هرون الملطى
تاريخ مختصر الدول، الأباء اليسوعيين، بيروت ١٩٨٠م.

٣١- ابن عذارى المراكشى : أبو عبدالله محمد
البيان المغرب فى أخبار المغرب، تحقيق كولان، وبروفنسال، بيروت سنة ١٩٥٠م.

٣٢- ابن فرحون : إبراهيم بن على بن محمد برهان الدين
تبصرة الحكام فى أصول الأقضية ومناهج الأحكام، (بدون).

٣٣- ابن قتيبة الدينورى : أبو محمد عبدالله بن مسلم
الإمامة والسياسة (المعروف بتاريخ الخلفاء) الحلبى بمصر سنة ١٩٦٩م.

٣٤- ابن قدامة : موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد المقدسى الدمشقى :
- الحسبة فى الإسلام، القاهرة، مطبعة المنار، ١٣٤٨هـ.
- المغنى (فى الفقه الإسلامى).

٣٥- ابن القوطية : محمد بن عمرو بن عبدالعزيز أبو بكر
تاريخ إفتتاح الأندلس، بيروت ١٩٥٧.

٣٦- ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر الدمشقى
- البداية والنهاية (١٤ مجلداً) دار الفكر العربى، القاهرة ١٣٥٨هـ.
- تفسير القرآن الكريم (٤ مجلدات)، القاهرة ١٩٣٧.

٣٧- ابن مسكويه : أحمد بن محمد بن يعقوب
كتاب تجارب الأمم (٣ أجزاء) مطبعة الكبرى، مصر (بدون).

٣٨- ابن مماتى : شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد
كتاب قوانين الدواوين، نشره عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣.

٣٩- ابن منجب الصيرفى : أمين الدين أبو القاسم على بن منجب بن سليمان
الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة (٠٠٠).

٤٠- ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرة الأفريقى المصرى
لسان العرب (٥ مجلدات)، ط. صادر، بيروت ١٩٦٧م.

٤١- ابن النديم : محمد بن إسحق بن يعقوب بن النديم
كتاب الفهرست، ط. ليبزيج (جزءان في مجلد)، ١٨٧٢م. له طبعة أخرى المكتبة التجارية/ القاهرة (٠٠٠).

٤٢- ابن هشام : أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميرى
كتاب السيرة النبوية، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، التجارية، القاهرة ١٩٥٥م.

٤٣- ابن واصل : جمال الدين بن سالم الحموى
مفروج الكروب فى أخبار بنى أيوب (٣ أجزاء الأول تحقيق جمال الدين الشيال) (وجزء ٤، ٥) تحقيق حسنين ربيع، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٢-١٩٧٧.

٤٤- أبو حنيفة النعمان : ابن ثابت بن زوطى بن ماه
كتاب دعائم الإسلام (فقه) ط. الأنوار، القاهرة ١٣٦٨هـ.

٤٥- أبو شامه : شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسى
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٦٢.

٤٦- أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم
كتاب الخراج، ط. بولاق، القاهرة ١٣٠٢هـ. وكذلك ط. بيروت، المعرفة ١٣٩٩هـ.

٤٧- الإدريسى : الشريف محمد بن عبدالله بن إدريس
نزهة المشتاق فى أختراق الآفاق، ليدن ١٨٩٣م.

٤٨- الاصطخرى : أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى
كتاب مسالك الممالك، ط. ليدن ١٩٢٨م.

٤٩- الألوسى : محمود شكرى
بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، القاهرة ١٩٢٤.

٥٠- البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر
كتاب فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥.

٥١- البيرونى : أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمى
الآثار الباقية عن القرون الخالية، ط. المثنى، بغداد، ١٩٢٣.

٥٢- البيهقى : ظهير الدين على بن أبى القاسم زيد أبو الحسن البيهقى
تتمة صيوان الحكمة، (مجلدان، ص. الهند، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٦هـ.

٥٣- الجرجانى : أبو الحسن على بن محمد بن على الجرجانى - السيد الشريف
كتاب التعريفات، ويليه رسالة محيى الدين بن العربى (مجلد واحد)، القاهرة، ١٣٠٦هـ.

٥٤- الجهشيارى : أبو عبدالله محمد بن عبدوس، كتاب الوزراء والكتاب
تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة، ١٩٣٨م.

٥٥- حاجى خليفة : مصطفى بن عبدالله كاتب چلبى
كشف الظنون عن الأسامى والفنون (جزءان)، دار الطباعة، القاهرة، ١٢٧٤هـ.

٥٦- الحلبى : برهان الدين على الحلبى
إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون (أو السيرة الحلبية)، ٣ أجزاء، مصر، ١٩٦٤م.

٥٧- الحميرى : أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالعظيم
الروض المعطار فى خبر الأقطار، نشره ليفى بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧م.

٥٨- الخطيب البغدادى : أبو بكر أحمد
تاريخ بغداد (١٤ جزءا)، القاهرة، ١٩٣١م.

٥٩- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت الفندى وآخرين، القاهرة ١٩٣٣، وط. ثانية
ترجمة خورشيد، عبدالحميد يونس، القاهرة، ١٩٦٩.

٦٠- الرازى : أبو حاتم، الزينة فى المصطلحات الإسلامية العربية
تحقيق حسين الهمدانى، القاهرة، ١٩٥٦م.

٦١- السخاوى : محمد بن عبدالرحمن بن محمد
الإعلام بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، بغداد سنة ١٩٦٣م.

٦٢- السمهودى : أبو الحسن بن عبدالله
كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (جزءان)، القاهرة، ١٣٢٦هـ.

٦٣- السيوطى : جلال الدين عبدالرحمن بن محمد بن عثمان بن أيوب الخضرى :
- تاريخ الخلفاء، دار مصر للطباعة، ط. رابعة، القاهرة، ١٩٦٩.
- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة سنة ١٩٦٨.

٦٤- الشهرستانى : محمد بن أبى القاسم عبدالكريم بن أبى بكر أحمد
الملل والنحل، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، ط. الحلبى (٣ أجزاء فى مجلد) سنة ١٩٦٨.

٦٥- الصنعانى : محمد بن إسماعيل الأمير اليمنى
سبل السلام بشرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، ١٩٧٧.

٦٦- الطبرى : محمد بن جرير :
- تاريخ الرسل والملوك (١٠ مجلدات) دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٧.
- جامع البيان فى تفسير القرآن (٣٠ جزءا) نسخة مصورة على ط. بولاق سنة ١٣٢٧هـ.

٦٧- عريب بن سعيد القرطبى : صلة تاريخ الطبرى، نشر مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٥.

٦٨- عماد الدين الأصفهانى : محمد بن حامد الكاتب
الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق صبيح، القاهرة، سنة ١٩٦٢.

٦٩- الإمام الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسى الغزالى
إحياء علوم الدين، ط. الحلبى بمصر، (بدون).

٧٠- الفراء الحنبلى : أبو يعلى محمد بن الحسين
الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقى، ط. ثانية، الحلبى بمصر سنة ١٩٣٨.

٧١- قدامة بن جعفر : أبو الفرج قدامة بن جعفر بن زياد البغدادى
كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ط. بريل، ليدن، سنة ١٨٨٩م.

٧٢- القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على
صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء (١٤ مجلدا) دار الكتب المصرية، ١٩١٣/ ١٩١٤.

٧٣- الإمام مالك بن أنس، الموطأ، ط. دار الشعب، القاهرة (بدون).

٧٤- الماوردى : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى البصرى الشافعى
الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار العصور، القاهرة سنة ١٩٢٩.

٧٥- المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بن على :
- مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ أجزاء) المطبعة التجارية بمصر، ١٩٦٤م.
- التنبيه والإشراف، دار خياط، بيروت، ١٩٦٥.

٧٦- المقدسى : شمس الدين أبو عبدالله محمد
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط. بريل، اليدن، ١٩٠٦.

٧٧- المقرى : شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق
إحسان عباس، (٧ مجلدات)، بيروت، سنة ١٩٦٨.

٧٨- المقريزى : تقى الدين أحمد بن على بن عبدالقادر بن محمد :
- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع. التأليف والترجمة،
(المستعمل ج١)، القاهرة، ١٩٤١.
- إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق الشيال، القاهرة، ١٩٤٨.
- السلوك لمعرفة دول الملوك (١٢ قسماً فى ٤ أجزاء) نشر زيادة/ دار الكتب سنة
١٩٥٨
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط. بولاق، مصر سنة ١٢٧٠هـ.

٧٩- الهمدانى : فضل الله رشيد الدين
جامع التواريخ (المجلد الثانى فى قسمين) ترجمة الصياد وآخرين ومراجعة الخشاب،
ط. الحلبى بمصر، سنة ١٩٦٠.

٨٠- وثائق البردى العربى - مجموعة دار الكتب المصرية بالقاهرة.

٨١- وثائق البردى العربى - مجموعة الأرشيدوق راينر (فيينا).

٨٢- وثائق البردى العربى - مجموعة شوت - راينهارت (هايدلبرج).

٨٣- يحيى بن آدم، كتاب الخراج.

ثانياً : المراجع العربية والمصرية :

١ - أبو الحسن الندوى، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

٢ - إبراهيم أحمد العدوى (دكتور)
الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم، القاهرة ١٩٥٨.

٣ - إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، (ج١)، القاهرة ١٩٢٥.

٤ - أحمد بدر (دكتور)، الأندلس وحضارتها (ج١)، دمشق ١٩٦٩.

٥ - أحمد الشامى (دكتور) :

- تاريخ العرب والإسلام، الأنجلو المصرية، ط. ثالثة، القاهرة، ١٩٨٥.
- الخلفاء الراشدون، النهضة العربية، ط. ثالثة، القاهرة، ١٩٨٥.
- تاريخ الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ط. أولى، الدمام/ السعودية، ١٩٨٣.
- العلاقات التجارية بين دول الخليج العربى ومدن الشرق الأقصى، مطبعة رمسيس، إسكندرية، سنة ١٩٧٩.
- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، النهضة العربية، سنة ١٩٨٥.
- التطور التاريخى لعقود الزواج فى الإسلام، الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة ١٩٨٢.
- صلاح الدين والصليبيون، النهضة العربية، القاهرة سنة ١٩٩١.
- تأثر الحضارة الأوروبية بحضارة المشرق الإسلامى (بحث منشور فى الندوة الدولية الأولى لحضارات حوض البحر المتوسط بجامعة الأسكندرية) يناير سنة ١٩٩٤.

٦ - أحمد عبدالكريم سليمان (دكتور)، المغول والمماليك، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٤.

٧ - أحمد محمد عيسى، تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، القاهرة، ١٩٣٩.

٨ - آدم ميتز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة أبو ريدة، (جزءان)، بيروت، سنة ١٩٦٧.

٩ - أدولف جروهمان، أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية (٦ مجلدات) دار الكتب المصرية.

١٠- أرشيبالد ر. لويس، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى، النهضة المصرية، القاهرة (بدون).

١١- انستاس الكرملى، النقود العربية وعلم النميات، القاهرة، ١٩٣٩.

١٢- أنور الرفاعى، الإسلام فى حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق، سنة ١٩٧٣.

١٣- أوليرى : دى لاسى (دكتور) :

- الفكر العربى ومركزه فى التاريخ، ترجمة إسماعيل البيطار، بيروت، سنة ١٩٧٢.
- علوم اليونان وسبل نقلها إلى العربية.

١٤- جلال مظهر، حضارة الإسلام وأثرها فى الترقى العالمى، الخانجى، القاهرة (بدون).

١٥- چورج يعقوب، أثر الشرق فى الغرب، ترجمة فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٤٦.

١٦- چوزيف هل، الحضارة العربية، ترجمة د. إبراهيم العدوى، الأنجلو (بدون).

١٧- چوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، بالحلبى، القاهرة، سنة ١٩٦٤.

١٨- حسن إبراهيم حسن (دكتور)، تاريخ الإسلام السياسى والثقافى (٣ أجزاء) النهضة المصرية، سنة ١٩٧٤.

١٩- خليل مردم، الجاحظ، دمشق، ١٩٣٥.

٢٠- خير الله طلفاج، حضارة العرب فى الأندلس (ج٦) بغداد، ١٩٧٧.

٢١- دى بور، تاريخ الفلسفة فى الإسلام، ترجمة أبو ريدة، القاهرة ١٩٥٧.

٢٢- ريمومبين/ موريس، النظم الإسلامية، ترجمة فيصل السامرائى وصالح الشماع، بغداد، سنة ١٩٥٢.

٢٣- ريسلر - چاك. س، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف (بدون).

٢٤- زجريد هونكه (دكتوره)، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة بيضون، والدسوقى، بيروت سنة ١٩٦٩.

٢٥- سيد أمير على، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى، ترجمة رياض رأفت، القاهرة، سنة ١٩٣٨.

٢٦- سيدة إسماعيل كاشف (دكتورة)، مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه، الخانجى بمصر سنة ١٩٧٦.

٢٧- السيد عبدالعزيز سالم (دكتور) :

- التاريخ والمؤرخون العرب، الأسكندرية، ١٩٦٧.

- تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ١٩٨٣.

٢٨- سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، النهضة المصرية، ١٩٤٧، وط. ثانية، سنة ١٩٥٧.

٢٩- شاكر مصطفى، التاريخ العربى والمؤرخون (ج١)، دمشق (٠٠٠).

٣٠- الأب شحاته القنواتى، تاريخ الصيدلة والعقاقير.

٣١- شوقى ضيف (دكتور)، تاريخ الأدب العربى (ج٥) عصر الدول والإمارات، المعارف بمصر سنة ١٩٨٠.

٣٢- صالح أحمد العلى (دكتور)، التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى، بغداد سنة ١٩٥٣.

٣٣- صالح لمعى مصطفى، المدينة المنورة تطورها العمرانى.

٣٤- ظافر القاسمى، نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى، دار النفائس، بيروت، سنة ١٩٨٥.

٣٥- عباس محمود العقاد، الديموقراطية فى الإسلام.

٣٦- عبدالرحمن بدوى (دكتور)، دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى، وكالة المطبوعات، ط. ٣، بيروت، ١٩٧٩.

٣٧- عبدالعزيز الدورى (دكتور)، تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى.

٣٨- عبدالعزيز الدورى (دكتور)، معروف (دكتور)، موجز تاريخ الحضارة العربية، بغداد، سنة ١٩٥٢.

٣٩- عبدالقدوس الأنصارى، آثار المدينة المنورة، السلفية بالمدينة المنورة، ١٩٧٧.

٤٠- عبدالمنعم ماجد (دكتور)، تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، الأنجلو، القاهرة، ١٩٨٦.

٤١- ڤاسيليف أ. ل.، العرب والروم، ترجمة محمد عبدالهادى شعيرة وآخر، مصر (بدون).

٤٢- ڤان ڤلوتن، السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، ترجمة حسن إبراهيم حسن، محمد زكى إبراهيم، القاهرة، ١٩٣٣.

٤٣- فتحى أبو سيف (دكتور)، الماوردى، عصره فكره السياسى، سعيد رأفت، القاهرة، سنة ١٩٩٠.

٤٤- فتحى عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية (٣ أجزاء)، دار الفكر العربى، القاهرة، (بدون).

٤٥- فتحية النبراوى (دكتور)، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، الدار السعودية، جدة، ١٩٨١.

٤٦- فرانس روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلى، بغداد، ١٩٦٣.

٤٧- ڤنسنك أ. ى وآخرون، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى (٧ مجلدات)، لندن، ١٩٣٦/ ١٩٦٩.

٤٨- فون كريمر، الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية، تعريب د./ مصطفى طه بدر، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٤٧.

٤٩- فيليب حتى (دكتور)، تاريخ العرب (٣ مجلدات) ترجمة محمد مبروك نافع، بيروت ١٩٤٩/ ١٩٥١.

٥٠- كراتشكوفيسكى، تاريخ الأدب الجغرافى، ترجمة صلاح الدين عثمان، القاهرة، سنة ١٩٦٢.

٥١- كولان. ج. س.، الأندلس، المعارف الإسلامية، بيروت، ١٩٨١.

٥٢- ليڤى بروڤنسال :

- الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة سالم وحلمى، القاهرة، ١٩٥٨.
- حضارة العرب فى الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، مكتبة الحياة، بيروت (بدون).

٥٣- محمد جمال الدين سرور (دكتور)، تاريخ الحضارة.

٥٤- محمد السيد الوكيل (دكتور)، المسجد النبوى عبر التاريخ، دار المجتمع بالمدينة، ١٩٨٨.

٥٥- محمد ضياء الدين الريس (دكتور) :

- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، القاهرة ١٩٥٧.

- النظريات السياسية فى الإسلام، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٩.

٥٦- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام فى الأندلس (ج١) ط. رابعة، الخانجى/ مصر، ١٩٦٩.

٥٧- محمد عبدالعزيز مرزوق (دكتور)، الفنون الزخرفية الإسلامية، دار الثقافة، بيروت، (بدون).

٥٨- محمد بن محمود النجار، الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة، القاهرة، ١٩٥٦.

٥٩- محمد فؤاد عبدالباقى، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، إحياء التراث، بيروت، ١٩٤٥.

٦٠- محمد كامل حسين (دكتور)، الحياة الفكرية والأدبية بمصر (من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية)، النهضة المصرية، الألف كتاب، (العدد ٢٤٤)، سنة ١٩٥٩.

٦١- مصطفى الرافعى (دكتور)، حضارة العرب فى العصور الإسلامية الزاهرة، دار الكتاب، بيروت، سنة ١٩٦٨.

٦٢- الشيخ مصطفى عبدالرازق، خمسة من أعلام الفكر الإسلامى، الكتاب العربى، (القاهرة).

٦٣- مصطفى بن محمد بن عبدالله العلوى الرافعى السودانى ثم المدنى، اتحاف المؤمنين بتاريخ مسجد خاتم المرسلين، العلمية بالمدينة، ١٩٨٤.

٦٤- هاشم دفتردار، جعفر فقيه، توسعة الحرم النبوى الشريف، مطبعة الإتصاف/ المدينة المنورة، ١٩٥٤.

٦٥- ولفنسون : إسرائيل (أبو ذؤيب) (دكتور)، موسى بن ميمون، حياته ومصنفاته، القاهرة، ١٩٣٦.

٦٦- يحيى خليل نامى (دكتور)، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، بحث مجلة كلية الآداب، (ج٣)، القاهرة، ١٩٣٥.

٦٧- يكن : زهدى، الزواج ومقارنته بقوانين العالم، دار صادر، بيروت، ١٩٥٢.

ثالثا : المراجع الأوربية : Europaesche - Hilfsquellen

1. Almagro, O.Y Cardenna : La cultura Arabigo - Sevillana, Madrid.
2. Altamira, R.Y. Crevea : Historia de Espana y de la civilization Espanola, (4 Vols.) Parcelona, 1911.
3. Balbas, Leopold Torres : el entercambio artistico entre Espana y Egipto, al Andalus, 1934.
4. Balbas, Leopold Torres : Extension y demografia de les Ciudades hispano Musulmanas studia islamica, (Vols. 3) 1955.
5. Campdell, D.: Arabian Medicine, Vol. I.
6. Christie : Islamic Minor Arts and their influnces upon European Werk, in Legacy of Islam, London, 1931.
7. Codera, F. y Zaidin : Numismatica, Arabigo - Espanola.
8. Devonshire; quelques influnces islamiques sur les Art's de l'Europe, le Caire, 1929.
9. Dozy, Reinhart : Histoire des Musulmanas d'Espagne, 3 Vols., ed. Levi-Provençal, Leyde, 1932.
10. Draper, J. : A History of the intellectual Development of Europ.
11. Dunlop, M. : Arab civilization to A.D. 1500.

12. Fikry, Ahmed : L'Art roman du Pays et les influnces islamicques. Paris, 1934.

13. Gayangos, Pascual de : History of the Mohammedan Dynasties in Spain, London, 1843.

14. Gibbon, Edward : The HIstory of the Decline and Fall of the Roman Empire, 3 Vols., London.

15. Gossé, Philip : Les Piratas del Norte.

16. Grousset, R.: Histoire des croisades et du Roy Francais de Jerusalem, Paris, 1934.

17. Heyd, W. : Histoire du commerce du Lavant du Moyen Age. Leipzig, 1923.

18. Hochheim : al kafi fi'l-HIsab, Wissbaden, 1870.

19. Kühnel, E.: Islamische kleinkunst, Berlin, 1925.

20. Kühnel, E.: Maurische kunst, Berlin, 1924.

21. Kühnel, E.: Maurische kunst : Hammens, P. Henri : La syrie du Nord.

22. Lane - Poole, stanley : The Moors in spain, London. 1897.

23. Levi-Provencal, E.: Histoire de l'Espagne Musulmane (3 vols.), Leiden, 1950.

24. Meyerhof : Transmission of science to Arabs (isl. cult.) Vol. VI, London, 1930.

25. Meyerhof : Ibn an Nafis und seine Theorie des Lungenkreislaufs, Berlin, 1936.

26. Meyerhof : Legacy of Islam, chapter on science and Medicine.

27. Meyerhof und Prüfer : Die Augenheilkunde des juhanna ibn Masawaih, (der Islam) B. VI, 1915.

28. Migeon; Manuel d'Art Musulman (Arts plastiques et industriels) 2 vols., Paris 1927.

29. Müller : Atlas der islamischen länder, stuttgart, 1920.

30. Nicholson : Literar History of the Arabs.

31. Runciman, Steven : Die kreuzzüge, München, 1959.

32. Sarton, George : Intruduction to the History of Science.

33. Scott, Mechael : History of the Moorish Empire, Vol. I, Philadelfia, 1904.

34. Simonet, Francisco Javier : Histoire des les Mozarabes de Espana, Vol. I, Madrid, 1903.

35. Singer, Charl : A short History of scientfic Ideas.

36. Well-Durant : The story of Civilization.

37. Encyclopaedi of Islam. "new edition".

رقم الإيداع : ١٥٦٦٦/ ٩٨

I.S.B.N. 977-19-7480-7